الطبعة 14

حكايا سعودي في أوروبا



عبدالله بن صالح الجمعة

حكايا سعودي في أوروبا

الكتاب: **حكايا سعودي في أوروبا**

المؤلف: **عبدالله بن صالح الجمعة**

التصنيف: **رحلات**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2013
الطبعة الرابعة عشرة: أبريل (نيسان) 2013

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-425-35-9

تصميم الغلاف: مراد العريفي، حساب تويتر imorrad@

تصوير صورة الغلاف: عبدالله المشرف، مصور بورتريهات http://www.a85.me

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة ورقات
www.warqat.com



Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

 Madarekpublishing  @mdrekpublishing  www.mdrek.com  Madarek PH  madarekpublishing

المحتويات

إهداء

قبل عقود مضت

نشر يوميات سفره

«أسبوعان في بلاد الشام»

وها أنا، اليوم، أنشر يوميات سفري

إلى ملهمي، ومعلمي، وقدوتي

جدي

الشيخ محمد بن علي الجارالله

أطال الله عمره وبارك فيه

أهدي هذا الكتاب

شكر

- ما أجمل أن تصاحب في السفر من يشاركك العقل والتفكير والمشاعر...والاسم!

صاحبي في الوطن والغربة والسفر، في بريطانيا وألمانيا واليونان!

ابن عمي، عضدي وأنيسي، عبدالله بن عبدالعزيز الجمعة

نضحك، نخطط، نتجادل، نتناقش، نتعارض لكن دائمًا ننام مبتسمين، في جزيرة بعيدة، في قطار مُرهق، في نُزُلٍ متواضع، متطلعين لتجربة صباح أجمل!

شكرًا له، فبدونه، ستبدو حياتي أقل إثارة!

- لم نسافر معًا قط، لكنه رافقني في كل حكاياتي هنا!

كان معي عندما قابلت السلطان، عندما تُهت في الغابة، عندما وقعت في الوكر، عندما حييت الملكة!

لم تكن تلك الرسائل اليومية التي يبعثها لي من وراء البحار سوى شذى زهرٍ تتحسسه قريحتي فتثور!

عبدالرحمن بن بدر البدر، «بدر» هو بين النجوم!

شكرًا له، فبدونه ربما بقيت حكاياتي هذه رهينة ذاكرتي المتخمة وأوراق مذكراتي المتناثرة.

مقدمة

كنت أحتار دائمًا عندما يقترح علي أحدهم أن أوثّق رحلاتي في أوروبا، ليس لأنني لا أحار جوابًا بل لأن الفكرة نشأت لدي أساسًا على نحو متدرج يطول شرحه. بدايةً، لم أكن ،حرفيًا، على سطح هذه الأرض عندما خطرت لي فكرة تدوين تلك الرحلات، بل كنت في السماء! ليس على متن طائرة ركاب، بل معلقًا على طائرة شراعية وسط سحب بيضاء تلامس قمم جبال الألب السويسرية. فعندما اتخذت قرارًا بالقفز من أعلى القمة الجبلية راميًا نفسي وسط تكتلات السحب التي لم أكن أعرف ما تخفيه، لم أكن أفكر سوى بقراءة آية الكرسي والمعوذات، لكن ما إن انقشعت السحب فجأةً حتى أظهرت من خلفها آية من آيات الجمال ذهل عقلي لرؤيتها: قمم جليدية بيضاء تتربع فوق جبال شاهقة تخترقها الشلالات والأنهار التي شكلت بحيرتين وسط خضرة الطبيعة التي كسيت بالأشجار وتناثرت حولها المنازل الخشبية والأبقار. كان المنظر من الجَمال بحيث لا يسع نفسا واحدة أن تتلقفه! تشبثتُ بخاصرة قائد الطائرة الشراعية ورحت أحدث نفسي بأن جمالاً كهذا يستحق أن يروى!

بطبيعة الحال، ما إن هبطت على الأرض سالمًا (ومتجاوزًا حالة «أم الركب») تناسيتُ توثيق ذلك الحدث بالكتابة، مكتفيًا ببعض

المذكرات الخاصة المتناثرة وبعض الصور ومقاطع الفيديو[1]. دخلت تلك الفكرة فترة في بيات طويل حتى وطأت قدماي أمستردام لأول مرة. كانت المدينة - رغم أننا كنا حينها في منتصف النهار - هادئة لا ضوضاء فيها ولا صخب، فلما استقصيت الخبر قيل لي بأن عمال المواصلات العامة مضربين لهذا تبدو المدينة أهدأ من المعتاد، فتعجبت من الخبر وكتبت تغريدة قصيرة عنه في تويتر. وما إن حلّ المساء بعد تجولي في المدينة، حتى وجدت عشرات الردود على تغريدتي تلك، فقررت، على عجالة، مشاركة مُتابِعيّ (وكان عددهم نحو ألفي متابع) كافة أحداث يومي ذاك بالصور. في اليوم التالي، تجاوزت التعليقات المأتي تعليق! استمريت بكتابة يوميات رحلتي على شكل تغريدات مختصرة ومصورة، وخلال الأسابيع التي تجولت فيها في رحلتي تلك في هولندا والدنمرك والسويد وفنلندا واستونيا والنرويج ، تضاعف عدد المتابعين أكثر من مرة وتضاعفت معه حماستي لتدوين تلك الأحداث واليوميات لأشارك بها غيري من محبي السفر وقصص الرحلات.

ولعل أكثر ما يثير استغراب من أُحدّثه عن رحلاتي هو أنني أسافر، في غالب الأحيان، وحيدًا! في الواقع أنني لم أخطط لهذا الطراز من السفر، بل حمله القدر إليّ! إذ لم يسعَ أحد من أصاحبي لمرافقتي في إحدى سفراتي، فعزمت على الانطلاق وحيدًا متجهًا من بريطانيا نحو جمهورية التشيك، وكانت المفاجأة! فعوضًا من أن تنتابني الرهبة ويتسلل إلي الملل، شعرت بسلام داخلي هائل وسعادة وحماسة كبيرتين ما شعرت مثلهما قط من قبل، وسيأتي تبيان ذلك بعد قليل.

---

(1) بالإمكان الاطلاع على أحد مقاطع الفيديو2 هذه على هذا الرابط:
http://www.youtube.com/watch?v=FPzGp0t2jjg.

والسفر وحيدًا هو أحد الأسباب التي تجعلني أفضل السكن في الهوستلات، والهوستل عبارة عن نُزل شبابيّ رخيص يسكنه المسافرون الشباب بحيث تؤجر أسرته عوضًا عن غرفه، فيكون في كل غرفة عدة أسرة يستأجرها مسافرون مختلفون ويتشاركون في المطبخ وغرف المعيشة ودورات المياه. ومن ميزاتها أنها توفر فرصًا سانحة للتعرف على شباب من مختلف الدول، خاصة من أوروبا والأمريكيتين، فضلاً عما توفره عادة من نشاطات شبابية متنوعة كالرحلات والحفلات والجولات السياحية المخفضة وغيرها، فيكون نزلاء الهوستل الواحد أشبه بشباب في معسكر، يتشاركون الحياة والبهجة.

***

ومثل أن فكرة هذا الكتاب لم تنشأ على سطح هذه الأرض، فإن مقدمته لم أشرع بكتابتها وأنا تمامًا على قيد الحياة، بل كنت ميتًا، موتة صغرى! ففي صباح باكر من صباحات شتاء الرياض البارد، لم يجد النوم طريقه إلي، إذ أخذت أتقلب في فراشي أفكر في مقدمة هذا الكتاب، ولما أنني لم أفلح في العثور على مقدمة مناسبة ولا على نوم مريح، حملت نفسي وبعض قطع الفراش واتجهت إلى الأسفل وارتميت على أرضية إحدى الغرف. لم ألبث حتى دخلت في نوم خفيف رأيت نفسي فيه معتمرًا عمامة زرقاء وأكتب على ورق أصفر مهترئ داخل غرفة صغيرة رطبة في قلب سفينة تجارية خشبية، انتبهت من نومي وأنا أتذكر ما كنت أكتبه أثناء الحلم، فأحضرت قلمًا ورحت أكتب ما وسعني تذكره على هوامش مجلة كانت في الجوار، ثم أضفت وعدلت قليلاً عليه حتى خرجت منه بجزء من المقدمة:

«... وقد يلحظ القارئ الحاذق أنني في جُلِّ القصص أكون وحيدًا مسافرًا بلا رفقة، إذ ذاك هو مذهبي في السفر ونِحلتي في التّرحال. فالمرء عندما يسافر وحيدًا فإنه يستظهر من قرارة نفسه ما يفوق استظهاره من معالم البلدان وملامح العمران إن هو فَطِن إلى ذلك، فتجده يغوص في أعماق ذاته مستكشفًا خباياها ومتجولاً في أرجائها، ممتحنًا قوتها وضعفها، متأملاً في حاله ومتفكرًا في حاضره ومآله، وهذا مما لا يسعه الاضطلاع به في وطنه حيث يُعكِّر صفاء ذهنه الانشغال بطلب الرزق وشؤون الأهل والعيال. وقد طُفتُ أوروبا شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، وما زادني ذلك إلا معرفة بدقائق نفسي ومكنوناتها، وخوالج شخصيتي وخصيصاتها، وكل ذلك فضلاً عما يستجلبه الترحال من متعة بادية لا تخفى وذكرى باقية لا تفنى. والسفر عندي مصدر للمعرفة، ومنبع للعلوم والآداب، ولقد قرأت فيما مضى من الدهر ثلاثة آلاف من الكتب لم أخرج منها بمثل ما خرجت به من زيارة لثلاثين بلدًا من تهذيب للنفس وصقل للشخصية وتوسيع للأفق وعلو للهمة وتعلّم للحيلة وتسريع للبديهة وتعزيز للفراسة وما سوى ذلك من السمات والخصال الهامة التي لا مناص من الاتسام بها ليستقيم حال المرء الذي يروم السؤدد وشرف المرتبة. وإني بما أسلفت لا أحطّ من شأن الكتب البتة؛ بل تضمن ما ذكرته رفعة لمقدارها وتعظيمًا لشأنها لكن بغير الوجه الذي ينطبع على الأفهام في الوهلة الأولى. فالنظر في الكتب والتبحّر فيها ضرب من ضروب السفر ولا شك، وصنف من صنوف الترحال ولا ريب، وإن كان ذلك على سبيل المجاز لا الحقيقة كما هو ظاهر ومعلوم. وبهذا يصير الكتاب ملازمًا للسفر وربما مرادفًا له، فالأول جولة في الأفكار والأذهان، والثاني جولة في الديار والبلدان. فما أحسن أن يُجمع بينهما ويُلاقَح بين مزيّتيهما!

ولا شيء يكون أتم من ذلك في جلب المعرفة وشحذ الذهن سوى أن تُضاف الرفقة الصالحة الناصحة، التي لا يعدم منها المرء فائدة أو لطيفة أو مشورة تكون له بمثابة مصابيح تضيء له ظلمة خواطب الدهر. وفي سيرة نبينا الأكرم ما يغني عن البحث والتقصي، وما يكفي في القدوة والتأسي. إذ شاءت حكمة الله أن ينزل الدين في كتاب، وهو القرآن، وأن تقوم دولة الإسلام بعد سفر، وهو الهجرة، وأن ينتشر الدين في طباق الأرض بسبب الرفقة، وهم الصحابة، فكان ذل عين الكمال ورأس التمام».

وهذا كان حالي، أسافر وحيدًا متأبطاً كتاباً ومتعرفًا على أناس جدد من أصقاع شتى!

عبدالله بن صالح الجمعة

كامبريدج، ولاية ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية

خريف 2012

موعد مع السلطان عبدالحميد

سالونيك، اليونان. ربيع 2012

قبل سنوات في العاصمة الرياض، أثناء ما كنت طالبًا في جامعة الملك سعود، كنت مستلقيا قبل النوم، أقرأ في مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني، السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السابع والعشرون من بني عثمان، وآخر من مارَسَ سلطة حقيقية منهم ووصلت إلى الفصل الذي يحكي فيه السلطان عن أيامه في مقر منفاه في مدينة سالونيك والذي بدأ فيه بكتابة مذكراته.

تحدث السلطان عن بعض آرائه، وتطرق لموقفه الشهير الذي رفض فيه بيع فلسطين لليهود، وعرّج على حرب البلقان التي كانت بلاده تخوضها عام 1912 ضد المتمردين الصرب واليونانيين وغيرهم.

بعد شوط من القراءة غلبني النعاس، ورأيت نفسي في حضرة السلطان عبدالحميد داخل منفاه الذي كان عبارة عن قصر قديم في مدينة سالونيك – التي تسمى اليوم سالونيكا – التي كانت حينها تخضع للسيادة العثمانية قبل أن يستعيدها اليونانيون عام 1912 أثناء ثورتهم على الدولة العثمانية. كان السلطان فرحًا بمقدمي وأخذ يحدثني بهدوء عن جدوله اليومي في المنفى، والذي كان – بطبيعة الحال – مملا

مقارنة بما كان يشغل به يومه من حكم بلاد تمتد في ثلاثة قارات، ويعيش فيها عشرات الأجناس والشعوب. لم يكن السلطان يعتمر طربوشه الشهير بل ظهر شيب شعر رأسه الخفيف وكأنه يشع حكمة ووقارًا، وزاد من مظهره المهيب لحيته التي اختلط سوادها بالبياض وتمتد من الصدغ إلى الصدغ لتستقر عند منتصف صدره الذي أنهكته الهموم وقلاقل السنين.

فجأة انتبه السلطان لصوت من الخارج، فأخذ بيدي مسرعًا نحو السلالم المؤدية إلى العلية والتي صعدها السلطان كصعود شاب في مقتبل العمر، لا كشيخ قارب عمره السبعين. نظر إلى خارج إحدى النوافذ وأشار بيده إلى كتيبة جنود يسيرون من بعيد بالكاد تراهم العين، وقال وعيناه تملؤهما ومضة فخر واعتزاز وأبوية حانية:« انظر! هؤلاء جنودنا في طريقهم للدفاع عن بلادنا في البلقان» نظرت إليهم بسرعة خاطفة قبل أن أعيد نظري إلى عينيه اللتين لا تزالان تنظران إلى الكتيبة وكأن شريطًا من أحداث التاريخ يمر بهما، وهما تشعان فخرًا وكبرياءً. تأملت حال هذا الشيخ الجليل الذي خُلع من عرشه وتركته بلاده كفصلٍ انقضى من كتابها، بينما كانت بلاده كتابه كله.

شعرت حينها بأنه علي الاستئذان من السلطان والخروج (والاستيقاظ من النوم!) فأخبرته بأنه علي الذهاب، فحزن ووجل، وطلب مني قضاء المزيد من الوقت، وأخذ يقبض علي يدي كما يقبض الأب يدي ابنه المقبل على سفر بعيد. قال السلطان بعد إلحاحي:« سأدعك تذهب، لكن عِدني بأن تأتي لتزورني مرة أخرى». وعدت السلطان بهذا واستيقظت من النوم وكأنَّ نسيمًا باردًا حلّ في غرفتي

وأخذ يسري في نَفَسي حتى شعرت بنشوة غامرة.

(صحصحت) ولجأت مباشرة إلى الإنترنت لأعرف مكان القصر الذي نُفي إليه السلطان بالإضافة إلى اطلاعي على الرحلات المتوجهة إلى اليونان وتحديد ميزانية السفر وما إلى ذلك، فلقد عزمت على إيفاء وعدي للسلطان!

كنا في ذلك الوقت مقبلين على إجازة عيد الأضحى المبارك، وبدت الفرصة سانحة للسفر إلى اليونان للقاء السلطان المتوفى. ورغم أنني حينها لم أسافر إلى أوروبا بعد، ولم يسبق لي السفر وحيدًا، إلا أنني كنت عازمًا وخططت للسفر جيدًا، فذهبت لأمي لأخبرها بما أنا بصدده قائلا:

- إن شاء الله بأروح لليونان بعد أسبوعين!!

- وش عندك؟!!!!

- رأيت في المنام السلطان عبدالحميد في منفاه وطلب مني زيارته.

نظرت إلي أمي نظرة استفهام وقالت بهدوء: «وأنا أمك ارجع نم وقل له أمي عيّت» وكما هو متوقع، صرفت النظر عن السفر حينها، وبدا وأن السلطان سينتظر طويلاً!!

***

بعد نحو ست سنوات، حجزت تذكرة إلى اليونان وسكنًا في سالونيك وحدثت نفسي: «جاي لك يا السلطان جاي لك»!

من الظريف أن اليونان كانت الدولة الأولى في أوروبا التي خططت لزيارتها سابقا، لكنها كانت الأخيرة التي زرتها حتى كتابة هذه الأسطر. زادت رغبتي إلى زيارة اليونان، فضلاً عن مقابلة السلطان واستكشاف تراثها العريق: انهيارها الاقتصادي إثر الأزمة المالية العالمية التي عصفت باقتصاد البلاد وكادت أن تهوي به إلى الإفلاس، كانت فرصة مواتية لزيارة بلد يمر في منعطف تاريخي وسط سخط شعبي عارم. كما أن هذه الأزمة أدّت إلى تراجع ملحوظ في الأسعار، مما جعلها جاذبة للباحثين عن السياحة الاقتصادية.

كان ذلك في الربيع وكان الجو هناك من أمتع ما يكون، فليس بالبرد الذي ينفر، ولا بالحر الذي يذكر بجو الرياض الحارق. وصلت إلى أثينا التي امتلأت طرقها بأشجار اليوسفي واكتسحت سماءها سحبٌ بيضاء كأنها لؤلؤ منثور. كنت قد وصلت قادمًا من الرياض، واتجهت إلى السكن لأنتظر ابن عمي عبدالله القادم من بريطانيا حيث يدرس هناك. كان السكن عبارة عن هوستل جميل يقع في وسط المدينة قرب آكروبوليس أثينا ذو الـ2600 عامًا، والذي يعد أهم تجمع لآثار الإغريق في أثينا. كان الطريق الصغير الذي يقع عليه الهوستل مغطى بأشجار اليوسفي التي تساقطت بعض ثمارها على الأرض لتفوح منها رائحة فواحة أشعرتني بأن أحدهم قد عطّر الطريق برائحة أخاذة.

بعد أن قضيت وابن عمي يومين في أثينا، تجولنا خلالهما في البلدة القديمة، واستكشفنا معابد ومسارح وباقي آثار الإغريق

القدماء، حملنا أنفسنا من سررنا بعد نوم قصير صباح يوم الأحد الخامس والعشرين من مارس إلى محطة القطار متجهين نحو سالونيك. كانت أثينا ذلك الصباح ملغمة بعربات الجيش التي أخذت تقطع طرقات المدينة جيئة وذهابًا لتعزز مواقعها تحسبًا لمواجهات ومظاهرات ضخمة بمناسبة عيد استقلال البلاد الذي يصادف ذلك اليوم. كانت الكثير من الأحزاب السياسية المعارضة قد دعت إلى مظاهرات مناهضة للحكومة التي أقرت خطط تقشف شديدة لأجل تسديد الديون العامة التي قاربت ما نسبته 200٪ من مجمل الناتج المحلي للبلاد.

كان يفترض أن يحتفل اليونانيون حينها باستقلال بلادهم من الدولة العثمانية التي ثاروا عليها عام 1912، بينما كنا نحن متجهين إلى سالونيك، تلك المدينة التي حررها اليونانيون من العثمانيين في تلك الثورة. بالنسبة لي، انتابني شعور غريب، خاصة أن هذا الاحتفال يعد استثنائيا بحق، إذ إنه يصادف الذكرى المئوية الأولى للاستقلال.

قرنٌ بالتحديد مرّ منذ أن وطأت أقدام آخر جندي عثماني تراب هذه البلاد.

حينما وصلنا محطة القطار، كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع صباحًا، سألنا المأمور عن رصيف القطار المتجه إلى سالونيك ونحن نمنّي أنفسنا بمقاعد وثيرة نعوض بها عدم كفاية نومنا تلك الليلة، فأخبرنا بأن القطار قد انطلق بالفعل قبل نحو ساعة!

تابعنا معه:

- لكن يفترض أنه لن ينطلق قبل السادسة والنصف، والآن هي الساعة السادسة والربع!

- لا، الساعة الآن السابعة والربع...لقد تغيّر التوقيت فجر اليوم!

يا إلهي! لقد كان ذلك اليوم بداية التوقيت الصيفي في اليونان وبعض الدول الأوروبية، وتم تقديم الوقت ساعة واحدة عندما كنا نائمين!

تبين لنا أنه علينا أن ننتظر زهاء أربعة ساعات فضلاً عن أنه تحتم علينا دفع قيمة التذكرة كاملة مرة أخرى. قبلنا ما نحن فيه وجلسنا في مقهى قريب نشاهد عربات الجيش والجنود ينتشرون في كل مكان.

جاء موعد الرحلة وأخذنا مقاعدنا في عربة القطار الذي اتجه بنا شمالاً صوب سالونيك في رحلة تستغرق نحو خمس ساعات. كان مستوى القطار متواضعًا مقارنة بقطارات معظم دول أوروبا الأخرى، وكان إلى حد ما، يعكس الفرق بين مستوى التقدم في هذه البلاد مقارنة بدول أوربية أخرى تفوقها تقدمًا بمراحل. شاركنا في عربة القطار عدة أشخاص لا يثيرون الاهتمام سوى عائلة غجرية مكونة من أب وأم وطفلة صغيرة وطفل رضيع، وما إن تحرك القطار حتى تقدمت الأم الغجرية إلينا وإلى باقي الركاب تطلب بعض المال لها ولأطفالها. كانت تلبس قميصًا مهترئًا أسود اللون وتنورة مطرزة على شكل جلد

نمر، وتلبس من الحلي ما لايحصيه إلا الله. وبعد جولة (شحادية) في القاطرة، استقرت في مقعدها لتبدأ مهمتها في تبديد استقرار القاطرة بأسرها. إذ أخذت تغني وترقص، وتهتز وتتمايل وتوزع ابتساماتها وضحكاتها هنا وهناك.

أصبح صوتها مع مرور الوقت، كصوت صفير القطار واصطكاك العربات اعتادت عليه آذاننا ولم نعد نشعر بوجوده. تعد هذه الغجرية واحدة من مائتي ألف من الغجر المستقرين في اليونان والذين يشكلون نحو 2٪ من مجمل سكان البلاد، والغجر شعب متجوّل يُعتقد أنه قدم أصلاً من شمال الهند في القرن الرابع عشر واستقر كثير منهم في أوروبا. وهم شعب بسيط لا تستهويه المشاكل ولا تجلبه المشاكسات، ويكفي أن نعلم أن ألمانيا النازية أحرقت مئات الآلاف منهم، إلى جانب اليهود، أثناء الحرب العالمية الثانية دون أن يخرجوا ليطالبوا بتعويضات ويقيموا مناحات كما فعل اليهود، إخوانهم في المصيبة.

أخذ قطارنا يشق طريقه وسط السهول الخضراء البديعة التي استغلها الريفيون بالزراعة والرعي حتى غدت كلوحة جميلة.

ما لم يكن جميلاً، هو محطات القطار المتهالكة التي يقف بها القطار ليحمّل مزيدًا من الركاب أو يضع بعضهم إذ لم تكن من طراز تلك المحطات المنسقة التي اعتاد المرء رؤيتها في أوروبا، وزاد الأمر غرابة أنه وبعد أن انتصف بنا الطريق انتبهت من نومي بسبب إعلان أعلنه قائد القطار باللغة اليونانية أثناء توقف القطار في محطة أشبه بخرابة، فأخذ الركاب يوضبون بعض أغراضهم واصطفوا أمام الأبواب تهيئًا للخروج. كان واضحًا أن القطار تعطل أو سيتوقف للتزود

بالوقود ونحوه؛ إذ لم يكن من المعقول أن ينزل عشرات الركاب في هذا المكان الذي بدا معزولاً عن كل شيء.

لم يستغرق الزمن سوى دقائق حتى اتضح ما الذي كان يحدث... فلقد توقف القطار ليأخذ الركاب (فسحة)! إذ نزلوا في هذه المحطة التي لم تحوِ حتى رصيفًا واحدا، وأخذوا يدخنون ويلعبون أطفالهم وكلابهم. اجتاحتني حينها فكرة عقلية من قبيل:« آها، الآن فهمت!»، إذ اتضح لي حينها إجابات العديد من التساؤلات، فأثناء متابعتي لأخبار الأزمة الاقتصادية اليونانية كان واضحًا مستوى السخط لدى الألمان الذين أخذوا في صحفهم يتهمون اليونانيين بالكسل والخمول، وطالبوهم بالمزيد من الجدية والعمل. فألمانيا، بصفتها الدائن الأكبر لليونان والاقتصاد الأقوى داخل منطقة اليورو، قدمت مليارات اليورو على شكل هبات أو ديون لليونان لمساعدتها لتجاوز الأزمة، لكن الألمان لم يكونوا مرتاحين كثيرًا لتقديم هذه المبالغ الهائلة لشعب يتوقف عن العمل وقت الظهيرة ليأخذ غفوة...أو حتى ليوقف رحلة قطار ليأخذ (فسحة)!وبطبيعة الحال فإن اليونانيين لم يوافقوا الألمان بما رموهم به، بل أخذوا ينعتونهم بالنازيين والعنصريين، وبأنهم في الحقيقة لا يقدمون المساعدة لليونان بل لألمانيا نفسها حيث إن تجاوز اليونان لأزمتها يعني تسديد الديون لألمانيا، بل وقد أخبرني بعض اليونانيين الذين تحدثت معهم بهذا الخصوص بأن بلادهم غير ملزمة بتسديد هذه الديون لأن ألمانيا لم تقدم لهم أصلاً أية تعويضات جراء الخسائر التي تكبدتها بلادهم جراء الغزو الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية. وكنت قبلها لاحظت في أثينا ملصقات على الجدران تحمل صورة المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل وبجانبها هتلر، وهذه إهانة لا تفوقها

إهانة في الذهنية الألمانية!

بعد أن أنهى الباشاوات استراحتهم، انطلق قطارنا مرة أخرى بينما انطلقت أقرأ في كتاب بينما أخذ ابن عمي يلعب بجهازه الآي باد. وفجأة! وبلا مقدمات، هجمت علينا السيدة الغجرية التي كانت تتكلف ما لا يلزمها من التطفل على شؤون الركاب وأخذت تحاول سحب الآي باد من يد ابن عمي عبدالله، مطالبةً إياه بتسليمه له لتلعب به قليلاً!! قاوم عبدالله ورفض بطبيعة الحال، لكنها أخذت تزبد وترعد، وتزيد وتعيد، وتحاجج وتلالج. فما زالت على حالها تلك حتى لمحت سيدة عجوز يونانية كانت تأكل قطعًا من الشوكولاتة فتقدمت إليها مطالبة بتسليمها بعض القطع، أخذت لوحًا أو اثنين من الشوكولاتة قبل أن تجلس في مكانها، وهي تشير إلينا بإصبعها وتهذي بكلام غير مفهوم وكأنها تبحث عن سبب للتحريش!

أخذتْ طوال الرحلة ترمقنا بنظرات وابتسامات غريبة، بينما أخذتُ أحدث نفسي بالمكابدة التي أواجهها منذ اليوم وأنا في طريقي إلى لقاء السلطان!

***

انقضت رحلتنا، التي بدت كأنها خمسة أيام بدلاً عن خمس ساعات، وذلك بوصولنا إلى محطة قطار مدينة سالونيك. كانت المحطة كبيرة، لكنه كان واضحًا أن موجة غبار قد اجتاحتها قريبًا، إذ كانت رائحتها أشبه برائحة منزل نجدي أثناء موجة غبار شديدة. ركبنا سيارة أجرة متجهين إلى الهوستل، كانت الساعة تشير إلى

الرابعة عصرًا، وكان أمامي ساعتان قبل أن يحل الغروب لأتجه إلى قصر السلطان.

سألنا سائق الأجرة ما إذا كنا عربًا، فلما أجبناه بالإيجاب صاح قائلاً بمرح: قذافي قذافي! ثم راح يعلي صوت الراديو الذي كان يبث موسيقى يونانية شعبية!!

وصلنا الهوستل الذي لا يقع بعيدًا عن شاطئ المدينة ووسطها القديم، وكان الجدار الهوستل مليئًا بالعملات الورقية من كافة أنحاء العالم والتي تُمثّل نزلاءه على مدى السنين، ولما هممت بوضع الريال السعودي رأيت بعض تلك العملات وقد أبتذلت إذ شُخِّط ورُسم عليها فتراجعت. اختار لنا شاب الاستقبال غرفة تسمى بـ(الهند) إذ أن هذا الهوستل يسمي غرفه على أسماء دول من جميع أنحاء العالم، ويعرض داخل كل غرفة صورًا ولوحات فنية من تلك الدولة التي تحمل الغرفة اسمها. ارتحت قليلاً عقب رحلة القطار الشاقة التي لم تكد تنتهي، وتجهزت ،وتعطرت!،- للقاء السلطان عبدالحميد، بينما أخذ ابن عمي يجهز كاميرته استعدادًا لتوثيق هذه اللحظة التاريخية.

خرجنا واستقلينا سيارة أجرة متجهين إلى فيلا ألاتيني، وهو اسم القصر الذي نفي إليه السلطان، وألاتيني اسم عائلة يهودية ثرية كانت تسكن القصر كمقر صيفي لها في نهاية القرن التاسع عشر. أصبح المبنى مقرًا لجامعة سالونيك في عشرينيات القرن العشرين قبل أن يتم تحويله مؤقتًا إلى مستشفى في الحرب العالمية الثانية. يشغل القصر الآن مقر إدارة ولاية مقدونيا الوسطى، والتي تعتبر سالونيك عاصمة لها. ومن هذا المنطلق كان يثور استغراب كل من سألناه عن

مكان الفيلا، إذ من يريد الذهاب لرؤية مقر إداري حكومي لا يحمل أية أهمية؟! فالأدلة والخرائط السياحية على تنوعها لا تشير إلى هذه الفيلا كمبنى يستحق الزيارة بل قد لا تذكره على الإطلاق، والأمر نفسه لدى سكان المدينة، فيبدو أنهم نسوا أن مدينتهم كانت منفى لسلطان مسلم عظيم قبل 100 عام فقط!!

دخلنا الحي الذي تقع فيه الفيلا «القصر»، وهو مليء بقصور كانت تعود ملكيتها لعائلات يهودية ثرية شتى، والذين لعبوا دورًا هامًا في تاريخ هذه المدينة، بل وحتى في تاريخ الدولة العثمانية ككل. ففي هذه المدينة ولد مصطفى كمال أتاتورك-، مؤسس الدولة التركية الحديثة، ورتع في رياضها وجنى من ثمارها (ولا يزال بيته الذي ولد فيه قائمًا كمتحف يؤمه السواح)، ويزعم العديد من المؤرخين المناوئين لأتاتورك بأنه ولد لدى عائلة يهودية من هذه المدينة وترعرع في حي من أحيائهم هنا، وهو زعم يقول به يهود هذه المدينة، الذين يرون في مصطفى كمال رمزًا من رموزهم، يفاخرون به بين سائر الأمم.

المفارقة أن يهود سالونيك قدموا إلى المدينة أثناء حكم العثمانيين الذين ضمنوا لهم حرية العبادة فضلاً عن كونهم يريدون تقليل نسبة اليونانيين في هذه المدينة التي تعتبر أكبر مدن اليونان بعد أثينا. تقدمت بنا السيارة داخل الحي الذي كان مرتبًا ومنسقًا، ويعكس بحق تاريخه كحي أرستقراطي في حقبة قد خلت، وقطع تخيلاتي منظر محل كباب صغير اسمه «سلطان كباب»، فكبّرت الله مستذكرًا كيف صيّر سبحانه حال الأتراك من سلاطين بلدان إلى سلاطين كباب!

توقفت سيارة الأجرة في نهاية ممر صغير أسفل ربوة صغيرة،

وأشار السائق إلى القصر الذي ينتهي إليه الممر. كان شعورًا مهيبًا! كان القصر محاطًا بسياج حديدي مزخرف بجهاته الأربعة، وتحفّه حديقة تحوي أشجارًا عالية ومنحوتات فنية خشبية، بينما يتوسطها القصر ذو الطوب الأحمر المزينة أطرافه بأحجار صخرية بيضاء، وتعلوه مداخن خلابة عديدة تظهر القصر وكأنه رافعًا يديه للسماء، وتداعبه أشعة الشمس التي شارفت على المغيب وكأنها تخبره بمرور قرن كامل من الزمان منذ أن خرج منه السلطان عبدالحميد آخر مرة. لاحظت أن ستائر نوافذ القصر الطويلة التي تفنن مصمم القصر الإيطالي بزخرفتها كانت مشرّعة، ربما لأجل الزينة، وربما لكي يتسنى لأرواح من سكنوا المكان بأن تلقي نظرة على منظر الغروب البديع... وربما نظرة على ذلك الشاب العربي الذي جاء من قارة أخرى ليستشعر روح هذا المكان!

***

كنا حينها في ربيع 2012 وبدت وأنها لحظة خاطفة قد مرت منذ ترك السلطان هذا القصر عام 1912، فلقد كانت روحه وذكراه تعم المكان وكأنها تحكي لعابري السبيل قصة ذلك الشيخ الجليل الذي عاش هنا بعيدًا عن محبوبته - بلاده، التي شغفته حبًا وهو يراها تتهاوى أمام ناظريه وهو مكبّل لا حيلة له ولا قوة.

تجولت قليلاً حول القصر الذي كانت بوابات سوره الصغير مغلقة بسبب الإجازة، بينما ظلت بوابة واحدة مشرّعة يحرسها الجند الذين كانوا يتسامرون فوق عتبة داخل الحديقة. تساءلت ما إذا كان الجند سيسمحون لي بالدخول داخل السور لالتقاط بعض الصور،

وربما بعض الذكريات! بعد تردد قليل، تقدمت نحوهم وبدون أن أنبس ببنت شفة! صرخ أحدهم: «هذا ليس متحفًا» وتقدّم إلي وهو يشير بيده إلى الخارج، عندها اتخذت استراتيجية «السائح المتغابي»، وهي استراتيجية تتمثل بأن يمسك المرء خريطة بإحدى يديه بينما تشير اليد الأخرى إلى مكان ما في الجوار مع تمتمة بكلمات إنجليزية مكسّرة وهز الرأس موافقة لكل ما يقوله الشخص الذي أمامه. وعلى غير المعتاد، لم تنجح الاستراتيجية في استدراج حرس مقر الولاية إلى استعطاف سائح بسيط أراد التقاط صورٍ لمبنى قديم!



جانب من فيلا ألاتيني

خرجت من البوابة واتجهت إلى مقدمة القصر من أمام السور، وجلست لدقائق مغمضًا عيني أشتم رائحة زهور حديقته وأتحسس أحاسيس وأرواح من عاش في هذا المكان، بينما استقرت أشعة شمس البحر الأبيض المتوسط على جبيني لتملأني دفئًا وطمأنينة. رأيت في خيالاتي السلطان عبدالحميد وهو يصعد درجات القصر لأول مرة وكأني به يلتفت التفاتة هادئة نحو الجند الذين يقودونه أتبعها بنظرة على أحياء المدينة الممتدة أمامه، وكأنه يعلم أنها لن تطول الأيام حتى تنفك عن سيطرة العثمانيين، ولن يكون أمام هؤلاء الجند البؤساء سوى الانكسار والتقهقر. طاف بي حينها شريط حياة السلطان كما أعرفها، اللغات التي أتقنها، الصور الأخاذة التي التقطها، والمقاطع الأوبرالية التي عزفها، وقصائده التي أنشدها، دعواته لوحدة المسلمين، إنشاء الدستور وإلغاؤه، افتتاح سكة حديد الحجاز، رفضه لتسليم فلسطين لليهود، تطويره للجامعات والمسارح والمتاحف، إنشاء «مجلة الأحكام العدلية»، حربه للروس، محاولة اغتياله من قبل الأرمن واليهود، مجابهته لمؤامرات تحاك ضد دولته، وأخيرًا المؤامرة التي حيكت ضده والتي جلبته إلى هذا المكان قبل قرن من الزمان. قرن كامل مر منذ أن ثارت هذه الأحداث كذكريات في ذاكرة السلطان الكهل الذي أخذ يسطرها هنا في مذكراته لتتوثق في ذاكرة الأجيال لقرون ستأتي.

رفعت يديّ نحو السياج وقبضت عليه بهدوء، ورحت آخذ نفسًا عميقًا ورفعت عيني المغمضتين قليلاً، صُوِّر لي خيال السلطان وهو يطل من ذات النافذة التي أراني منها الجند متجهين إلى حرب البلقان في الحلم، كان ينظر إليّ بهدوء وأنا من خلف السياج وكأنه يشكرني على مقدمي وإيفائي بوعدي. عمّ الهدوء المكان، وتلونت السماء بلون الشفق

الأحمر وراح نسيم البحر يداعب شعري ويملأ نَفَسي بهواء وهوى. نظر إليّ خيال السلطان الوقور نظرة أخيرة ثم تلاشى، فتحت عينيَ فجأة وقد اغرورقتا بالدموع... كانت لحظةً بمقدار قرن!



من أمام منفى السلطان عبدالحميد الثاني

ضياع في الغابة

غابة نيو فورست، جنوب إنجلترا. خريف 2009.

قرر عدد من أصحاب الغربة الأعزاء زيارتي في مدينة بورنموث، حيث كنت أدرس هناك دبلومًا في الدراسات القانونية. كان الموسم خريفًا ولم تكن هذه المدينة الواقعة في أقصى الساحل الإنجليزي الجنوبي بمعزل عن لسعات الرياح الإنجليزية الباردة، رغم كون نهارها أدفأ بمقدار محسوس من مناطق وسط وشمال البلاد. لم يكن ليقيم أصاحبي لأكثر من يومين، لذا تحتّم علي وضع جدول زيارة مزدحم نقضي فيه وقتًا ممتعًا نعيد فيه ذكريات كامبريدج، تلك المدينة التي التقينا فيها بداية ذلك العام، ولم يكن هناك خيار أفضل من مغامرةٍ نعيش فيها متعة وفي ذكراها بهجة.

من حسن الحظ أن بورنموث كانت تقع مباشرة خلف الأطراف الغربية للغابة الجديدة، أو «ذا نيو فورست»، وهي من أشهر غابات إنجلترا وأجملها، خاصة في الخريف حيث تتلون الأشجار بألوان بديعة وتتناثر أوراق الشجر على الوديان والأنهار والممرات الطبيعية التي تشقها الغزلان والخيول البرية لتشكل لوحة فنية من صنع الخالق سبحانه. لذا كان واضحًا أن زيارة الغابة في هذا الوقت كان خيارًا ملائمًا. استشرت الشباب وقالوا: «قداام».

***

وفي مساء يوم جمعة بارد توقف قطار السابعة والربع مساء القادم من لندن على رصيف محطة قطار بورنموث، وترجل منه أصحابي، أحمد وعادل وعبدالله، الذين كنت في استقبالهم على الرصيف رغم برودة الجو التي بددها دفء الصحبة التي حلّت علينا حالَما تعانقنا وتبادلنا السلام. استقلينا سيارة أجرة متجهين إلى سكن أصحابي الذي رتبته لهم، والذي كان عبارة عن غرفة واسعة ذات ثلاثة سرر تقع في الدور العلوي لحانة قريبة من سكني.

بعد أن تجولنا في وسط المدينة وتناولنا طعام العشاء في مطعم كوبي صغير، قضينا الليل على الشاطئ نتسامر ونسترجع الذكريات الجميلة ونخطط لمغامرتنا المزمعة في اليوم التالي. بكّرت بالاستيقاظ في صباح الغد، واتجهت إلى سكن الشباب لأشاركهم الفطور الذي تقدمه الحانة والذي كان عبارة عن بيض مقلي وبطاطا مهروسة وقطع من خبز التوست المحمص المغطاة بالزبدة ومربى الكرز بالإضافة إلى شاي الفطور الإنجليزي. أخبرت الشباب بأنه وعلى الرغم من أن الطقس يبدو صحوًا، إلّا أن التوقعات تشير إلى احتمال هطول أمطار شديدة خلال الظهيرة. تبادلنا النظرات بسرعة حتى صاح أحدنا: «حتى لو كان بينزل ثلج، حنا جايين نغامر»، أيدناه بالإجماع وأنهينا فطورنا متجهين إلى محطة القطار. تبعد الغابة نحو نصف ساعة بالقطار، وكان مقصدنا تحديدًا قرية بروكنهرست التي تقع في الوسط الجنوبي للغابة؛ إذ تتميز بوجود متجر لتأجير الدراجات الهوائية التي قررنا التجول في الغابة بها. رغم أن بروكنهرست لا تعدو اليوم عن كونها قرية وادعة هادئة ومنطلقًا لاستكشاف الغابة، إلّا أنها كانت يومًا ما مقرًا لتدبير أعظم عملية عسكرية شهدها التاريخ، إذ اتُّخذ أحد

فنادقها كمقر اجتماعات من قبل رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل والقائد الأعلى لقوات الحلفاء دوايت آيزنهاور وكبار جنرالات جيوش الحلفاء أثناء تخطيطهم لعملية الإنزال في نورماندي-شمال فرنسا- والتي عرفت بعملية «د داي» أو «أطول يوم في التاريخ»، والذي ما إن تمت بغزو شمال فرنسا المحتلة من قِبل الألمان يوم 1944/6/6 حتى تبدل مسار الحرب العالمية الثانية لصالح الحلفاء وبدأت القوات الألمانية بالتقهقر.

وصلنا القرية الصغيرة هذه واتجهنا إلى متجر تأجير الدراجات والذي كان ملحقًا بالمحطة. كان المتجر عبارة عن قاطرة قديمة استُغلّت لاحتواء عشرات الدراجات مختلفة الأحجام والطرز. تقدمنا نحو صاحب المتجر وسألناه عما إذا كان الجو ملائمًا لاستئجار دراجات رغم التحذيرات بهطول الأمطار، أجابنا بأنه لم يؤجر العديد من الدراجات في هذا اليوم لهذا السبب لكنه لم يبد قلقًا حيال الأمر خاصة أنه رآنا شبانًا نستطيع الاعتناء بأنفسنا كما يقول. شكرناه على إطرائه - ومهاراته التسويقية - وطلبنا منه أربعة دراجات. قام بتجهيزها جميعًا وتأكد من عمل المكابح والإضاءة، وطلب أن نختار من بيننا زعيمًا لكي يسلمه خريطة الطريق ويوقع معه عقد الإيجار. انتُخبتُ، بطريقة ديمقراطية، للقيام بهذه المهة، واستلمت الخريطة ووقعت عقد الإيجار الذي تضمن تعبئتي لاسمي ورقم هاتفي النقال بالإضافة إلى بيانات بطاقتي البنكية لكي يستطيع المؤجر تعويض خسارته في حال أتلفنا الدراجات أو لم نعدْها. أخبرنا الرجل بأنه علينا أن نعيد الدراجات قبل أن يغلق المتجر عند الخامسة مساء، إلّا أنه اقترح أن نعيدها بوقت أبكر من ذلك حتى يتسنى لنا تسليمها قبل

الغروب. كانت إجراءات استئجار دراجة هوائية لساعات داخل هذه الغابة أكثر تنظيمًا واحترافية من استئجار سيارة لعدة أيام في مدن كبيرة أخرى في هذا العالم.

توقفنا قليلاً لالتقاط الصور التذكارية مستبشرين بمغامرة فريدة سنذكرها ما طال بنا الدهر إن شاء الله....وهكذا كانت!

***

كانت غابة نيو فورست (وتعني الغابة الجديدة) مقصدًا للملوك إنجلترا في الماضي، إذ أصدر الملك وليام الفاتح مرسومًا يقضي باعتبار هذه الغابة «غابة ملكية» عام 1079م واتخذها مكانًا لممارسة هواية صيد الغزلان وغيرها. وتمت تسميتها بـ«الغابة الجديدة» بدلاً من اسمها القديم الذي كان«غابة قبائل الجوتيس العظيمة»، وهي قبائل آنجلو ساكسونية كانت تعيش في الغابة قبل الغزو النورماندي على يد وليام الفاتح. اللطيف أنها لا تزال تحمل اسم «الجديدة» رغم مرور نحو 1000 سنة منذ ذلك الحين!



نحن مع دراجاتنا قبل اقتحامنا للغابة

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا عندما أشار صاحب المتجر إلى الطريق الذي علينا سلوكه لنقتحم الغابة، انطلقنا نحوه متسابقين نستعرض مهاراتنا في قيادة الدرجات الهوائية التي تعلمناها ومارسناها جميعًا أثناء إقامتنا في كامبريدج، صاحبة لقب «مدينة الدراجات». وما هي إلّا دقائق معدودة حتى انعطف بنا الطريق إلى مجموعة أشجار كثة والتي ما إن تجاوزناها حتى انتهينا حيال ساحات خضراء ممتدة تتقاطع فيها قنوات المياه الصغيرة التي تتناثر على أطرافها خيول برية ترعى وتجري. صحنا صيحة مرح جماعية ونحن نتقدم مسرعين بدرجاتنا نحو عمق المكان مطاردين الخيول التي أخذت

تشاركنا السباق وتشيع فينا بهجة وفرحًا. توقفنا لالتقاط أنفاسنا ولالتقاط الصور، كان يحدونا جميعًا شعور عارم بالسعادة والرضى، سعادة بجمال المكان ورضى بقرار المجيء لاستكشافه.

لم تكن هذه الحقول الممتدة هي ما جلبنا إلى هذا المكان، لكن أشجار الغابة الضخمة التي كانت تصطف من بعيد كأنها سور قلعة مهيب هي التي كانت تنتظر اقتحامنا لها وسبر أغوارها. في الواقع، كانت هذه الحقول الممتدة مكتظة بالأشجار الضخمة في الماضي، لكن تم قطعها لاستخدام أخشابها لبناء سفن حربية إنجليزية أثناء الحروب النابليونية التي انتصرت فيها إنجلترا وحلفاؤها على فرنسا في بداية القرن التاسع عشر.

ثبّتُّ الخريطة على لوح صغير مثبّت بين مساكتيّ دراجتي، وحددت المكان الموضح على الخريطة وصحت بالشباب أن هيّا بنا نحو الغابة الحقيقية. كانت الممرات الطبيعية التي تكسوها أوراق الشجر الأحمر والأصفر المتساقط تلتف حول الأشجار كثعابين ملونة تغري المارة بمزيد من السير ومزيد من الاستكشاف. اخترنا الممر الموضح في الخريطة وولجنا الغابة من خلاله. امتزج تغريد عصافير الغابة مع خرير مياه الأنهار الصغيرة واختلط بأصوات أوراق الشجر المتساقط لتشكل سيمفونية طبيعية جميلة زادها جمالاً أصواتنا الغنائية التي لم تقاوم مشاركة الطبيعة في تجليّة فريدة من تجلياتها.



الممر الذي سلكناه لدخول الغابة، وتظهر كثافة الأوراق المتساقطة

قضينا ساعات نستكشف طرقًا جديدة، ونصور عند أشجار غريبة، ونشرب من مياه أنهار باردة، ونحاول اقتناص نظرة بعيدة على غزال شارد أو طير زاهي الألوان يهرب ما إن يحس بحركة بشر. وما إن نرى بقعة خالية من الأشجار يصل إليها شعاع الشمس حتى نتسابق إليها لنستلقي فيها مستجلبين من الشعاع دفئًا وطاقة نستعين بها في مغامرتنا، ومستذكرين ذلك الوطن البعيد الذي نتسابق فيه إلى الظل هربًا من أشعة شمسه الحارقة. تسابقنا، صوّرنا، ضحكنا، تبادلنا القصص والطرائف، وقمنا بالمقالب والاستعراضات. ولم يمر

زمن طويل حتى بدأت قطرات المطر تتساقط بخفة على شكل رذاذ يراقصه نسيم الهواء العليل، فأخذنا نسرع بدرجاتنا نشق ممرات الغابة بين الأشجار مغمضي الأعين لنستشعر طبعات قطرات المطر الباردة على وجناتنا وكأنها قبلات أرسلتها سماء الغابة لتعبّر عن امتنانها لضيوفها المبتهجين، وكانت أشجار الغابة الطويلة تغطي السماء حينًا، وتسمح ببعض شعاع الشمس الدافئ ليخترقها حينًا آخر ليشكل أعمدة ضوئية كتلك التي تنتشر في الأعياد وكأن الغابة رأت في مقدمنا عيدًا يستوجب الاحتفاء، وكانت أوراق الشجر المتساقطة ذات الألوان الحمراء والصفراء الزاهية تثور وتتناثر عندما نمر بدراجاتنا مسرعين من فوقها وكأنها تنثر علينا حللاً من الطبيعة احتفالاً بمقدم هؤلاء الشبان الأربعة الذين ملؤها فرحًا وغشوها حركةً ونشاطًا. لم نشاهد غيرنا بالغابة، كانت الغابة تحتفل بنا وحدنا، لقد كانت غابتنا نحن فقط.

ولوهلة، ظننا أننا كنا محظوظين!

***

توقفنا عند جذع كبير لشجرة مقصوصة والذي بدا كمائدة يستريح عليها العابرون. أوقفنا دراجاتنا وأنزلنا حقائب ظهورنا لنستريح قليلاً وبدأنا تناول بعض المفرحات التي كانت عبارة عن قطع من الشوكولاتة بالحليب وبسكويت الكاسترد وبعض العصائر. كانت الساعة تزيد قليلاً عن الواحدة ظهرًا، وكان النهار من أمتع ما يكون. جلسنا صامتين نتأمل بهدوء اللوحة الفنية الطبيعية التي أمامنا، ونستمع لموسيقى الطبيعة التي تبث في النفس سلامًا وسكونًا. كنا أشبه

بأشخاص يتناولون الفشار أمام فيلم رومانسي ثلاثي الأبعاد يعرض على شاشة سينمائية ضخمة، لكن الذي كنا نراه ونسمعه ونشعر به أجمل، بل أجمل بكثير. عمّ السكون المكان وأخذ كل واحد منا يجول بخاطره وذكرياته بحرية، كنا أربعة أجساد في مكان واحد، لكن خيالاتنا حملتنا إلى أماكن متفرقة بعيدة.



نهر صغير داخل الغابة التي غزاها الخريف

فجأة اهتز المكان على صوت رعد مرعب، ولم نكد نستدرك الأمر ونسبّح الله حتى انشقت السماء عن مطر شديد كأنه أفواه القِرب. حملنا أمتعتنا بسرعة وحجبنا هواتفنا النقالة وكاميرات التصوير عن المطر وامتطينا دراجاتنا متجهين إلى أشجار كثيفة لنحتمي بها. لم تكن تلك الأشجار رغم كثافتها وتشابك أغصانها كفيلة بمنع المطر الشديد من الوصول إلينا، خاصة وأن الريح قد اشتدت وأخذت تسوق قطرات المطر وتتلاعب به، لذا قررنا إتمام المسير بحثًا عن ملجأ آخر يقينَا هذا السيل الجارف. حولت قطرات المطر ممرات الغابة إلى وحول طينية يصعب معها السير بالدراجات، فأمسك كل منا درّاجته بيديه واتجهنا سالكين ممرًّا اعتقدنا أنه الأوسع وسط غلالة شفافة من الضباب الذي أخذ يعم الغابة. اعتمر كل منا قبعته وسترنا أوجهنا بالشالات اتقاء الأغصان الصغيرة المتطايرة التي تحملها الرياح، فضلاً عن حبات المطر الشديدة التي تحوّلت من كونها (تقبيلاً) إلى (تسطيرًا)!

كان عجيبًا كيف أن سكون الغابة الذي يبعث الهدوء تحوّل خلال ثوان إلى عاصفة هوجاء تبعث المشقة، الآن فهمت المعنى الحرفي للمثل الشهير: «الهدوء الذي يسبق العاصفة». لم يمر وقت طويل قبل أن نكتشف أن الممرّ الذي نسير فيه لم يكن خيارًا موفقًا، إذ كان يشقه مجرى مياه شديدة السرعة فسلكنا ممرًا آخر قريبًا منه لكنه أكثر وعورة. كنا نسير جنبًا إلى جنب، إذ أخذ الضباب بالتزايد وتدنّى مستوى الرؤية إلى حد كبير. حملنا أنفسنا فوق جذوع الأشجار المتساقطة التي لا بدّ أنها أسقطتها في الماضي ريح كهذه التي تعصف بنا. اشتد السيل قوة، وامتزج صوت تساقط قطرات المطر الشديد مع

هدير الرعد المروِّع، وأصبحنا بالكاد نرى شيئًا، فالضباب استحكم وبدا أن أوراق وأغصان الأشجار الصغيرة المتطايرة تستهدف أعيننا حال فتحِنا لها في محاولة يائسة لتبصر معالم الطريق. تشبث كل منّا بيد صاحبه بينما كنا في ذات الوقت نحمل دراجاتنا بعدما كانت تحملنا، وواصلنا المسير. لم يعد الفيلم الذي نشاهده رومانسيًا، بل استحال رعبًا.

«الخريطة»! صرخ أحد الأصحاب. «عبدالله شف الخريطة»! التفت إليهم وعيونهم التي بالكاد تُرى من خلف الضباب والمطر والشالات التي تغطي وجوههم تنظر إليّ وكأنها تنتظر مني الخلاص! «آه..الخريطة!» تحسست جيوبي واللوح الذي على دراجتي ولم أجد شيئًا، حاولت مرة ثانية وثالثة..لا شيء! «الخريطة...ما هي معي! أكيد طاحت هنا ولاّ هناك» أتذكر أن آخر مرة رأيتها كانت عندما توقفنا لأكل المفرحات. لعلها لا تزال في ذلك المكان.

لم يكن خيار العودة للبحث عن الخريطة متاحًا، ولم تكن هواتفنا النقالة تستقبل إرسالاً في هذا المكان. تبادلنا نظرات صامتة ثم رأينا الذي أمامنا. كانت ساحة صغيرة لا تحوي أشجارًا وتتفرع منها عشرات الممرات الثعبانية التي يسيل الماء بكثافة من بعضها، بينما تحولت الأخرى إلى وحول طينية زلقة. كان جليًا أن هذه الممرات تقود إلى عمق الغابة التي بدت وكأنها لا نهاية لها. كنا وحدنا مرة أخرى، لكن هذه المرة بلا طيور ولا غزلان ولا خيول برية ولا حتى خريطة. كنا فقط نحن الأربعة، وحدنا، أمام هذه المتاهة التي يغمرها سيل جارف وتغشاها الرعود.

***

لم يكن لدينا، بعد الله، سوى حدسنا الجماعي لنقرر أي من هذه الممرات علينا سلوكه. توكلنا على الله وسلكنا ممرًّا بدا لنا وكأنه أوسع من غيره. حملنا أنفسنا مجهدين داخل هذا الممر الغابي الذي تحفُّه الأشجار العالية التي أدت - بمساهمة الغيوم الثخينة السوداء والضباب الكثيف - إلى إعتام المكان حتى صار كأنه الليل ونحن بعدُ في رابعة النهار. مضينا نقطع ذلك الممر محاذين تلك الأشجار العالية التي رحتُ أكشط على جذوعها بعلامات بحجر التقطته من الأرض حتى نعلم طريق عودتنا إذا ظهرت الحاجة إلى ذلك. أخيرًا رأيت فائدة بالنصائح الكشفية التي كانت تقدمها مجلة «ميكي» التي قضيت جزءًا لا بأس به من طفولتي ومراهقتي بين صفحاتها!

سرنا وسرنا وكان ضوء البرق المتقطع يقودنا في ظلام الغابة المخيف، وبدا أن الممر يقودنا إلى أعلى تلة متوسطة الانحدار، فأكملنا المسيرة الشاقة على أمل أن نجد في أعلى التلة ما نحتمي به ونلجأ إليه من خطورة قنوات المياه ومجاري الوديان التي كنا نخوض فيها. تابعنا الخطى بلا توقف حتى تثاقلت أقدامنا جرّاء كتل الطين التي علقت بها، وزاد الحال مشقة أن إطارات الدراجات هي الأخرى قد تكتل حولها الطين مما زاد من وزنها وعسر سحبها حتى كدنا نتخلى عنها، إلا أننا خشينا أنها قد تكون وسيلتنا المتبقية للنجاة في حال احتجنا لها. تعاظمت وُعورة الأرض، وزاد الجو ضبابيةً وابتلالاً حتى استنفذت طاقاتنا ولم نعد نقوى على المسير.

توقف أحدنا وقال بصوت متهدِّج بالكاد يسمع: «خلاص يا شباب، ما فيني حيل. لازم نوقف نستريح» أيدناه بصمت إلا أحمد

صرخ: «لا لا، هنا راح يجرفنا السيل. هذا منحدر وخطر!»

«لكن ما فينا حيل نكمل. على الأقل نستريح شوي ونلتقط أنفاسنا»

«خلاص، أنتم استريحوا وأنا بأكمل لكن ما راح أبعد»

هززنا رؤوسنا موافقين وأسندنا دراجاتنا وظهورنا على جذوع الشجر ونحن متلحفون بأشد ما يكون خشية أن تتخطفنا الريح. بينما قرر صاحبنا الشجاع إكمال مسيرته على أمل أن يجد في الأعلى ملاذا نلتجئ إليه. أخرجت هاتفي النقال بحرص علّني أجد فيه إشارة لكن خاب ظني مباشرة عندما رأيت أنه مغلق أصلاً، ربما انتهت بطاريته أو حتى غمرته المياه هو الآخر. تأملت المنظر حولي وقد تهالكت عيناي المختبئتان خلف طبقات الألبسة؛ المطر والريح والضباب والعتمة، حتى شعرت بأنها سمات هذا المكان، وكأن ضوء الشمس ودفئها لم يوجدا على هذه الأرض أصلاً.

أسندت رأسي على جذع شجرة وأنا آخذ أنفاسًا عميقة وأتفكر بما نحن فيه. تذكرت أننا نعلم بالفعل أنه سيكون هناك مطر شديد هذا اليوم ورغم ذلك قررنا المضي قُدُمًا بالحضور إلى الغابة.. «مغامرة!». لكن في الواقع من يثق بتنبؤات الطقس هنا في إنجلترا أصلاً؟!! معظم توقعات الطقس لا تتحقق، لطالما تنبأت برامج الطقس بأن اليوم التالي سيكون صحوًا يدعو للتنزه وإذا بنا نتفاجأ بأمطار عنيفة لا تدع المرء يبرح داره. تذكرت المثل الإنجليزي الساخر:

Don't trust the three Ws: Weather, Work, Women.

(لا تثق بثلاث كلمات تبدأ بحرف الـ دبليو: العمل، الطقس، النساء)

«النساء؟!..لابد أن هذا مثل ذكوري بحت» أخذت أتساءل! ابتسمت في أعماقي لما تذكرت أنني عندما كنت طفلاً كنت أسمع في أفلام الكرتون: «إنه نهار مشمس جميل» وأتساءل حينها، وأنا أكاد أذوب من شمس الرياض الحارقة، كيف يكون النهار جميلاً ومشمسًا في ذات الوقت؟!

قطع حبل أفكاري صوت أحد الأصحاب وهو يلكزني قائلاً بشغف: «قاعد يؤشر لنا» تبعت يده التي كان يشير بها إلى صاحبنا الذي أتم مسيره وهو بالكاد يُرى من أعلى التلة التي غلفها الضباب. وقفنا لبرهة محاولين اقتناص صوت صاحبنا الذي كان يصيح بصوت عال وهو يلوح بيديه بشدة. تسمرنا في أماكننا محاولين تركيز أسماعنا عليه دون اعتبار لأصوات المطر وهدير الرعد.

«مدخنة...يقول مدخنة!» صاح أحدنا.

مدخنة؟!! حملنا أنفسنا ودراجاتنا نحو صاحبنا الذي كان واضحًا أنه رأى مدخنة، و هذا يعني أنه رأى منزلاً...رأى حياة أخيرًا! تسابقنا وكأن غريزة الخلاص قد بدأت باستجلاب مخزون طاقتها الاحتياطي. اقتربنا منه وأنفاسنا تتصاعد، كان يشير بيده إلى مكان في جانب قريب من التلة. لم تكن مدخنة واحدة، بل عدة مداخن!

تبادلنا ابتسامات من خلف أغطيتنا وربتنا على كتف صاحبنا الشجاع ونحن متجهون إلى الأكواخ الصغيرة التي يتصاعد منها الدخان. تذكرت في ذلك الوقت مشاهد أفلام الكرتون تلك التي يرى فيها عابر السبيل الجائع البائس كوخًا يتصاعد منه الدخان، فيلجأ إليه ليجد في انتظاره وعاء حساء ساخن فيشربه فتتملكه سعادة غامرة كأنما حيزت له الدنيا.

تقدمنا نحو الأكواخ التي شكلت تجمعًا قرويًا يطلق عليه هاملت. والهاملت، في العرف الإنجليزي، عبارة عن أكواخ حول مزرعة أو اثنتين تشكل تجمعًا أصغر من القرية، ولا يحوي الهاملت على كنيسة أو حتى متاجر. اقتربنا من الهاملت والذي كان عبارة عن كوخين يشرفان على مزرعة تمتد على امتداد المنحدر الآخر من التل. كان الكوخان مسقوفين بالقش، أو ما يسمى بالإنجليزية بالـ«الثاتش». فأكواخ الثاتش عبارة عن أكواخ مسقوفة بالقش الجاف الذي يمنع من تسرب مياه الأمطار إلى داخل الكوخ، وهو طراز بناء قديم جدًا تشتهر به منطقة هامبشاير (التي تقع فيها الغابة) وباقي مناطق جنوب وجنوب غرب إنجلترا. ويسمى الشخص الذي يمتهن تركيب هذا النوع من القش على أسقف الأكواخ وغيرها (ثاتشر)، ومن هنا جاء الاسم الأخير لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت ثاتشر، التي اتخذت لقب زوجها الذي ينحدر من عائلة كانت تمتهن تلك المهنة.

رغم أن صوتَ المطر الغزير وصوت الرعد المدوّي ما يزالان يسودان المكان، إلا أن سكونًا حل عليّ حالما وقفت أمام باب السياج الصغير الذي كان يلتف حول الكوخ الذي يتصاعد منه الدخان؛ ربما

لأنني كنت متوجّسًا ممن سيفتح الباب لنا، وربما كنت متشوقًا لإناء الحساء الساخن الذي تمنيني به خيالاتي، ومستمرئًا ذلك الإحساس الذي سيختلجني حالما أضع ذلك الحساء الدافئ في جوف جسدي الذي يرتعش برودةً. تجمعنا جميعًا أمام المدخل الصغير وتحادثت أعيننا ليشجع كل منا صاحبه، سحبنا مزلاج الباب ودخلنا برويّة. ما إن وطأت أقدامنا فناء الكوخ حتى غاصت في وحل من الطين الممزوج بروث الماشية التي أزكمت رائحتها أنوفنا. كانت الرائحة كريهة جدًا وحادة وكأن جثث بقر قد تحللت ولم يبق إلا عفنها وروثها. تراجعنا مباشرة وأغلقنا الباب وأكملنا السير بسرعة بمحاذاة الكوخ سالكين طريقًا آخر لا نلوي على شيء، إذ كان واضحًا أنه لم يكن بانتظارنا لا حساء ساخن ولا غيره!

***

كان الكوخ يقع من الجهة الأخرى على طريق صغير ينحدر نزولاً ليمر من تحت أشجار ضخمة متراصة متشابكة الأغصان أشبه بمغارة مظلمة. سحبنا دراجاتنا - بسلاسة هذه المرة - والتجأنا إلى هذه الأشجار التي ما إن احتوتنا حتى توقف إحساسنا بالمطر الذي تكفلت الأشجار بصد هطوله. توقفنا جميعًا وأخذنا نتحدث ونضحك على ما نحن فيه، فـ«شر البلية ما يضحك» كما يقال. قرر أحدنا أننا بالفعل نعيش في مغامرة، فما المغامرة في يوم صحو تتسكع فيه بالغابة؟! أيدناه إيمانًا بما يقول، وتسلية لأنفسنا بعدما تمكنت منا البلايا المتعاقبة. جلسنا في هذا المغارة الشجرية نستجمع قوانا المتقهقرة، ونأنس بأحاديث بعضنا البعض بعدما كنا نتبادل أحاديث الأعين الصامتة

على مدى الساعتين الماضيتين. جلسنا بمحاذاة الطريق بعدما نفثنا أحذيتنا التي تلطخت بالطين وملابسنا التي لزقت بها العوالق. كانت الساعة تشير إلى الثالثة ولم يبق على غروب الشمس سوى نحو ساعة نصف.

اقترح أحدنا أن نكمل السير حتى نستطيع أن نصل إلى مكان مأهول قبل الغروب، فرد عليه آخر:

«اللي يسمعك يقول الشمس ما تقدر تفتح عيونك من شدة ضوءها. يا رجال أكثر من كذا ظلام وش تبي؟»

أيدناه ونحن نضحك واتفقنا على أن نرتاح قليلاً لعل الضباب ينقشع أو يتوقف المطر عن الهبوط. وبالفعل، لم تمر نصف ساعة حتى بدأ الضباب بالتلاشي ببطء وتراءى لنا من خلف الأشجار موقف سيارات بعيد. ركزنا النظر حتى اتضح أنها كانت مصطفة أمام مبنى كبير تكسوه أعلام ملونة. ربما كان فندقًا أو مركز تسوق أو حتى سرابًا، المهم أننا حملنا أنفسنا بسرعة نحوه. كان المطر قد خفّ قليلاً وأصبح مجال الرؤية، رغم محدوديته، أفضل من السابق. اتضح أنه علينا أن نترك الطريق الضيّق الذي نحن عليه ونتجه إلى المبنى عن طريق الحقول التي تفصلنا عنه. كان علينا أن نواجه المطر مرة أخرى، لكن هذه المرة كنا نعرف إلى أين نحن متجهون.

قطعنا جزءًا صغيرًا من الحقول حتى أخذت أقدامنا تغوص في مياه ضحلة تجمعت بسبب الأمطار، وكلما تقدمنا أكثر كلما زاد منسوب المياه التي تضفي على الأرض لزوجة تجعل منها زلقة يصعب السير

عليها. توقفنا قليلاً لنتبادل أحاديث العين الصامتة حتى صاح أحدنا: «لازم نكمل، ما فيه غير المكان هذا نروح له». رغم ترددنا، أكملنا السير حتى واجهنا سياجا خشبيا يفصل بين الحقول. لم ننتبه إلى السياج من البداية بسبب كثافة الضباب وغزارة المطر. لم يكن هينًا تجاوز هذا السياج، خاصة وأن الدراجات بحوزتنا، وبالأخص أننا لم نكن نرى بالفعل ما الذي أمامنا، فقد يكون هناك نهر أو بحيرة تفصلنا عن المبنى. وإذ لم يكن لدينا خيار آخر، قفلنا عائدين إلى الطريق الصغير مرة أخرى والذي ما إن وطئناه حتى رأينا إضاءة سيارة من بعيد تسير على طريق مقاطع له. رغم خيبات الظن المتتالية، تفاءلنا بأن هناك طريقا قريبا يؤدي إلى قرية ما. أتذكر أنني رأيت في الخريطة عدة قرى متناثرة، ولم يكن من المعقول أننا سرنا لنحو ساعتين دون أن نمر بواحدة منها على الأقل. رأينا إضاءة سيارة أخرى قادمة من بعيد واتجهنا مسرعين إلى الطريق الآخر لاعتراضها ونحن نحاول التلويح بأيادينا التي أنهكها التعب وأجهدتها المشقة. مرت السيارة من أمامنا بسرعة دون أن يرانا صاحبها، أو حتى دون أن نراها نحن بوضوح، إذ تكفل الماء المتطاير من إطاراتها بحجب الرؤية المتدنية أصلاً!

الأمر الوحيد الذي خفف مصابنا هنا هو أننا وجدنًا رصيفًا على جانب الطريق يحوي موقفًا مسقوفًا للحافلات. اتجهنا له على عجالة واحتمينا داخله بعد أن أوقفنا دراجتنا على الرصيف. كان موقف الحافلات دليلاً على وجود قرية أو بلدة ما في الجوار. قررنا الانتظار قليلاً لعلنا نحظى بحافلة تنتشلنا من هذا المأزق. كان موقف الحافلات هذا عبارة عن ثلاثة كابينات خشبية متلاصقة، وكان واضحًا أن الطحالب الخضراء قد اتخذته مرتعًا لها. رغم ذلك رمينا أجسادنا

التي تمكن منها التعب داخل إحدى الكابينات وأسندنا رؤوسنا على حائطها الداخلي ونحن ننتظر حافلتنا الموعودة. فجأة ارتعشنا برعشة رعب جماعية خفيفة بعدما طلّ علينا وجه عجوز من الكابينة المجاورة، رمقتنا العجوز بنظرة خاطفة قبل أن تعيد رأسها إلى داخل كابينتها!!

شعرت لوهلة أنني أهذي، لكن رعشتنا الجماعية أكدت لي عكس ذلك. وبلا مقدمات قمنا للنظر إلى الكابينة المجاورة نستطلع أمر هذه العجوز الفضولية. كانت السيدة العجوز تجلس بجوار زوجها الطاعن بالسن، وكانا يلتحفان – من قمة رأسيهما إلى أخمص قدميهما- بمعطف مطر أصفر اللون من قبيل تلك المعاطف التي تستخدم لمرة واحدة. أخبرناهما بأننا تائهون ونبحث عن قرية أو بلدة مجاورة. أشارت العجوز إلى الطرف الآخر من الطريق قائلة: «اسلكوا هذا الاتجاه حتى تصلوا دوارًا انعطفوا من عنده إلى اليسار. استمروا بالسير حتى تصلوا القرية». شكرناها – بعنف - وسرنا صوب الاتجاه الذي أشارت إليه ونحن نشعر أن مسلسل التيه هذا قد بدأ بالانقضاء.

وصلنا الدوار الصغير وانعطفنا من عنده يسارًا باتجاه طريق طويل وعريض نسبيًا تحفه الأشجار الضخمة هو الآخر، مما جعله أشبه بنفق طويل. كلما تعمقنا أكثر فيه كلما قلّ إحساسنا بالمطر، وبدأت نفوسنا بالانشراح ونحن نشعر بأنه لم يبق أمامنا سوى القليل. كانت العتمة داخل الطريق - إلى جانب الضباب بطبيعة الحال - قد ساهمت بتدني مستوى الرؤية كثيرًا، إلّا أننا كنا نشعر بالاطمئنان ونحن نسير بمحاذاة الطريق الخاوي من السيارات والمارّة. بعد دقائق انتبهنا جميعًا لصوت مألوف، بل مألوف جدًا...كان صوت قرع أجراس

كنيسة!

كنيسة! يا للمرح! وجود كنيسة يعني وجود قرية، فسرّي عنا وتنسمنا ريح الفرج. تقدمنا بسرعة نحو آخر الطريق حتى ظهر لنا برج كنيسة شامخ كانت تدق أجراسه إعلانًا بدخول الساعة الرابعة مساءً. صحت بالشباب بفرح عارم:

«كنيسة...كنيسة! الحمد لله أخيرًا وصلنا القرية......أحمد؟ أحمد؟...وين أحمد؟!!»

لم يكن خلفي سوى عادل وعبدالله. التفتنا سريعًا إلى الوراء ولم نجد صاحبنا الرابع أحمد.

«وين راح الولد؟ أكيد إنه ورانا لكن ما نشوفه من الضباب والظلام...أحمد أحمد»

أخذنا نصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نعيد أدراجنا صوب الطريق الذي سلكنا. يااه! كنا قريبين جدًا من النهاية! أخذنا نصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نحاول استنتاج أين يمكن أن يذهب. خشينا أنه سقط أو تعثر، خاصة أن أياً منا لا يذكر رؤيته منذ أن تركنا العجوز الفضولية. كنت أعتقد أنه في الخلف بينما اعتقد الذي في الخلف أنه معي في المقدمة. أجلنا تحليلاتنا وأكملنا البحث عن صاحبنا. اقتربنا من الدوار ولم يكن لأحمد أي أثر.

اقترح أحدنا أن نقف بوسط الدوار الصغير ونصرخ باسمه بأعلى

أصواتنا، وافقنا هذا الرأي رغم أنه يعني وقوفنا تحت المطر الشديد إذ كانت هذه الوسيلة الوحيدة لتغطي أصواتنا أكبر مساحة ممكنة. ما إن هممنا بقطع الطريق حتى سمعنا صوتًا حانقًا يكيل التهم والشتائم. التفتنا صوب مصدر الصوت وإذا بصاحبنا أحمد يجر دراجته على إطار واحد، بينما اشتبك الإطار الخلفي بجزء من بنطاله الذي انشق حتى أعلى فخذه. وما إن رأيناه بهذه الهيأة حتى كدنا أن نتهاوى على الأرض من شدة الضحك متجاهلين غضبه وشتائمه. أخبرنا أحمد بأنه لم يستطع اللحاق بنا مباشرة بعد أن تركنا العجوز، فأخذ يصيح بأعلى صوته لنا طالبًا التوقف لانتظاره لكن صيحاته ذهبت أدراج الرياح. لم يكن أمامه سوى امتطاء دراجته رغم المطر والرياح حتى يتمكن من اللحاق بنا. قال أحمد يصف ما حدث بعدها:

«وأول ما ركبت السيكل وحرّكته نشب الجنز بجنط الكفر وتكرفست وطحت على وجهي بعد ما انشق الجنز. حاولت أفك الجنز عن الكفر لكن ما قدرت. دوّرتكم وإثركم مختفين»

هدأنا روعه وقمنا بمساعدته باقتلاع خيوط بنطاله التي تشابكت حول إطار الدراجة. منّيناه بكوب شاي ساخن حال وصولنا إلى القرية التي اكتشفنا وجودها على الطرف الآخر من الطريق المكسو بالأشجار. خرجنا من الطريق متجهين إلى الكنيسة التي، لولا المحاذير، لقبّلنا جدرانها لأنها مثّلت خلاصنا من تلك المحنة التي كنا نعيشها منذ ساعات. وكما هو متوقع، كانت الكنيسة تقع على الشارع الرئيس لقرية صغيرة. حمدنا الله كثيرًا ونحن نسلك الطريق الذي يشق هذه القرية الهادئة التي ترك سكانها الطريق واحتموا في منازلهم

اتقاءً للسيل العارم. لا يخلو كل طريق رئيس في قرى وبلدات إنجلترا من كنيسة ومكتب للبريد وحانة ومتجر للشاي (تي هاوس)، وكان هذا الأخير مقصدنا. لم تمر سوى دقيقتين حتى تبيّن لنا محل الشاي على الجهة الأخرى من الطريق. اتجهنا صوبه مباشرة ولما اقتربنا منه اتضح لنا من خلف الزجاج أنه ممتلئ، إذ كان سكان القرية يمارسون طقوس شرب شاي بعد الظهيرة التي يعد من خصائص الإنجليز. كانت هناك طاولة أو طاولتان خاويتان، فأخذنا دراجاتنا وأوقفناها على ممر صغير إلى جانب متجر الشاي وثبتناها بقفل محكم على أنابيب مثبتة على الجدار.

***

أعلن جرس صغير في أعلى باب المتجر عن دخولنا حال فتحنا إيّاه. وجّه معظم عاملي ورواد المحل أعينهم نحو أولئك النفر الذين دلفوا إليه والمياه تقطر منهم والمشقة تغلف أجسادهم وكأنهم قادمون من كوكب آخر. رفعت قبعتي وأنزلت الشال من على وجهي وتقدمت من العاملة وطلبت طاولة لأربعة أشخاص. كنا محظوظين إذ أن أثاث المحل كان خشبيًا ولم تكن أرضه ولا حتى كراسيه تحوي أقمشة تبتل جراء المياه المتقاطرة من ملابسنا التي أضحت كأنها إسفنج متشبع بالماء. رمينا أجسادنا المتهالكة التي أضناها التعب على الكراسي بينما كنا نتبادل ابتسامات هادئة ونحن نرى أوجه بعضنا لأول مرة منذ ساعات. طلبنا شطائر السبانخ والجبن والتونة بالإضافة إلى أكواب الشاي والقهوة. لكن شيئًا لم يعادل متعتي وأنا أضع في فمي ملعقة من الحساء الساخن الذي كانت خيالاتي تؤمّله لي منذ الصباح.

أكاد أجزم بأنه لم يمر في تاريخ محل الشاي هذا أن أتت مجموعة استنفذت كافة الخدمات الممكنة التي يقدمها، فبداية من دورة المياه - التي اتخذناها مقرًا للتنظيف والتجفيف -، مرورًا بالطعام والشراب الذي لم نبق منه ذرة واحدة، وانتهاءً بالكراسي والطاولة التي أخذ الماء يتقاطر من حولها مما دفع العاملين إلى تقديم مناشف ومناديل ثقيلة لنا. كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف وكان قرص الشمس على وشك الغروب، ولم يبق سوى نصف ساعة على إغلاق متجر الدراجات. رفعت يدي طالبًا مساعدة من العاملين. تقدمت شابة شقراء تضع ابتسامة تسويقية هادئة خانتها أعينها التي كانت تعكس عدم ارتياحها للتعامل مع هؤلاء الفتيان غريبي الأطوار:

«نعم سيدي»

«هل تستطيعين إخبارنا أين نحن الآن؟»

«ماذا تقصد؟!!»

«أقصد في أي قرية نحن؟»

«أوه، نحن في ليدنهرست»

«آها، هل هي بعيدة عن بركونهرست؟»

«بروكنهرست؟ نعم، بعض الشيء. لا تخبرني أنكم قدمتم من هناك على درجاتكم في مثل هذا الطقس!»

«في الواقع نعم، لكنها قصة طويلة. أريدك فقط أن تطلبي لنا سيارة أجرة رجاءً، يفضل أن تكون كبيرة حتى نحمل درجاتنا معنا إلى محطة قطار بروكنهرست»

«في الحقيقة لا توجد في القرية سيارات أجرة على الإطلاق، لكن سأرى ما الذي يمكن أن أفعله»

شكرتها وأخذت أكمل وعاء حساء ساخن آخر.

بعد لحظات أتت الفتاة وأخبرتني بأنها لم تجد سائق أجرة يقدم خدماته في هذا الوقت. كل الذي توصلت إليه كان مزارعا في قرية مجاورة يقوم بخدمة التوصيل أحيانًا. أخبرتها بأنه حتى لو كان قسيسًا، المهم أن لديه سيارة ومستعد لتوصيلنا. اتصلت به وقال أنه سيكون هنا خلال عشرين دقيقة!

عشرون دقيقة! هذا يعني قرب الخامسة مساءً! أخذت وأصحابي نفكر بحيلة ما للوصول إلى محل تأجير الدراجات قبل الخامسة. أخبرتنا الفتاة العاملة بأن الطريق إلى بروكنهرست سيستغرق نحو نصف ساعة في هذا الطقس، لذا كان علينا أن نجد طريقة للاتصال بمؤجر الدراجات قبل أن يغلق محله عند الخامسة وإلّا كان سيسحب قيمة الدراجات من بطاقتي الائتمانية. ذكرني أحد الشباب:

«أتذكر أنه أعطاك بطاقة المحل»؟

«نعم لكنها كانت مدبسة على الخريطة اللي ضاعت. من زود

الحرص صورت الرقم بجوالي لكنه الجوال طافي الآن. حتى رقم جوالي موجود بالعقد اللي عنده وأكيد إنه جالس يدق علي لكن جوالي مقفل»!



أنتظر سيارة الأجرة تحت المطر في قرية ليدنهرست

ولأنه لم يكن لدينا أي حيلة، سلمنا أنفسنا لقدر الله، كما نفعل دائمًا. خرجت إلى خارج المحل أنتظر المزارع الذي كان في طريقه ليقلنا. استعرت مظلة من المحل ووقفت تحت المطر الذي بدأ يهدأ، ورحت أتأمل ضوء الشمس الذي كان يودع هذه القرية الحالمة الواقعة في تخوم غابة نيو فورست. لم يمض وقت طويل حتى توقفت أمام محل الشاي سيارة (بكس) بيضاء اللون. ترجل منها بسرعة عجوز يعتمر قبعة صوف رمادية واتجه إلي بسرعة قائلاً:

«لا بد أنك الآنسة فليستي؟!»

«عفوًا؟!!!»

«أوه المعذرة يا سيدي»

قال هذا واتجه إلى داخل المحل وأنا مندهش. خرج بعد لحظات وأبدى أسفه وذكر بأن التي اتصلت به كانت اسمها فليستي ولم يميز أنني رجل جراء المطر وقلة الضوء. قبلت أسفه بلا تردد وناديت على أصحابي بعد أن دفعنا فاتورة المحل، والتي أضفنا إليها بقشيشًا أكاد أجزم بأن أحدًا لم يقدم مثله في تاريخ محل الشاي هذا. أخبرنا المزارع بأنه معنا أربعة دراجات هوائية ولا بد أن نحملها معنا. قال بأن سيارته لا تتسع واقترح أن يذهب ليأتي بسيارة أكبر من مزرعته.

«كم تحتاج من الوقت يا سيدي؟»

«نحو ربع ساعة ذهاب وربع ساعة عودة...نصف ساعة تقريبًا

وربما أقل إذا كنا محظوظين»

أخبرناه بأن هذا ليس ممكنًا إذ علينا أن نكون لدى متجر الدراجات قبل الخامسة التي لم يبق عليها سوى بضع دقائق. اقترح علينا ترك الدرجات هنا وأخذ عنوان المحل لنسلمه لصاحب الدراجات. ترددنا وأخبرناه بأن صاحب المحل سيطالبنا باستعادتنا وإلا اضطررنا لدفع التعويض. نظر إلينا العجوز وقال بثقة: «دعوا الأمر لي!» لم تبد تلك كفكرة سيئة، فركبنا معه بعد أن أخذنا بطاقة محل الشاي المدون عليها عنوانه وأرقام الاتصال به.

عرّف السيد العجوز بنفسه على أن اسمه بيل، وأخبرنا بأنه مزارع يقضي أوقات فراغه بتوصيل المتعطلين مستغلاً شح سيارات الأجرة في قرى الغابة. وصف نفسه قائلاً: «أنا مثل حفاري القبور، يتصلون بي عندما تكون هناك مصيبة» أخبرنا بأنه تم الاتصال به الأسبوع الماضي ليساهم بنقل سياح إسرائيليين أصيبوا جراء انعطاف حافلتهم عن الطريق بسبب عاصفة هوجاء كهذه التي مرت بنا اليوم. كان الارتباك واضحًا علينا جراء تأخرنا على صاحب الدراجات خاصة وأن دراجاته لم تعد بحوزتنا. طمأننا بيل بأن مؤجري الدراجات عادة ما يؤخرون إغلاق محالّهم حتى تعود كافة الدراجات المستأجرة. أخذنا نحكي لبيل قصة مغامرتنا الشاقة التي لم تكد تنته بينما أخذت سيارته البيضاء تشق عباب الظلام متجه إلى محطة قطار بروكنهرست.

وصلنا المحطة قبل الخامسة والنصف بقليل، وكما توقع بيل كانت إضاءة محل الدراجات مفتوحة. وما إن توقفنا أمامه حتى خرج صاحب المحل ونزل من المحل الذي على شكل قاطرة وتقدم إلينا بسرعة. بدا

لي أنه كان غاضبًا بأننا عدنا لوحدنا دون الدراجات وتزاحمت داخل رأسي عشرات الأفكار محاولاً استجلاب معاذير مقنعة له. خرجت من السيارة بسرعة أنا الآخر وتقدمت إليه قائلاً:

«لا تخش شيئًا يا سيدي، دراجاتك بخير، هي فقط...»

«فلتذهب الدراجات إلى الجحيم، ما يهم أنكم بخير!»

توقفت وشعرت بأن عاطفة غير متوقعة من الحنان قد انسكبت علي. تأمل الرجل أصحابي واقترب منهم ليتأكد أنهم كذلك بخير. تكفل بيل بشرح الموقف وأخبره بأننا أصرينا على إعادة الدراجات بينما أصر هو على أخذنا وحدنا حفاظًا على سلامتنا وقام بتزويده ببطاقة محل الشاي الذي كان يقع في قرية ليدنهرست.

«ليدنهرست؟!!» قال صاحب المتجر بتعجب: «ما الذي قادكم إلى هناك؟!»

أخبرناه بأننا أضعنا الخارطة وتهنا في الغابة حتى وصلنا إلى تلك القرية. ابتسم صاحب المتجر ودعانا إلى داخل قاطرته ليطلعنا على خريطة كتلك التي كانت بحوزتنا. وضّح لنا المسافة التي بين بروكنهرست وليدنهرست واطلعنا كذلك على المسار الذي كان علينا سلوكه والذي بدا أننا انحرفنا عنه بعد أن قطعنا ثلثه تقريبًا. سحب صاحب المتجر العقد من درج مكتبه، وقطع الجزء الخاص بمعلومات بطاقتي وسلمها لي لكي يطمئننا بأنه لن يحاسبنا على إيقاف دراجاته على جدار محل شاي في قرية بعيدة. شكرناه وسلمناه مفاتيح أقفال

الدراجات وتمنينا له نهاية أسبوع سعيدة. شكرنا كذلك بيل، الذي رفض أخذ إكرامية زيادة على المبلغ الذي طلبه.

***

صعدنا رصيف القطار ودخلنا غرفة الانتظار الدافئة منتظرين قدوم القطار المتجه إلى بورنموث والذي لم يمر وقت طويل حتى سمعنا نداءً يعلن قدومه. أخذنا أماكننا داخل إحدى القاطرات وطرحنا أجسادنا المنهكة على مقاعد متقابلة. انطلق القطار وأخذنا نسرد أحداث مغامرتنا الحافلة ونحن نتبادل الضحكات والتعليقات. قرر بعضنا بأنه رغم المعوقات والصعوبات الشديدة إلّا أن رأس العجوز الفضولية الذي طلّ علينا ونحن في كابينة انتظار الحافلات كان أكثر ما واجهناه رعبًا، في حين قرر آخرون بأن هيأة أحمد بعدما تاه عنا وهو يجر دراجته بإطار واحد وبنطال ممزق كان أطرف المواقف.

صمتنا لبرهة، وراح أحد الأصحاب يرمقنا بنظرات غريبة وقال:

«بكل صراحة، لو كنتم تدرون إن كل هذا راح يصير لنا من أول، هل كنتم ستأتون للغابة؟»

تبادلنا النظرات لوهلة وقلنا بصوت واحد: «أكيد!» ونحن نستحضر أن المغامرة هي محض متاعب تأتي من بعيد كما يقال، وأن المغامرين الحقيقيين هم من يتقدمون بلا هدف، ولايهمهم ما يقابلهم ولا ما يكون مصيرهم المحتوم.

الوكر

جنوة، إيطاليا. خريف 2010

عندما كنت طفلاً، كانت قوانين المنزل تقضي بأن آخذ غفوة عصر كل أربعاء؛ لكي يتسنى لي السهر مع أبناء خالاتي الصغار أثناء اجتماعنا الأسبوعي في بيت الجد والجدة. لكن في أحد أيام الأربعاء لم يعرف النوم طريقًا إليّ، إذ كان بالي مشغولاً بأمر في غاية الأهمية، أمر انتظرته منذ نحو ثلاثين يومًا ...الحلقة الأخيرة من المسلسل الكرتوني «وداعًا ماركو»!

لم أكن لأفوت آخر حلقة من مسلسل ظللت أتابعه وأعيش أجواءه الساحرة منذ شهر كامل. لذا تسللت من سريري ونزلت درجات السلم متجهًا صوب (المقلّط) حيث اعتدت مشاهدة المسلسل. اختلست النظر من جانب الباب إلى شاشة التلفاز التي كان أخي الأكبر، الذي لم يكن يكترث كثيرًا لقوانين المنزل، يشاهد فيها آخر حلقة من مسلسلنا الجميل. قضيت نصف ساعة أو تزيد متسمرًا في مكاني أتلصص من خلف الباب أتلقى سحر قصة ماركو الصغير حتى انتهت الحلقة وصعدت بسرعة إلى سريري لأتظاهر بالنوم بعدما تملكني المسلسل بشكل تام، وراحت خيالاتي تطير بين جنوة وبيونس آيرس وكل المدن التي كانت جزءًا من مغامرة ماركو البائس الباحث عن أمه الحبيبة.

رغم محاولات أمي- الحبيبة جدًّا - بجعلي أعيش أجواء حياة ماركو قدر الإمكان، والتي تضمنت شراءها لي خبزًا مدورًا قاسيا وقوارير حليب زجاجية كتلك التي يحملها ماركو بالإضافة إلى أحذية غريبة شبيه بتلك التي ينتعلها، إلّا أنني لم أتمكن من زيارة مدينة ماركو، جنوة، إلا بعد نحو خمسة عشر عامًا، في أواخر خريف عام 2010.

***

أيقظني صوت يتحدث الإيطالية بينما كنت آخذ غفوة غير متوقعة على متن قطار مسائي في محطة قطار مدينة جنوة التي كانت آخر محطات هذا القطار. كان الظلام في القطار دامسًا، فرحت أتفقد أمتعتي بعناية. حملت حقيبة الظهر الخاصة بي وترجلت من القطار متجهًا إلى بوابة الخروج. كنت قد وصلت إلى جنوة بعدما قضيت يومين في مدينة تورينو الشمالية في ضيافة صديق إيطالي لي، الذي أخذني لقضاء وقت ممتع مع عائلته في قرية ألبيانو (وتعني «حافة الألب») الواقعة مباشرة بين تورينو وجبال الألب. كان المطر ينهمر بشدة في جنوة ذلك المساء، لذا استقليت سيارة أجرة واتجهت إلى مقر سكني في هذه المدينة التي انتظرت القدوم إليها منذ الصغر. توقفت سيارة الأجرة أمام مبنى بني اللون ملتصق بمبانٍ قديمة متراصة تطل على ميناء المدينة القديم، وأشار سائق الأجرة إلى باب أسود طويل وأخبرني بأنه العنوان المطلوب. كنت قد استأجرت غرفة لليلتين لدى عائلة محلية، لذا لم يكن على الباب أية لوحات أو إشارات، كبست زر الجرس وأنا أحمل مظلة اتقاءً للمطر المنهمر، ولم تكد تمر لحظة حتى صدح صفير من باب المبنى حتى انفتح قليلاً. دفعت الباب العتيق

ودخلت على مساحة صغيرة يتوسطها سلم رخامي أبيض تزين جنباته تماثيل ومنحوتات قديمة. نفضت الماء عن مظلتي وأنا أسمع صوت سيدة تنادي من الأعلى بإنجليزية بلكنة إيطالية:

«مرحبًا بك، اصعد رجاء إلى الدور الثالث»

«حسنًا سيدتي» صعدت درجات السلم حتى وصلت الدور الثالث حيث استقبلتني سيدة أنيقة فارعة الطول رشيقة القوام، تظهر آثار تقدم العمر عليها على شكل تعرجات في بشرتها وبياض على أطراف شعرها الأشقر. رحّبت بي بحرارة وعرّفت نفسها على أنها السيدة فولفيا بادولوتّي. أخذتني إلى داخل شقتها الصغيرة التي راقت لي كثيرًا، إذ كانت أرفف الكتب المتراصة تزين مدخل الشقة، بينما كانت اللوحات الفنية البديعة وخرائط مدينة جنوة القديمة تضفي على الشقة مسحةً متحفية بينما أضفت موسيقى فاوستو بابيتّي الكلاسيكية على المكان بُعدًا شاعريًا. عرّفتني على محتويات الشقة بسرعة، إذ كانت تحوي غرفة النوم الرئيسة الخاصة بها وزوجها، وثلاث غرف نوم خصصت إحداهن لي في حين احتلت ابنتهما الشابة غرفة أخرى، بينما كانت الأخيرة خاوية. أرتني مطبخ المنزل الصغير والذي كانت تجهز فيه العشاء، وعرفتني على أماكن الخبز والزبدة والجبن وزيت الزيتون، بالإضافة إلى القهوة والشاي حتى أتمكن من خدمة نفسي متى أحببت. شكرتها على لطفها بعدما سلمتني مفتاح المنزل وذهبت إلى الغرفة المعدة لي والتي كانت ملاصقة لغرفة ابنتهما، والتي استنتجتُ، بعد سماعي لموسيقى البوب المنبعثة من غرفتها والتي تعارض ذوق والدتها الكلاسيكي، أنها مراهقة صعبة المراس.



(طاولة الطعام في مطبخ السيدة بادولوتي، ويظهر زيت الزيتون وبعض الخبز والخضروات)

صليّت واستلقيت على السرير قليلاً قبل أن تدعوني السيدة بادولوتّي لتناول القهوة معها ومع زوجها الذي كان أسنّ منها بقليل، والذي كان يلبس روب استحمام عنابي اللون. رغم ابتسامته اليتيمة التي وضعها عندما سلمت عليه إلا أنه لم يكن على درجة اللطف التي تتميز بها زوجته، والتزم الصمت (ربما لأنه لا يتحدث الإنجليزية) بينما ظللت أنا وزوجته نتبادل الأحاديث على طاولة الطعام. لم يخل حديثنا عن المواضيع المعتادة التي تثور عندما أخبر أحدهم بأنني سعودي، الإسلام والنفط والصحراء، سألتني الأسئلة المعتادة وجاوبتها بالأجوبة المعتادة، لكنها علّقت أخيرًا ممازحة: «لا بُدّ أنك سعودي مزور إذ تنازلت للسكن مع عائلة متواضعة مثل عائلتنا!» أخبرتها بأنني، بعيدً عن المستوى المادي وما سواه، أحب مخالطة أهل البلدان التي أزورها وأعيش مثلهم قدر المستطاع، وأنني أؤمن بأنه حري بالمرء ألّا يبرح داره ما دام لا يخالط ناسًا جددًا ولا يمارس عادات جديدة. شكرتها وزوجها وتمنيت لهما ليلة هانئة ثم اتجهت لغرفتي لأقرأ قليلاً أمام النافذة الزجاجية التي ينهمر من خلفها المطر بهدوء غاسلاً جنوة التي انعكست أضواؤها على السحب الثقيلة التي تكسو سماءها فشكّلت لوحة بهية من صنع الخالق سبحانه تستحق التوقف لتأملها واستقراء معالمها.



(جنوة ليلاً وقد كستها الغيوم التي صبت عليها الأمطار)

***

استيقظت مبكرًا بعد ليلتي الهادئة تلك، وأزحت ستارة النافذة لتنفرج عن المدينة التي دبت فيها الحياة بشروق شمس الخريف الدافئة. استحممت واتجهت إلى المطبخ لأجد أن السيّدة بادولوتّي قد أعدت لي بعض الفطائر الساخنة، بالإضافة إلى أصناف عديدة من الخبز وطبق مملوء بعلب الزبدة وزبدة الكاكاو ومربى الفراولة والمشمش، بينما رُتبت علب الحليب والعصائر على طرف الطاولة. سحبت خبزًا مدورًا قاسيًا، وسكبت لنفسي بعض الحليب وأنا أبتسم مستشعرًا بأنني أعيش حلم الطفولة أخيرًا!

كان المنزل هادئًا، ربما لكون اليوم نهاية أسبوع، بينما كانت إحدى نوافذه تسمح بتيار بارد من الهواء بالدخول وبث الروح فيه. اعتمرت قبعتي وتدثرت بسترة ثقيلة واتجهت إلى الخارج لاستكشاف المدينة. قررت الاتجاه إلى البلدة القديمة سالكًا الطريق بمحاذاة الميناء الذي يقع قبالة المنزل. لم يكن هناك العديد من المارة، بينما كانت الشوارع تتكدس بالسيارات كلما اقتربت أكثر من قلب المدينة. تعتبر جنوة أكبر موانئ إيطاليا ومن أكبر المدن الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، لذا يكثر فيها المهاجرون غير الشرعيين الذين يتسللون من السفن التجارية أو حتى يسافرون من إفريقيا بقوارب صغيرة لا تستشعرها قوات خفر السواحل.

كانت مباني المدينة الملونة تطل على الميناء من فوق التلال القريبة من الساحل والتي تكدست فوقها المنازل والمباني حتى طمست معالمها الطبيعية. سرت قليلاً في ممر طويل قديم ميزته سريعًا، إذ كانت تملؤه الأقواس والأعمدة الكثيرة وكان يظهر في مقدمة المسلسل «وداعًا ماركو» حيث يركض فيه ماركو متجهًا نحو إحدى مغامراته الشيقة!



(الممر كثير الأقواس وتظهر البضائع الرخيصة وبسطات السلع المقلدة)

بعد نحو ربع ساعة وصلت لأول معلم من معالم المدينة التي تشتهر بها، والذي كان عبارة عن سفينة قراصنة بنيت حديثًا لكن على الطراز الحقيقي وتقبع على إحدى أرصفة الميناء. صعدت على متن السفينة الخشبية الضخمة بعدما دفعت قيمة تذكرة دخول رمزية، وبدأت من جوفها الذي رصّت على أطرافه مدافع قديمة تطل فوهاتها إلى الخارج عبر فتحات فتحت على جدار السفينة. كانت إحدى زوايا جوف السفينة تحوي سجنًا للأسرى والبحارة مثيري المشاكل، ويوجد داخله مجسم لهيكل عظمي لرجل مقيّد بسلاسل. كانت إضاءة المكان قد صممت لتجلب الرعب، خاصة مع اهتزاز السفينة الهادئ جراء تيار المياه. جُلت بنظري حول المكان، وبدا لي أنني كنت وحيدًا. أخذت أكتشف ممرات السفينة وطوابقها حتى مررت ببراميل خشبية كثيرة اصطفت إلى جانب بعضها البعض. كانت واسعة نسبيًا وشبيهة بتلك التي تملأ بالبارود في أفلام القراصنة. توقفت فجأة بعدما لاحظت أمر غريبًا، في حين كانت كل البراميل ساكنة، كان أحدها في آخر الممر يهتز ويتمايل بشكل غريب. افترضت أنه كان على طرف مرتفع، أو أنها حركة من القائمين على السفينة لبث مزيد من أجواء الرعب. أرهفت سمعي وأنا أقترب من البرميل المتمايل لأعرف ما قصته، وما إن دنوت منه حتى بدأت أسمع أصوات همهمة وكلمات مبهمة. تعجبت قليلاً واقتربت أكثر بهدوء لأميز أن الأصوات المنبعثة من داخل البرميل لم تكن سوى صوت بشري، ليس لشخص واحد...بل لشخصين!



(سفينة القراصنة في ميناء جنوة)

توقفت قليلاً، ثم ضربت الأرض الخشبية بقدميّ لأحدث صوتًا! ما إن فعلت ذلك حتى توقفت الحركة والأصوات داخل البرميل فجأة، وبدا أن من بداخله قد امتلئوا رعبًا بحق. انتظرت لحظات ثم مددت رأسي تعلوني نظرة فضولية لأطلّ على داخل هذا البرميل العجيب. كان يوجد فتى وفتاة منحشران داخله ولا يقويان على الحركة، وما إن رآني بأعينهما الغائرات حتى أخذ الفتى يتحدث إليّ بالإيطالية، ولما لم يجد من تجاوبٍ قال بإنجليزية مكسّرة: «نحن عالقان!..دخلنا لنأخذ صورة لكن لم نقو على الخروج» أخبرته بأنه علي إخبار أحد القائمين على السفينة ليقوم بالمساعدة، إلا أنهما ترجّياني ألا أفعل. امتثلت لرجائهما وساعدتهما بالخروج وطلبت منهما التقاط صورة لي كعربون شكر. نظرت إلى الصورة التي التقطاها لي والتفت إليهما

بسرعة وقلت لهما وهم يهمان بنزول درجات السلم الخشبي: «لا أرى معكما كاميرا، يبدو أنكما نسيتموها داخل البرميل!»

رد الفتى وهو يتظاهر بتفتيش جيوب بنطاله:«آها الكاميرا! ... يبدو أننا نسيناها في المنزل!» ثم نزل السلّم بعد ما غمز لي بإحدى عينيه.

ملكّع!



(الصورة التي التقطها لي الشاب من على سطح سفينة القراصنة)

***

نزلت بدوري السلم وخرجت من السفينة متجهًا إلى قلب البلدة القديمة التي وجدت أساسًا في القرن السادس قبل الميلاد، لكنها تهدمت وأعيد بناؤها عدة مرات حتى أصبحت درة المدن ومن أهم موانئ العالم في القرون الوسطى وعصر التنوير الذي بدأ في فلورنسا التي لا تبعد كثيرًا عن جنوة. ولجت البلدة من بوابة ضخمة تتوسط برجين حجريين من بقايا سور المدينة القديم . كانت ممرات وأزقة البلدة القديمة تشبه إلى حد كبير تلك التي تغطي البلدات والمدن القديمة في باقي أوروبا، المختلف فقط كان مستوى العناية التي أحيطت به البلدة القديمة في جنوة. ففي هذه البلدة لا يجد السائح محلات الأنتيكات والتذكارات التي توجد في أمكان كهذه، بل تنتشر عوضًا عنها محلات تعرض البضائع الصينية الرخيصة من الألبسة وغيرها، بينما تصطف عربات المهاجرين الأفارقة التي تعرض الحلي المبتذلة وحقائب السيدات المقلدة. بينما كانت الروائح الكريهة والمياه الراكدة تملأ ممرات البلدة بشعور مقزز لا يتلاءم مع عراقة المكان وجماله الذي يجب أن يكون عليه. استمريت أكتشف المزيد من آثار البلدة رغم ذلك، ورحت أشق أزقتها أتأمل حال هذه المدينة التي كانت يومًا ما جوهرة أوروبا وأحد أهم موانئها وأثرى مدنها، بينما أضحت اليوم مرتعًا للمهاجرين الفقراء والمجرمين الذي اتخذوا من البلدة القديمة مركزًا لتجارة المخدرات والدعارة كما أخبرني صديقي الإيطالي في تورينو. قفلت أتحسس جدرانها وأتخيل مجدها التليد، وأستشعر الخطوات الخيالية لماركو الصغير، والخطوات الحقيقية لكريستوفر كولومبس الذي ولد في هذه المدينة وترعرع في ممراتها وأزقتها ورحت أتفكر بأن هذا الرجل، الذي مات بائسًا ودون أن يعلم أنه اكتشف قارة جديدة، قد جلب — دون أن يعلم أيضًا - الكساد لمدينته، إذ بدأت جنوة

تفقد أهميتها تدريجيًا منذ اكتشاف «العالم الجديد».

أخذت تخيلاتي تتقطع بين حين وآخر بسبب الكلاب المتسكعة التي تملؤها القاذورات التي تمر من جانبي لتذكرني بالواقع المر الذي تعيشه المدينة. كانت جنوة عبارة عن كل شيء لم أتخيله عنها عندما تظاهرت بالنوم فوق سريري بعدما شاهدت الحلقة الأخيرة من «وداعًا ماركو» قبل 15 سنة! يا للحسرة! ويا لحلم الطفولة المتبدد!



جانب من أزقة بلدة جنوة القديمة وتظهر المتاجر مغلقة والمباني مهملة

قررت الخروج من وسط البلدة القديمة والتوجه إلى أطرافها حيث تقع مجموعة من أقدم البنوك في التاريخ، خاصة بنك سانت جورج الذي أسسته عوائل جنوة الوجيهة، من بينها عائلة دي جوزلفي

اليهودية النافذة، قبل أكثر من 600 سنة، والذي ساهم بتمويل حملة كريستوفر كولومبس الذي اكتشف فيها القارة الأمريكية، كما موّل البنك عمليات ضخمة للمستعمرين والتجار الهولنديين والبريطانيين في آسيا خلال العصور الاستعمارية، فضلاً عن تحكمه باقتصاديات مستعمرات جنوة حول العالم، مما جلب للبنك نفوذًا هائلاً.

توقفتُ في ساحة صغيرة قبل خروجي من البلدة القديمة لالتقاط بعض الصور لمباني عتيقة تقع ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي. وما إن التقطت إحدى الصور حتى نظرت إليها لأجد في وسط الصورة رجلا مسنًا كان يسير من أمامي، كان رشيق القوام ومكتسيًا بمعطف رمادي ويحمل في يديه مظلة سوداء اللون طويلة ليقي بها شيبات شعر رأسه الذي كساها البياض عندما ينزل المطر أو تشتد حرارة الشمس. رفعت ناظريّ لأرى الرجل من أمامي يسير بهدوء وهو يرمق العابرين بنظرات مريبة جعلتني أتذكر فيلم (العراب) الشهير وعصابات المافيا الإيطالية الأكثر شهرة التي يلبس أفرادها السواد ويرمقون الآخرين بنظرات كهذه ليشعروهم بمدى سطوتهم وقوتهم. حمدت الله بأن والد صديقي في تورينو قد أخبرني بأن المافيا تنتشر في جنوب إيطاليا وليس في شمالها حيث تقع جنوة!



(الرجل المسن يتوسط الصورة)

فجأة، وبدون أن ينتبه الرجل، سقط من معطفه ظرف أصفر صغير. انتظرت للحظة قبل أن أتقدم لأخذ الظرف من الأرض لأسلمه للرجل المسن الذي أكمل طريقه دون أن يشعر بما حدث. تحسست الظرف بسرعة ولم يكن سميكًا، بل ربما احتوى ورقة أو اثنتين. تقدمت إلى الرجل الذي كان يسير بسرعة قائلاً: «عفوًا يا سيدي!» ولم ينتبه

إلي، تقدمت أكثر ورفعت صوتي: «إكس إكيوز مي سيرا» ولوهلة، نظر إلي الرجل نظرة سريعة ثم شرع بالهروب!

توقفت قليلاً متسائلا عما يحدث وعن السبب الذي دفعه للهروب مني وأنا أحمل ظرفه الذي أسقطه! نظرت إلى الظرف وكان مختومًا وملصقا عليه بعض طوابع البريد. فكرت قليلاً وقررت متابعة الرجل، فركضت نحوه! التف الرجل صوب إحدى الأزقة وهو يسارع الخطى بينما أخذت أناديه: إكس إكيوز مي، إكس إكيوز ميييييي! وهو لا يبالي بندائي! نظر إلي بسرعة وهو يتمتم بكلمات إيطالية وولج ناحية زقاق آخر أضيق من الذي قبله. قلت في نفسي لعل الرجل لا يفهم الإنجليزية، فعزمت على تجربة بعض العبارات الإيطالية التي أعرفها:

إسكوزي! (عفوًا) إسكوزييييي! ولم تفلح نداءاتي بإيقاف الرجل، أضفت كلمة إيطالية أخرى أعرفها لعلها تساهم إيقاف هذا العجوز الغامض:

إسكوزي سنيوري! (عفوًا يا سيدي)

إسكوزي سنيووووريييييي!

عندها زاد العجوز من سرعته التي أبهرتني، وأخذ يصعد العتبات برشاقة ويلتف في الأزقة والممرات كشاب صغير. أخذت أتابعه والفضول يشدني لمعرفة سر هذا الرجل الذي يهرب مني وأنا أقدم له مساعدة! ابتسمت وأنا أتذكر لقب «مدير الخدمات الإنسانية» الذي خلعه علي مجموعة من الأصحاب عندما ساهمت باستعادة قلادة

ذهبية لآنسة فرنسية أسقطتها في قطار الأنفاق في باريس! باريس.. جنوة، آنسة فرنسية..عجوز إيطالي، يا للفرق! قررت أن «الخدمات الإنسانية» لا تعرف عمرًا ولا جنسًا، ورحت أهرول خلف العجوز محاولاً استرجاع أي كلمة إيطالية أعرفها لتعينني في هذه المعضلة. صعد العجوز عتبات مرتفعة تؤدي إلى ساحة صغيرة تتفرع منها ممرات وأزقة مظلمة ومقززة. عندها تذكرت كارتا وتعني (ورقة) بالإيطالية! لعله يفهم من هذه الكلمة أنني أحمل له ورقة ثم يتذكر ظرفه المفقود. كنت قد تعلمت هذه الكلمة عندما كنت أقرأ عن الماجنا كارتا، وتعني باللاتينية (الورقة العظيمة) وهي «الميثاق العظيم للحريات» كما يصفها الإنجليز، إذ تعتبر أول وثيقة ديموقراطية عرفها التاريخ، إذ تنازل بموجبها الملك جون، شقيق ريتشارد قلب الأسد، عن بعض سلطاته للأرستقراطيين عام 1215، واستُلهمت منها العديد من مبادئ الدساتير العالمية من بينها دستور الولايات المتحدة الأمريكية.

عندها استخدمت كل ما في جعبتي من الكلمات الإيطالية وصرخت بالعجوز الرشيق بعدما طفح بي الكيل:

إسكوزي سنيوري، كارتا!

(عفوًا سيدي، ورقة!)

إسكوزي سنيوري كاااارتا!!!!

إسكوزي سنيوري كا!!!!!!ارتا!!!!!!!!

اتجه العجوز صوب زقاق شبه مظلم وهو يركض بأقصى طاقته، بينما تبعته بأقصى طاقتي أنا الآخر وأصرخ بأقصى ما لدي:

كاااارتاا كاااااارتاااااااااااااااااااااا

ولما اقتربت منه أكثر، التفت لينظر إلي نظرة خاطفة دون أن يخفض سرعته، أنهى نظرته تلك واستمر بالركض قبل أن يتوقف فجأة بعد ثوانٍ قليلة. كدت أن أرتطم به جراء توقفه المفاجئ وسرعة ركضي، تقدم نحوي وسحب الظرف من يدي بقوة والعرق ينهمر من جبينه وعيناه الغائرتان ممتلئتان بالرعب، أدخل يده داخل جيب معطفه وأخرج نقودًا معدنية وسحب يدي ورماها على كفي بقوة حتى تطايرت وتناثرت على الأرض. أشار بإصبعه بأن أخرج من هذا المكان الآن وأخذ يتكلم بالإيطالية بسرعة شديدة وهو يهز يده ليؤكد علي بأن أترك المكان حالاً. فعل ذلك ثم استمر بالركض حتى ابتلعه ظلام الممر القاتم. ظللت في مكاني مشدوهًا مما حدث، ولم أزدد إلا فضولاً حول سر هذا العجوز النحيل غريب الأطوار. قد أتفهم لماذا كان يهرب مني، إذ ربما خالني لصًا، لكن لماذا يهرب الآن؟!

استجمعت أنفاسي المتسارعة ونظرت إلى الأسفل نحو النقود المعدنية المتناثرة على الأرض، تذكرت قصة ذلك المحامي الفرنسي الشهير في القرن التاسع عشر الذي قيل له: «كان بإمكانك أن تكون ثريًا، فالأموال كانت تحت قدميك، كل ما كان عليك فعله هو أن تنحني!» فرد قائلاً: «نعم، كان عليّ أن أنحني!». «عالمٌ مثالي..هه!» فكرت بهذا وأنا أحدث نفسي بأنهُ لا ضير بأن أنحني لأجمع نقودًا قدمها لي عجوز غريب جراء «خدمة إنسانية» قدمتها له! دنوت نحو الأرض في هذا

الزقاق الضيق جدًا الذي يكسوه الظلام بسبب دنو جدرانه المتهالكة ببعضها البعض وأخذت أجمع النقود وسط سكون تام.

سرت في جسدي رعشة فزع باردة عندما شعرت بذلك الإحساس الذي يُشعر المرء بأن أحد ما يراقبه! التفت يميني وأنا أجلس القرفصاء لأجد قدمين سوداوين هائلتين تنتعلان حذاءً أحمرَ لمّاعًا. أخذت أرفع عينَيّ إلى الأعلى متفحصًا ذلك المخلوق الذي يقف إلى جانبي، بلعت ريقي خوفًا وأنا أرفع جسدي بهدوء من على الأرض. وقفت منتصبًا وأنا أنزل قبعتي، بينما أخذت عيناي الجاحظتان تتفحصان القبح والبشاعة التي أمامي. كانت سيدة سوداء ضخمة دميمة كاسية عارية، إذ لم تكن تتوار إلّا بتنورة قصيرة حمراء اللون ومشد صدر يحمل صدرها المترهل القبيح. كانت تعرجات جسدها الشائن وضخامة وجهها الذي زادته المساحيق بشاعة كفيلة بأن تجعل جسدي يقشعر ويشمئز. اقتربت مني وهي تهز صدرها وتتمتم بكلمات إيطالية حتى كادت أن تلتصق بي جراء ضيق الممر. هززت رأسي بالنفي ولم تدع لي مجالاً كبيرًا للحركة بحيث حاصر جسدها الضخم جسدي الصغير. ولما أدركت أنني لا أفهم الإيطالية، قالت بإنجليزية مكسرة وهي تتغنج تغنج صبية حسناء وتغمز لي بإحدى عينيها: «هل تريد بعض المرح؟» مرح!! مرح!!! المرح الذي كنت أفكره فيه حينها هو النجاة بحياتي والهروب من شَرَك هذا البشاعة المتمثلة في المخلوق الذي أمامي! التفت بسرعة نحو ناحية أخرى في الممر وإذا بي أجد امرأة آسيوية بالكاد تلبس ما يستر عورتها وكانت تسندُ رأسها على الجدار وتتكلم مع نفسها بكلمات غير مفهومة، كان واضحًا أن جسدها الهزيل قد أنهكته المخدرات. ليس ببعيد عنها، كانت ترمقنا في الظلمة امرأة

شقراء كانت أكثر سترًا من صاحبتيها، وما إن تحركت قليلاً نحو بقعة ضوء حتى تبيّن وجهها الذي امتلأ بالكدمات والجروح في حين كانت عيناها الزرقاوان تنظران إليّ ببؤس.

«وكر دعارة»، هذا تحديدًا ما كنت فيه! وهذا تحديدًا ما حذرني منه صديقي في تورينو! يا للورطة! تبًا للعجوز وتبًا للظرف الأصفر وتبًا للفضول الذي جلبني إلى هنا!

***

أخذت العاهرة السوداء الشمطاء تتغنج أكثر أمام هذا الشباب الذي وقع في مصيدتها، كُنت أشبه بنحلة بريئة جلبها حظها النحس إلى داخل شبكة عنكبوت شريرة من طراز الأرملة السوداء! اقتربت مني وهي تعض شفتيها القذرتين بكل قبح، صرخت رافضًا ودفعتها نحو الحائط بقوة. ما إن فعلت ذلك حتى تراءى لي من وسط الزقاق المظلم ضوء سيجارة مشتعلة وخيال رجل، وما إن تقدم قليلاً حتى اختفت العاهرتان الآسيوية والشقراء بسرعة بينما بقيت العاهرة السوداء أمامي ملتصقة بالجدار، وأظهر ضوء الشمس صدرها الممتلئ بآثار إطفاء السجائر وهو ينتفخ ويتضاءل جراء نَفَسها الشديد الذي ربما امتلأ غضبًا مني، أو حتى خوفًا من زعيمها الشرس الذي اتخذ من صدرها طفاية لسجائره!

نظرتُ إليه نظرة ذُعر وهو يتقدم بهدوء مخيف نحونا، ثم رمقتها بنظرة شفقة وعينيها تلمعان جراء الدموع وكأنهما ترجواني بألا أذهب. رميت النقود المعدنية على الأرض، ورطّبت حلقي الذي أصيب بالجفاف وجففت جبيني الذي غشته الرطوبة...وهربتُ!



(على يمين الصورة (مقابل براميل القمامة) يمتد الزقاق الضيّق المظلم الذي تورّطت بالدخول إليه ملاحقًا العجوز)

عدوت مجفلاً عنهم صوب الممرات التي قدمت منها، وضللت الطريق وسط متاهة طرقات البلدة القديمة حتى خرجت من البلدة

صوب ساحة فسيحة، تلفّت خلفي وعن يميني ويساري، وحمدت الله أن لا أحد يتبعني وأن يسّر لي الخلاص مما كنت فيه. سارعت نحو زاوية هادئة واتصلت على صديقي الذي استضافني في تورينو لأحكي له ما حدث ولأستشيره فيما علي فعله:

«لا تفعل شيئًا» قال لي قبل أن يضيف: «تتذكر لما أخبرك والدي بأنه ليس لدنيا مافيا هنا في الشمال؟ حسنًا، هو كان يتحدث عن مافيا العصابات الشهيرة. هنا في شمال إيطاليا لدينا مافيا من طراز مختلف، مافيا قوامها كثير من رجال الشرطة والأجهزة الحكومية التي تعمل بشكل ربما أكثر تنظيمًا من عصابات المافيا. كلهم يعرفون عن الدعارة والمخدرات بل ويتاجرون بها. أنصحك بأن لا تخبر أحدًا، بل وأنصحك بأن تعود لسكنك حالاً».

أغلقت الهاتف وأخذت أتأمل في الساحة الفسيحة التي تمتد من أمامي والتي تسمى «بلازا دي فيراري» وهي أهم ساحات جنوة. كانت تقع وسط مبانٍ ضخمة قديمة مزخرفة بأجمل ما يكون، وتنتشر فيها تماثيل تمجد رجالاً عظاما أنجبتهم المدينة، وتتوسطها نافورة كبيرة بديعة يجلس على ضفتها العشاق والحالمون. بينما تستقر خلفها البلدة القديمة التي كانت يومًا ما درة الدنيا بينما تحوي اليوم عالما قبيحا يحكمه الفساد والرذيلة. الكل يعلم والكل يسكت! أخذت سيارة أجرة متجهًا نحو سكني وأنا أسرح بناظري أتأمل هذه المدينة التي هي أشبه بفتاة يافعة حسناء اغتصبها الفساد وتمكن من جسدها فراحت تنفث خبثًا بعدما كانت تبعث نسيمًا طيبًا ورحيقًا... ولا عزاء لماركو!



(ساحة بلازا دي فيراري التي لجأت إليها)

ساعة بين المحششين

كوبنهاجن، الدنمارك. صيف 2011

نظرت إلى الخريطة التي كانت بحوزتي لأتأكد أنني في المكان الصحيح في الجانب الشرقي من كوبنهاجن. كانت أمامي لوحة خشبية مقوّسة مكتوب عليها «كريستيانيا» تقع في مقدمة ممر طويل يمتد من خلفها فعلمت أنني وصلت إلى وجهتي.

كان المكان من الخارج هادئًا وساكنًا ولا يعكس ما كنت أعلمه عن ذلك الحي الغريب المشهور بأسلوب حياة مختلف ويتميز بشيء من الحكم المحلي المستقل عن بلدية كوبناهجن. دخلت الممر المخصص للمشاة، إذ يمنع دخول السيارات إلى ذلك الحي، والذي كانت تحفّه الأشجار من اليمين بينما كانت بعض المطاعم والمقاهي شبه الخاوية تصطف على جانبه الأيسر داخل مبانٍ عتيقة لوِّنت حيطانها الخارجية برسومات وعبارات منمقة مختلفة الأشكال والطُرز. كان الممر هو الآخر خاويًا إلّا من بعض العابرين والكلاب المشردة، فأخذت أسير بهدوء وتوجّس متأملاً الرسومات على الجدران ومتحاشيًا تلك الكلاب المتسخة وبعض المارة الهزيلين غريبي الشكل والملبس. تقدمت في الممر حتى قادني نحو ساحة فسيحة مزدحمة نسبيًا بالناس الذين اصطفوا أمام أكشاك مهلهلة مغطاة بأشرعة الجيش زيتية اللون يشترون الحشيش والقنب الهندي المخدر وغيرها من المخدرات!



جانب من رسومات الجدران على الممر المؤدي إلى وسط كريستيانيا

بُنيت كريستيانيا في الماضي كثكنة عسكرية في بدايات القرن السابع عشر، وظلت تحمل هذه الصفة حتى هجرها الجيش في بداية سبعينيات القرن الماضي، ولم يلبث أن احتلها مجموعة من الهيبيز وأعلنوها بلدة حرة مستقلة عام 1971م. ورغم أن الحكومة الدنماركية لم تأخذ هذا الإعلان على محمل الجد حينها، إلّا أنها أصدرت لاحقًا تشريعًا يكفل حق كريستيانيا بسنّ قوانين خاصة بها، وتم ربطها بالحكومة مباشرة بدلاً من بلدية كوبنهاجن! والهيبيز كانو عبارة

عن مجموعات شبابية متمردة على تقاليد وأفكار المجتمع انتشرت وبلغت أوجها في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، وتتمثل بعض مظاهر ثقافتهم بأنهم يلبسون الملابس المهترئة ويطيلون شعورهم المتسخة ويتسامحون كثيرًا مع استخدام المخدرات وبعض الممارسات اللاّ أخلاقية. والحق يقال بأنني لم أقابل هيبيًا إلا وكان في قمة اللطف والسماحة، وذلك لأن ثقافتهم تدعو للتسامح ونبذ الفروقات والصراعات بين بني البشر. وهم فرقة تحب السفر وتهواه، وأناس كثر مدينون، مثلي!، لهم إذ كانوا من ساهم بنشر فكرة الهوستلات حول العالم؛ إذ كانوا يؤمنون بحق الناس بالمسكن المجاني أو الرخيص وقاموا بتأسيس العديد من هذه الهوستلات أثناء رحلاتهم الجماعية العديدة في أوروبا وآسيا وغيرهما. وسبق ونزلت في أحد أقدم الهوستلات التي أسسها الهيبيز، إذ لا يزال قائمًا في بلدة بروج شمال بلجيكا!

بعد تقهقر ثقافة الهيبيز، تقهقرت كاريستيانيا كقاعدة لهم في كوبنهاجن، إذ أصبحت مرتعًا للحشاشين ومروّجي المخدرات ومسرحًا للجريمة المنظمة. ورغم أن الحكومة تمنع رسميًا بيع المخدرات الثقيلة فيها، إلا أنها تتغاضى كثيرًا عن بعض الممارسات التي تتم وسط ذلك الحي المسمى «كريستيانيا- البلدة الحرة!». تقدمت بهدوء نحو الساحة التي عُلّق على كل زاوية فيها لوحات تؤكد منع التصوير فتذكرت أنني قرأت أن التصوير مسألة حساسة لدى سكان هذا الحي ولا يتسامحون معه، فأدخلت كاميرتي مباشرة في حقيبتي الصغيرة؛ فآخر ما كنت أريده حينها هو مجابهة مروّج مخدرات أو حشاش لا يعقل! يتجاوز سكان ذلك الحي الثمانمئة شخص بقليل، وهناك قوائم انتظار طويلة تحمل أسماء أشخاص من كافة أنحاء العالم يرغبون في العيش في

خرابات تلك المنطقة الغريبة. كانت المباني المحيطة بالساحة قديمة ويدرك المرء من أول وهلة أن يد العناية لم تطَلْها منذ أمد، وينتشر حولها السكان البؤساء يدخنون الحشيش ويمارسون النحت والرسم على تلك الجدران التي كانت ملونة ومزخرفة بزخارف بديعة ورسومات بهيّة. كان المكان مزيجًا من البؤس والبهجة!

رحت أتجوّل في المكان وقد شدّني الفضول لاستكشاف المزيد منه، فلما تقدمت قليلاً رأيت لوحة كتب عليها: «قانون كريستيانيا الشائع» وفيها وضعت تسعة قوانين تمنع العنف واستخدام السلاح والسكاكين وبعض القواعد الأخرى ذات العلاقة التي وضعها السكان. ليس بعيدًا عنها، رُفع علم ذلك الحي والذي كان عبارة عن مستطيل أحمر تتوسطه ثلاث دوائر صفراء تمثّل علب الدهان التي وجدها الهيبيز داخل الثكنات عندما احتلوها أول مرة، واستخدموها لتلوين بلادهم الحرة الجديدة!

رغم ضآلة حجم «بلدة» كريستيانيا، إلا أن سكانها يحملون جنسيات من أماكن متفرقة حول العالم. أخذت أتأمل أولئك النفر الذي ارتضوا حياة العوز والفاقة في هذا المكان التعيس، يعيشون في أبنية متهالكة ليس فيها من مظاهر التمدّن شيء، ويلبسون ملابسَ ابتذلها أصحابها ويتقوتون بطعام لا يألفه الإنسان العادي. رغم ذلك بدوا، على طريقتهم الخاصة، سعداء! إذ ربما يحمل الفرد منهم مطرقته ليصنع من خشبة صغيرة منحوتة فنية يبيعها على السواح الفضوليين ليشتري بها حشيشًا من إحدى الأكشاك التي يبيع فيها مواطنه في الحي. دائرة اقتصادية مثالية!

كان المكان مثيرًا بحق، إذ لم أر مثله قط إلّا في الأفلام الوثائقية والبرامج التلفزيونية، فأخذت يدي تحاول إخراج الكاميرا بتردد شديد، إلّا أنني قررت. حفاظًا على سلامتي. الاستعاضة بهاتفي المتنقل الذي يحمل كاميرا، إذ سأتظاهر بالكلام فيه وأنا ألتقط الصور... حركة بدائية، لكنها فعّالة! بالفعل، استطعت التقاط بعض الصور ثم دسست هاتفي بسرعة بعدما راودني إحساس بأن أحد ما يراقبني، وأسرعت صوب ممر جانبي تحفّه الأشجار العالية. تلفت خلفي وتنفست الصعداء إذ لم أجد أحدًا، فأخذت أسير في الممر الذي كانت تملؤه الحشائش وتصطف على جنباته شجيرات غير مهذبة وتملأ أرضيته بقايا مياه المطر التي أحالت بعض أجزائه وحلاً. جلت بنظري ولما لم أجد أحدًا من السواح أوجست ريبة فقررت الإسراع بالخروج من الممر من الجهة الأخرى. لم يكن ذلك ممرًا وحيدًا، بل كان جزءًا من متاهة من الممرات داخل تجمع الأشجار هذا، فأخذت أسير بهدوء على جانب إحدى تلك الممرات متجنبًا وحول المياه وسطه.

فجأة! تحرك شيء أسود خلف إحدى الشجيرات الصغيرة التي سرت بجانبها، فكاد قلبي ينخلع من موضعه، ولما نظرت إليه كان شابًا شبه عارٍ مكسوًا بالأوشمة القاتمة يضاجع شابة تشابهه في الوصف، وقد ظننت بدايةً أنهما انتبها لمقدمي فتحركا من موضعهما، إلّا أنني أدركت من تعابير وجهيهما أنهما كانا تحت تأثير المخدر. استقبحت المنظر وما إن هممت بترك المكان حتى لفت نظري وجود بعض العلب والعقاقير والإبر على الأرضية بجانبهما، ولما رفعت عيناي دهشت بأشد ما يكون بما رأيته! إذ كان هناك ساحة رملية صغيرة بين الأشجار يتوسطها ما يقرب العشرة أشخاص مستلقين على الأرض بلا حراك

وأوجه بعضهم تنظر نحو السماء وقد أغلقت أعينهم! تحركت من مكاني بسرعة لأرى ذات المنظر على الجهة الأخرى من الممر إذ امتد على الأرض عدد أكبر من الشبان والشابات تتناثر حولهم العقاقير المخدرة! كانوا ساكنين أشبه بجثث هامدة، إذ كأنما صيحة أخذتهم فأصبحوا على الأرض جاثمين!

أسرعت خارجًا من ذلك المكان الموحش سالكًا أحد الممرات الذي أدى بي إلى ممر أوسع منه يسير فيه بعض المارة من السياح. ما إن مشيت فيه قليلاً حتى قادني نحو عدة مبانٍ صغيرة يبدو أنها سكنية، وفهمت حينها المقصود بمصطلح «العمارة بلا مهندسين معماريين» الذي تقوم على أساسه العمارة في كريستيانيا؛ إذ يقوم السكان أنفسهم بتصميم وبناء مساكنهم دون الاستعانة بأية مهندسين، فتصبح مبانيهم غريبة الشكل منقوصة الاتزان. اللطيف أنه ورغم أن أولئك السكان اختاروا الانقطاع عن العالم الحديث، إلّا أنهم يملكون مسارح خاصة يمثلون فيها مسرحياتهم الفريدة، وقاعات للفنون يعرضون فيها إبداعاتهم التي أبدعوها تحت تأثير الحشيش! حشيش وفن!

كانت بعض محال الملابس والطعام تمتد جنبًا إلى جنب أمام المساكن التي يخيل للمرء أنها ستسقط خلال لحظات، لكن العجيب أنها ربما تكون قائمة في مكانها منذ عشرات السنين. كان الوقت عصرًا حينها، وكان لا بد أن ذلك وقت استرخاء لهم؛ إذ رأيت العديد منهم يمارسون اليوجا والتأمل فوق الأحجار الكبيرة أو أغصان الأشجار الضخمة. حشيش وتأمل!

شعرت ببعض العطش لكنني خشيت أن أشتري شيئًا من أكشاكهم

الصغيرة، فمن يدري، لعلهم يبيعون العصائر بنكهة الحشيش هنا! تقدمت مستكشفًا تلك البلدة متناهية الغرابة حتى انتهى بي المطاف إلى مبنًى كبير نسبيًا له بوابة تحتل معظم الحائط الخارجي. كانت عشرات اللوحات الفنية معلقة على جدران المبنى من الداخل، بينما يتوسط علم كريستيانيا الحائط الأوسط. كان المبنى صغيرًا بمعاييرنا، كبيرًا بمعاييرهم، وكان يحوي كَراسيّ عديدة متصلة بالجدار يتراص فوقها عشرات من السكان الذين يتبادلون الحديث والحشيش. رمقتهم بنظرة وهم يتحادثون وقد كتم المكان بالدخان ثم ابتسمت، إذ خُيِّل إلي أن هذا هو المكان الذي تُخترع فيه نكت المحششين التي نسمعها دائمًا!

لم يكن ذلك، بطبيعة الحال، مكانًا لاختراع طرائف المحششين، بل كان في الواقع برلمانًا! أو ليس برلمانًا بمفهومنا، بل كان أشبه بديوانية يجتمع فيها بعض السكان لمناقشة أمور بلدتهم التي يقررونها سويًا باستخدام الديمقراطية المباشرة، إذ يدعون بعدها كل السكان بلا استثناء دوريًا لمداولة قضاياهم وسنّ قوانينهم ورفع احتياجاتهم، ثم يتخذون قراراتهم بالأغلبية! حشيش وديمقراطية!

تركتهم يناقشون قضاياهم العالقة وأنا أتلفت لأتأكد من عدم مراقبة أحد لي، إذ هممت باستخدام الحيلة الشهيرة، فأخرجت جوالي متظاهرًا بالحديث وأنا ألتقط صورًا لذلك الاجتماع الديمقراطي! ما إن فعلت ذلك حتى ربت أحدهم على كتفي من الخلف، ولما التفت وجدت خلفي رجلاً جسيمًا سمّرت الشمس جلده وتدل فراسته على قسوته وشدته.

«امسح الصورة!»

قال ذلك بصوت ضخم ترتّج الآذان لسماعه، فتسمرت في مكاني أنظر إليه ثم قلت:

«لم أكن أصور، كنت أكلم!»

رفع رأسه الضخم قليلاً ورمقني بنظرة حادة مفادها: «علينا؟! حركات قديمة!» ثم كرر مرة أخرى قائلاً بصوت أعلى:

«امسح الصورة!»

كان لا بد أن حركتي التصويرية تلك قد تم استهلاكها كثيرًا في هذا المكان فلم تعد مجدية، فوقفت في مكاني لا أدري ما أصنع، فقد يكون الرجل عضوًا في عصابة جرائم منظمة، أو مروجًا للمخدرات، لا أعلم! الذي أعلمه أن حلقي جف ولم أقوَ على الكلام من شدة الخوف فظللت أنظر إليه دون أن أنبس ببنت شفة.

فما لبث هنيهة حتى اقترب بوجهه النتن إلى وجهي وقال ببطء بصوته الجهوري:

«امسح...الـ....صورة!»

«سم طال عمرك!» قلت له مثل هذا وأنا أمد له جوالي بكلتي يديّ ليفعل به ما يشاء! أخذ الجوال ثم أعاده بسرعة وقال بإنجليزية ركيكة بأن أقوم أنا بمسح الصورة إذ لا يعرف هو طريقة استخدامه.

قمت بمسح الصورة أمامه ولما عزمت على الذهاب جذبني مع كتفي وقال وهو يشير إلى نهاية الممر:

«امسح كذلك الصورة التي أخذتها قبل قليل في الساحة هناك!»

«لو تبي مسحت الذاكرة كلها!» حدّثت نفسي بهذا وأنا أخرج جوالي مرة أخرى لأمسح الصورة تحت ناظريه، وعلمت بأن حدسي صدق لما شعرت بأن أحدًا ما يراقبني لما كنت ألتقط تلك الصورة. تساءلت عن مبتكر المثل الدنماركي القائل: «عندما تسافر، أغلق فمك وافتح محفظتك» فلا بد أن مخترعه كان في ذات موقفي، على الرغم بأنني أعتقد بأن المثل يناسب الرجل المتزوج أكثر من المسافر!

سرت أمام الرجل بهدوء كأن الأمر لا يعنيني لكنني لم أكد أنعطف جهة الساحة ذات أكشاك الحشيش حتى أطلقت قدميّ للريح ولساني حالي يقول «لا تستطيعون اللحاق بنا» على وزن «لا تستطيعون قتلنا» الذي يعتبر مطلع السلام الوطني لحي كريستيانيا، والذي كان أساسًا أغنية شهيرة ذاع صيتها في السبعينات.

سرت أستحث خطاي حتى وجدت نفسي أمام لوحة مقوسة مكتوب عليها:

«أنت الآن تدخل الاتحاد الأوروبي» فعلمت أنني شارفت على الخروج من ذلك الحي العجيب ودخول كوبنهاجن، حيث الحضارة والقانون!

بالإمكان اعتبار «كريستيانيا» دولة مجهرية، والدول المجهرية عبارة عن دول ضئيلة الحجم لا يُعترف بها ولا تملك سيادة حقيقية رغم اعتقاد، أو ادعاء، ساكنيها بأنهم مستقلون بالفعل ويمارسون حياتهم على هذا الأساس، وتعتبر كريستيانيا أحد أقدم هذه الكيانات وأشهرها وأكثرها غرابة وتميزًا. رغم قلة عدد هذه الدول المزعومة، إلا أن اثنتين منها تقعان في الدنمارك، فإلى جانب كريستيانيا توجد مملكة إليوور التي تقع على إحدى الجزر الدنماركية التي اشتراها مجموعة من المعلمين وأعلنوها مملكة مستقلة عام 1945م وتعاقب على حكمها منذ ذلك الحين ستة ملوك، وتصدر المملكة طوابع بريد وعملات خاصة بها!



«أنت الآن تدخل الاتحاد الأوروبي»

والأغرب منها «مملكة العالم الآخر» في التشيك، إذ تحكمها ملكة وتديرها نساء ويُنظر فيها إلى الرجال كعبيد! ولعل أشهر تلك الدول المجهرية هي «إمارة هوت ريفير» في أستراليا التي أعلن أميرها ليونارد الاستقلال عام 1970م وتصدر «دولته» عملات وجوازات سفر خاصةٍ بها. ولا شك أن أصغر تلك الدول المجهرية هي «إمارة سيلاند» التي أسست فوق جزيرة اصطناعية ذات عمودين في بحر الشمال، ويسكن فيها الأمير ومواطنوه الخمسة والعشرون، وتصدر إمارته هي الأخرى طوابع بريدية وعملات يتم بيعها على السياح ويعتمد عليها اقتصاد الإمارة المنعزلة!

لما خرجت من «دولة» كريستيانيا توقفت لأروي عطشي في مقهى صغير، وابتعت منه عصيرًا طازجًا وحلوى دانيش دنماركية استطابتها نفسي، ورحت أتفحص صوري لذلك اليوم. وسط دهشتي، وجدت الصورة الثانية التي كان علي مسحها لما طلب مني الرجل الجائر ذلك، إذ كنت التقطت، دون أن أنتبه، صورتين وليست واحدة لأحد أكشاك بيع الحشيش! شعرت بالنصر والفرح والآن، وأنا على بعد آلاف الأميال من كريستيانيا ومن ذلك الرجل العنجهي، أنشر تلك الصورة نكايةً به!



أحد أكشاك بيع الحشيش، ويظهر مرسومًا عليه علم كريستيانيا

يوم أرستقراطي

سباق آسكوت الملكي للخيول، بلدة آسكوت، وسط إنجلترا. ربيع 2010.

كانت أشعة شمس الصباح قد بدأت بالانتشار داخل شقتنا الصغيرة في مدينة بورنوث الساحلية جنوب إنجلترا عندما كان رفيقي في السكن ريتشارد يقف أمامي لينمق هندامي ويتحقق من ربطة عنقي. كنت أرتدي بدلة رسمية مكونة من معطف أسودَ فاخر طويل ذي نهاية مقوسة وقميص أبيضَ تعلوه صدرية رمادية، وأحمل بيدي قبعة من ذات اللون. كان ذلك زيي الذي اخترت ارتداءَه لحضور سباق آسكوت الملكي للخيول والذي يتميز بمعايير لبس عالية باعتباره رأس المناسبات الاجتماعية في المجتمع البريطاني وأعلاها برستيجًا ومكانة.

كان ريتشارد شابًّا إنجليزيا في الخامسة والثلاثين من عمره ويعيش مع صديقته التي تصغره بعام في تلك الشقة التي أشاركهم فيها. كان طويلاً ومرحًا ولطيف المعشر ولم يتردد في تقديم العون لي في التجهيز لحفلتي الملكية تلك.

«أشعر بأنني البيتلر الخاص بك!»

قال ريتشارد ذلك مبتسمًا وهو يلتقط من طاولة قريبة فرشاة كثيفة خاصة ليقوم بتلميع كتف معطفي ومقدمته بها. ضحكت وشكرته على مجاملته إذ أشعرني بأنني شاب أنتمي لعائلة نبيلة عريقة من الطبقة الأرستقراطية، إذ كان البتلر هو لقب الرجل الذي يتكفل بالخدمة الخاصة للرجل الأرستقراطي، بحيث يساعده يوميًا على ارتداء ملابسه بينما ينقل له الأخبار من داخل القصر وخارجه، وذلك فضلاً عن مهامّه الأخرى المتمثلة برئاسة باقي الخدم وإدارة شؤون القصر.

رن هاتفي الجوال معلنًا قدوم سيارة الأجرة التي طلبتها لتقلني من المنزل إلى محطة القطار. شكرت ريتشارد بعدما وضع لمساته الأخيرة وخرجت من الشقة نازلاً عبر السلالم الخشبية التي يحدث وقع أقدامي عليها صوتًا أعلى من المعتاد، إذ كان الحذاء الذي أرتديه يحوي طبقة معدنية من الأسفل تعطي ذلك الصوت العالي عند الارتطام بالأرض وذلك لإضفاء الهيبة والوقار على منتعل الحذاء! كان كل ما أرتديه ذلك اليوم يحمل طابع العراقة والتقاليد، ولعل ما زاد شعوري بذلك هو ذلك المبنى الذي نعيش فيه، إذ كان مبنىً عتيقًا يزيد عمره عن قرن ونصف وبني أساسًا ليكون فندقًا فارهًا، ربما لتلك الطبقة الأرستقراطية التي كنت أرتدي بردائها ذلك اليوم! وقفت في أعلى السلالم لوهلة أنظر إلى خيوط أشعة شمس الربيع وهي تداعب الزخارف الحجرية التي تزين ممرات المبنى وتلامس درجات السلم الخشبية لتشكل لوحة صباحية توجز ما كنت بصدد رؤيته في بقية يومي ذاك: أصالة وعراقة وجمال!

نزلت بعدها بسرعة وخرجت تجاه سيارة الأجرة التي ما إن رآني سائقها حتى اندفع خارجًا منها ليفتح لي الباب وهو يمطرني بعبارات المجاملة والترحيب وهو أمر لم أعتده من قبل على هذا الشكل. تذكرت حينها أن صديقًا إنجليزيًا زار السعودية أفهمني مرة أن لبس ربطة العنق عندهم يعادل «الترسيم» بالشماغ عندنا، فهو يدفع الآخرين لاحترام المرء وتوقيره أكثر. ذلك اليوم، بمعطفي الفاخر الطويل وقبعتي الفخمة المصنوعة من الصوف الثمين، لم أكن كمن يرتدي شماغًا يرسّم به فحسب، بل كنت كمن يرتدي بشتًا ثمينًا!

ما إن انطلقت بي سيارة الأجرة حتى دفع لي السائق بصحيفة يومية وهو يشير إلى قائمة بأسماء الخيول المشاركة بسباق آسكوت الملكي ذلك اليوم وهو يقول:

«هنا! هذا اسم الفرس التي ستمثل مدينة بورموث في السباق اليوم، عليك يا سيدي أن تراهن على فوزها!»

سحبت الصحيفة منه ورحت أقرأ في أسماء الخيول وكأني خبير بها، فوعدت الرجل بأن أدعم فرس بورنموث ولو ببعض الصرخات الحماسية، فأنا لن أراهن على أي خيل في نهاية المطاف!

وصلنا المحطة وأصر السائق على أن يفتح باب السيارة لي معززًا بذلك شعوري بكوني شابًا أرستقراطيًا ذلك اليوم، ولما رأيته مصرًا ولما كنت أرغب بأن «أعيش الدور» جعلته يفتح لي الباب الذي ترجلت منه متجهًا نحو رصيف القطار. كانت الشمس لا تزال تطل باستحياء من بعيد، إذ لا زالت بعض مصابيح المحطة مضاءة ولا زال

نسيم الهواء البارد يحف المكان. كنت قد ترددت باعتمار قبعتي داخل سيارة الأجرة؛ إذ خشيت أن تكون هيأتي ملفتة للأنظار داخل المحطة، إلا أن خشيتي تلك تبددت عندما دلفت إلى المحطة لأجد العديد من الرجال قد ارتدوا أزياء شبيهة بزيي، بينما كانت العديد من النساء ينتظرن القطار وهن متزينات بأحسن ما يكون ويعتمرن القبعات الطويلة الملونة غريبة الشكل ومتعددة التصاميم، ويحملن معهن سلالاً تحوي قطعًا من الفطائر والفواكه والنبيذ، وهذا من تقاليد حفل سباق الخيول الشهير هذا الذي كنا جميعًا نتطلع لنكون جزءًا منه قريبًا. لم يمض وقت طويل حتى نودي على قطارنا، وهو قطار مؤقت تم تخصيصه لنقل الركاب من الساحل الجنوبي الغربي إلى قرية آسكوت حيث يقع السباق لذا لم يكن غريبًا أن يكون معظم ركاب ذلك القطار كانوا متجهين نحو ذلك السباق. اتخذت لنفسي كرسيًا يقع على طاولة بجوار النافذة بينما أخذ الجميع يملؤون المكان وهو يتبادلون التحايا والضحكات. مضت لحظات قليلة قبل أن تجلس في الكرسي المقابل لكرسيي شابة شقراء لها وجه مليح يستضاء به، وكانت ترتدي فستانًا زهري اللون وتعتمر قبعة دائرية من ذات اللون فأصبحت أشبه بوردة حسناء تجل عن الوصف. افترت شفتاها عن ابتسامة فاتنة تُهت في روعتها ثم أطبقتْهما وانحنت قليلاً لتحيتي فما كان مني إلّا أن سحبت قبعتي إلى الأسفل قليلاً لأرد تحيتها الجميلة، فعلمت أن هذا سيكون أسلوبي في تبادل التحايا في بقية اليوم!

انطلق القطار نحو آسكوت مارًّا ببعض المحطات الصغيرة على الطريق ليقل المزيد من الركاب. نظرت حولي ولوهلة شعرت بأن الزمن عاد بي قرنًا من الزمان إلى الوراء، فالجميع حولي كانوا

يرتدون الملابس الفاخرة القديمة والقبعات الطويلة ويتبادلون التحايا كما يفعل من عاش في عشرينيات القرن المنصرم. كان إحساسًا جميلاً وشعورًا فريدًا وكأن القطار كان يقطع المسافات شاقًّا طريقه إلى الماضي الجميل. مضت ساعة ونصف قبل أن يعلن قائد القطار وصولنا إلى محطة آسكوت، فترجلت منه لأجد الجموع وقد اكتظت في المحطة الصغيرة التي ربما أصبحت ذلك اليوم أكثر محطات إنجلترا ازدحامًا. كان الجميع متأنقًا وسعيدًا وكأنه يوم عيد، ورغم أن حماستي كادت أن تطير بي إلى داخل ساحة السباق إلى أنه تحتم علي انتظار رفيقيّ، محمد و سعد، والذين كانا على متن قطار متجهين إلى آسكوت من قرية قريبة حيث يعيشان هناك. لم يمض وقت طويل حتى لمحتهما من بين جموع الركاب النازلين من أحد القطارات. أشرت بيدي لهما من بعيد فقدما إلي فاتجهنا بعدها مباشرة صوب ساحات السباق. يقع السباق داخل مضمار فسيح يبعد عن محطة القطار بضع دقائق سيرًا على الأقدام والتي قضيناها بالسلام والحديث والتمتع برؤية زوار السباق المتأنقين والسيارات الفارهة المصطفة على طول الطريق. تراءت أمامنا بوابة المضمار وانعطفنا قليلاً صوبها مع بقية الجمع، وبدون أن أشعر تقدمت نحوي سيدة غجرية بشكل خاطف من خلف سياج حديدي وأخذت تغرز في أعلى معطفي وردة حمراء دون أن تتيح لي مهلة للتفكير وهي تؤكد بأنها ستزيد من أناقتي وتكمل من هندامي وقالت بأن ذلك لن يكلفني سوى جنيه واحد! وافقت بلا تردد، إذ كان شكل الوردة جذّابًا وجميلاً خاصة مع لون ربطة عنقي الخضراء، والتي اخترت لها هذا اللون لتعبر عن هويتي السعودية في هذا المحفل الإنجليزي العريق.



السيدة الغجرية تضع الوردة الحمراء على معطفي

يعود تاريخ سباق آسكوت الملكي إلى عام 1711م ويمتد لخمسة أيام متتالية في شهر يونيو من كل عام وسريعًا تم اعتباره أهم سباقات الخيول في أوروبا ومنطلقًا سنويًا للحياة الاجتماعية العامة في بريطانيا إذ تحضره الملكة وأفراد عائلتها بالإضافة إلى ضيوفها من العوائل الملكية حول العالم. لذا يعتبره الكثيرون اليوم أكثر التجمعات برستيجًا وفخامة في العالم أجمع فضلاً عن كونه استعراضًا سنويًا للأزياء

والموضة، لذا يغطي الإعلام الأحاديث الاجتماعية وصرعات الموضة في الحفل أكثر من تغطيته لسباقات الخيول ذاتها!

دخلنا مقر السباق عبر بوابات صغيرة بدت وكأنها أكثر من حاجز مكاني، بل خُيِّل لي أننا انتقلنا بعبورها إلى الماضي حيث أشرفنا على المضمار الضخم الذي تمتد على جنباته ساحات خضراء بديعة تحوي مطاعم ومقاهٍ صغيرة متناثرة بينما تنتشر فيها المنحوتات الفنية التي تُمثِّل خيولاً وفرساناً. كان الجميع في أوج أناقتهم، فالرجال يعتمرون القبعات السوداء الطويلة والنساء يتزيَّن بفساتينهن الملونة وقبعاتهن متعددة الأشكال. ما رأيته كان أقرب للحلم منه للحقيقة بالنسبة لي، فلطالما منيّت نفسي بتجربة حياة الماضي البريطاني التليد والذي كانت فيه بريطانيا سيدة الدنيا وصاحبة المجد الإمبريالي الهائل. لذا قررت عيش التجربة كاملة!



جانب من مرتادي الحفل يتاولون النبيذ والمأكولات الخفيفة في إحدى ساحات السباق

تقدمت أنا وصحبي نجول المكان ونستكشفه، كان الجميع سعداء ويتبادلون الضحكات والتحايا بالأساليب القديمة، وبما أنني قررت عيش التجربة كاملة، رأيت أن ألا أكون بدعًا من القوم! لذا ما إن سرنا قليلاً حتى مررنا بثلاث فتيات يرتدين الفساتين الفضفاضة والقبعات المزركشة فسحبت قبعتي وهززت رأسي بهدوء وأنا أنظر إليهن محييًا، وما أن فعلت ذلك حتى توقفن ورفعن جوانب فساتينهن بهدوء ونزلن بأجسادهن إلى الأسفل قليلاً ليردن تحيتي والابتسامة تعلو وجوههن.

كان شعورًا جميلاً بحق إذ عزز شعوري بذاتي الأرستقراطية! ظللت أسير على حالي تلك، حتى ما كنت أمر على فتاة إلّا وتجثو أمامي ردًّا لتحيتي مما جعلني أحس بأنني نحلة متجولة تنحني عند مرورها الأزهار!

لم يكن صاحباي على وفاق معي بهذا الشأن وبدت عليهما الكراهة، ربما لكوني الأعزب الوحيد بينهما، وربما الأكثر «عيشًا للجو»، لذا قررا أنه ليس من اللائق أن أفعل ذلك فخضعت لرغبتهما وأكملنا جولتنا الاستكشافية للمكان الكبير. كان الناس في كل مكان، وكانت المطاعم والمقاهي مكتظة بهم، حتى الساحات الخضراء امتلأت بالطاولات والكراسي التي اتخذها الزوار مكانًا للشرب وتبادل الأحاديث. لاحظت بعض الرجال يكتفون بمسك طرف قبعاتهم وإنزالها قليلاً عن التحايا بينما يفضل آخرون رفع القبعة تمامًا وهذا فيها احتفاء أكبر بالشخص الملقى عليه التحية، ويعود أصل هذه التحية إلى القرون الوسطى حيث كان الفرسان يعتمرون الخوذات الحديدية التي تغطي وجوههم وعندما يقابل الفرد منهم شخصًا يعرفه فإنه يقوم برفع خوذته حتى يتمكن الشخص من التعرف عليه والاطمئنان إليه. والأمر ذاته قد ينطبق على أصل التحية باليد اليمنى، إذ يقال بأن أصل هذه التحية يعود لكون الناس في القديم كانوا يحملون أسلحتهم على جوانبهم اليسرى ليتمكنوا من سحبها بسهولة وسرعة باليد اليمنى ليقاتلوا فيها، لذا كان الواحد منهم يمد يده اليمنى إلى الآخرين وكأنه يخبرهم بأنه مسالم وأن يده خالية من السلاح.



بزي آسكوت المتكامل

قررنا التوجه نحو مضمار سباق الخيول نفسه والذي يقع على طرف قصيٍّ من المكان. سلكنا ممرًا بين الساحات وما إن شارفنا عليه حتى رأيت الفتاة الحسناء التي جلست أمامي في القطار تسير برفقة شاب بدا وكأنه صديقها إذا كانت تتعلق بذراعه. ترددت في إلقاء التحية عليها احترامًا لرغبة صاحبيّ وفي ذات الوقت لم يكن من اللائق تجاهلها، فاتخذت حلاً وسطًا بالاكتفاء بالتلويح لها بيدي. لكن ما إن اقتربت مني حتى سحبت يدها من ذراع صديقها وانحنت لي وهي تنزل بجسدها قليلاً رافعة شيئًا من ردائها الزهري البديع، شعرت بأن وردة من السماء تركع أمامي فقمت برفع قبعتي تمامًا ردًّا لتحيتها الجميلة التي كادت أن تخطف قلبي. سارت في طريقها بعدما تبادلنا الابتسامات دون أن نهمس ببنت شفة بينما أخذ صاحبيّ ينظران إلي مبتسمين وتعلوهما مسحة تعجب.

«ماذا؟!» سألتهما مبتسمًا، «هي مجرد فتاة التقيتها في القطار هذا الصباح!»

اتجهنا صوب المضمار وأنا أتفكر بالعلاقات العابرة جدًا كعلاقتي مع هذه الفتاة، فمنذ رأيتها هذا الصباح حتى حييتها قبل قليل لم ينطق أي منا بأي كلمة للآخر، كل ما في الأمر هو أنه شعور إنساني غريب جميل ينشأ بيننا وبين بعض الأشخاص الذي نشاركهم شيئًا معينًا لفترة معينة. تمامًا كالشعور الذي ينشأ بين شخص يسافر وحده بالسيارة وبين سائق آخر لا يعرفه، فتجدهما يسيران بالقرب من بعضهما ويشعران بالراحة بذلك. جربت هذا الشعور مرارًا عندما أقرأ في مكتبة عامة أو أتمرن في النادي الرياضي أو أكتب في مقهى،

فعند ذهابي كل يوم أقابل أشخاصًا لا أعرفهم لكن بمرور الوقت أشعر بالاطمئنان عندما أراهم وربما أقلق قليلاً عندما أذهب ولا أجدهم رغم أنه لا تجمعنا معرفة بل ولم نتبادل أية أحاديث، وقد قالت العرب في الماضي: «لو أنّ إنسانًا رُبط مع أسد ثلاثة أيام لاستأنس به»!



مع سيدة مشهورة باعتمارها للقبعات العجيبة في سباقات آسكوت

***

لم يمض الكثير من الوقت حتى بدا لنا المضمار الذي تمتد أمامه ساحة خضراء زاخرة بالزوار الذي جلسوا فيها على الأرض فوق أبسطة خفيفة ويتناولون النبيذ والفطائر الصغيرة التي تحملها سلال النزهة الخشبية. اقتربنا أكثر نحو سياج المضمار ونحن نمتع أنفسنا بالنظر إلى اللوحة الفنية المتحركة التي كنا وسطها. توقفنا لشراء بعض المشروبات الباردة والتقاط بعض الصور والتحدث مع بعض الزوار والنظر في الشاشات الكبيرة التي تعرض لقطات مباشرة لمقابلات مع الزوار خاصة الفتيات ذوات القبعات الغريبة العجيبة. لم يمض الكثير قبل أن يُعلن عن قرب وصول الملكة وأفراد العائلة المالكة البريطانية إلى مقر الحفل. أسرع الناس للاصطفاف على جانب السياج انتظارًا لمقدم ملكتهم بينما أخذت الشاشات الكبيرة تعرض صورًا حية لعربة الملكة الفاخرة التي تجرها الخيول الإنجليزية ضخمة الحجم وهي تتقدم من خلف الأشجار البعيدة. ما إن بدت العربة الملكية من أول الأفق حتى هتف الناس وتصايحوا ببهجة هائلة وأخذوا يلوحون بأيديهم للملكة إليزابيث الثانية وزوجها الأمير فيليب، مرت عدة دقائق قبل أن تجتاز عربة الملكة السياج من أمامنا متجهة صوب مركز الحفل، رفع الرجال قبعاتهم ولوحت النساء بأيديهن بينما أخذت صيحاتهم تتعالى أكثر فأكثر كلما مرت الملكة أمام مجموعة من الكتل البشرية التي تحييها، ردت الملكة على هتافات الناس بتلويحتها الملكية الشهيرة وهي ترسم على شفتيها ابتسامة وديعة.



الزوار يلوحون بأيديهم لتحية الملكة إليزابيث وزوجها الأمير فيليب عند وصولهما لمقر السباق

كنت قد حضرت احتفال الملكة بعيد ميلادها قبل ذلك اليوم بنحو أسبوع، ولم يكن احتفاء الناس بملكتهم هذه المرة مختلفًا، إلا أن أزياء الزوار وقبعاتهم هنا أضفت على الحدث بُعْدًا آخر، خاصة وأن معظمهم من البريطانيين بينما يعج احتفال الملكة بعيد ميلادها بالسياح الأجانب. توقفت عربة الملكة في ساحة صغيرة وترجلت الملكة وزوجها من العربة لتحيي مستقبليها الذين رفع الرجال منهم قبعاتهم بينما أخذت النساء تنحنين أمامهما كلما مرت عليهن، فتذكرت حالي

مع انحناء الفتيات لي ذلك الصباح وحدثت نفسي بنشوة : «مفيش حد أحسن من حد يا جلالتك!». كانت الملكة ترتدي فستانًا أخضر اللون (أو فيروزيًا كما تسميه الإناث!) واعتبر ذلك اللون حينها لونًا من ألوان الموضة البريطانية ذلك العام، ففي حين يتعبر هذا الحفل افتتاحًا للحياة الاجتماعية العامة في بريطانيا، يعتبر الكثير من الناس هناك أن الملكة تضع الخطوط العريضة للموضة السنوية بارتدائها زيًا مختلفًا كل سنة في هذا الحفل. ومن الطرائف أن الملكة إليزابيث ظهرت على غلاف مجلة التايم الأمريكية عندما كانت أميرة في الثالثة من عمرها باعتبارها سيدة أزياء الأطفال حينها!

توالت العربات التي تقل أفراد العائلة المالكة بالتوافد، الأمير تشارلز وزوجته كاميلا وابناه الأمراء وليام وهاري، وباقي أبناء الملكة وأحفادها وأقاربها. انتظرت من خلف السياج حتى ترجلت من عربتها الأميرة بياترس، أميرة يورك (وهي التي اشتهرت لاحقًا بقبعتها القرمزية عجيبة الشكل في زواج الأمير وليام) برفقة أختها الصغرى الأميرة إيوجين. تُصنّف الأميرة بياترس باعتبارها الخامسة بتريب وراثة العرش البريطاني إذ لا يسبقها في الترتيب سوى الأمير تشارلز وابناه ووالدها. ما إن اقتربت الأميرة حتى هتف الناس لتحيتها وأختها بينما أخذت الأميرات يلوحن لهم والضحكات تعلوهن. رفعت، بدوري، قبعتي هاتفًا باسم الأميرة بياترس لعلها تنظر إلي وتميزني، ففي الصيف الذي سبق ذلك اليوم كنت زميلاً للأميرة في جامعة لندن، إذ درسنا سويًا تاريخ الفنون الأوروبية المعاصرة في جامعة لندن. في الواقع، لا أظن أن الأميرة تعرفني بل ربما لم تلاحظ وجودي قط في قاعة الدراسة. كل ما في الأمر أنني هتفت باسمها نكاية بصاحبيّ

الذين منعوني من إلقاء التحايا على الفتيات فأردت فعل ذلك وكأني أخبرهم بأنكم إن منعتموني من الفتيات العاديات فإنني سألتجئ للأميرات!

احتلت الملكة وأفراد العائلة المالكة أماكنهم وبدأت السباقات وراحت حوافر الخيول تهز الأرض من تحتنا وهي تتسابق نحو الفوز والظفر بجوائز الحفل واصطف الناس أمام أكشاك المراهنة بينما وجدنا نحن الفرصة سانحة للذهاب والتمتع بتناول شاي ما بعد الظهيرة، وهو تقليد إنجليزي شهير يتمثل بشرب الشاي بالحليب وتناول شطائر التونة والخيار وغيرها بالإضافة إلى السّكون وهو ضرب من الحلويات بين الخبز والكعك ويحوي زبيبًا ويؤكل بقطع قطعة السكون من المنتصف ومسح أعلاها بمربى الفراولة والكريمة. يعتبر السكون هذا أشهر الحلويات الإنجليزية، ولا يزال الخلاف قائمًا حول موطنه الأصلي في إنجلترا، ولقد اطلعت مرة على نقاشات لعدة أيام في بعض الصحف البريطانية يدعي فيها أفراد بعض المناطق أنها ابتكرت عندهم، بينما يعارضهم آخرون ويدعون أنهم أول من أوجدها. بالإمكان اعتبار السكون حالة استثنائية بين أطباق الطعام الإنجليزية باعتباره إنجليزيًا صرفًا بينما ترجع أصول معظم الأطباق الأخرى إلى الخارج. فالبريطانيون في تاريخهم لم يتفننوا بابتكار أنواع الطعام بل اكتفوا بما يسد جوعهم من أطباق لا تنم عن إبداع، لذا جلبوا من الخارج أطباقًا عديدة وعدلوها وأضافوا عليها لتصبح خاصة بهم. في الواقع أن معظم ما نطلق عليه «طعامًا هنديًا» اليوم تم تحضيره أساسًا في بريطانيا وليس في الهند، فطبق دجاج مسالا، مثلاً، كان عبارة عن طبق من الدجاج المتبل الجاف الذي جلبه البريطانيون

من بنغلاديش، باعتبارها جزءًا من الهند البريطانية في القرن التاسع عشر، وأضافوا عليه الصلصة والمرق وبعض البهارات ليصبح بالصورة الذي هو عليها اليوم. الظريف أن وزير الخارجية البريطاني الراحل روبين كوك وصف دجاج مسالا بكونه «يمثل الثقافة البريطانية، بحيث أننا، البريطانيون، نأخذ أفضل ما عند الشعوب ونعدله لنعيد نشره في العالم بشكل أفضل!».



الملكة إليزابيث تمارس هوايتها المفضلة بالإطلاع على الخيول في سباق آسكوت الملكي

تناولنا الشاي والشطائر وارتحنا قليلاً قبل أن نذهب لنرى الملكة تتطلع على بعض الخيول وتتحدث إلى أصحابها. قضينا باقي النهار بالاسترخاء والتعرف على بعض الزوار الذين كانوا يبدون إعجابهم ما إن أخبرناهم أننا سعوديون لذا كنا مصدر سعادة للعديد منهم الذين طلبوا التصوير معنا وكأننا معالم سياحية. انقضى النهار

وخرجنا متجهين صوب محطة القطار وكأن الزمن بدأ بالعودة إلى الحاضر. ودعت صاحبيّ وشكرتهما على حسن رفقتهما قبل أن آخذ مكاني في مرتبة أمام طاولة في القطار المتجه إلى بورنموث. أخذت أتفكر بجمال ذلك اليوم وأنا أحمد الله على أن يسر لي سبحانه خوض تلك التجربة المختلفة. قطع تفكيري صوت رجل كبير في السن يسألني إن كانت المراتب أمامي في الطاولة خاوية، أخبرته بأنها كذلك فجلس على أحدها ووضع باقة ورد كان يحملها على المرتبة الأخرى. كان هو الآخر متأنقًا ويعتمر قبعة يظهر من أسفلها شعر رأسه الأشيب، وكان قطار الزمن قد حفر طرقاته في وجهه ويديه وكأن له في كل منها قصة وحكاية. أخذ ينظر إلى خارج النافذة عندما انطلق القطار وهو يربت بيده على باقة الورد. على الرغم من كونه كان مبتسمًا إلّا أن مسحة حزن كانت واضحة على محياه، لذا شدني الفضول لأفحص جلية أمره.

سألته:

- كيف كان يومك في يا سيدي؟

التفت نحوي مبتسمًا وقال بهدوء:

- ليس بذلك السوء، لم أفز إلا بمراهنة واحدة!

- هذا في الواقع أمر جميل، فالروعة بالتجربة كما تعلم»، ثم أضفت بعد لحظة صمت:

- هل كنت لوحدك؟

نظر إلي لعدة لحظات دون أن يتحدث ثم التفت نحو باقة الزهور وقال:

- لو سألتني هذا السؤال في أي وقت خلال الثلاثين سنة الماضية لأجبتك بلا» ثم التفت إلي وابتسامته تخبو شيئًا فشيئًا:

- لأول مرة منذ ثلاثين سنة آتي لسباق آسكوت دون زوجتي. فقدتها فجأة قبل عدة أشهر» قال ذلك قبل أن يتوقف لأخذ نفس عميق وتابع:» كانت مغرمة بالخيول، لذا كنت أجلبها إلى هنا كل سنة. اليوم أتيت وحدي إلى الحفل حاملاً معي الورد الذي تحبه»

أخذ الرجل المسنّ باقة الورد من المرتبة المجاورة وحملها بحضنه وأضاف:

- سأذهب اليوم إلى قبرها لأضع الباقة عليه» وأضاف وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «فلا أريد أن أحرمها مما تحب حتى وإن لم تكن على قيد الحياة!» .

راح يمسح دموعه المتناثره وهو يحاول استعادة ابتسامته وكأنه يخشى أن يثير شفقتي.

نظرت إليه وقد ثارت عواطفي وتأججت مشاعري وأشفقت لحاله، فمنذ ذلك الصباح كنت أستشعر كل ماهو قديم، أزياء وقبعات وخيول وعربات ومباني، لكنني نظرت إلى الرجل حينها مستشعرًا ما

هو أعظم وأجمل من هذا كله؛ حب عذري قديم، خلت أنني لن أجده إلّا في روايات القدماء وقصائد العشاق الأسطوريين!

المتحوّلون

القطار الليلي الدولي بين فيينا، النمسا، والبندقية، إيطاليا.
صيف 2009.

قرأت في مطلع صباي كتابًا مثيرًا لا أتذكّر عنوانه ولا اسم مؤلفه. الذي أتذكره جيدًا، بل ظل عالقًا في مخيلتي لسنين عديدة، هو أن الكاتب سافر من النمسا إلى إيطاليا على متن قطار ليلي يبيت فيه المسافرون على سرر متقابلة وليس على مراتب كما هو المعتاد. أثارني الموضوع وقتها كثيرًا وطار بخيالاتي بعيدًا، إذ عجبتُ من وجود قطار ينام فيه الناس على سرر بينما يجوب السكك قاطعًا المسافات بين المدن والبلدان! وأنا الذي لم أركب أي قطار حينها، فضلاً عن أن أنام فيه وأبيت! لذا لم تكن مصادفة أن حرصت على تجربة السفر على قطار كهذا في أول سفرة يسرها الله لي وحيدًا.

***

ترجّلت من قطار صباحي في محطة قطار غرب فيينا قادمًا من براغ، عاصمة جمهورية التشيك، والتي قضيت فيها وفي ضواحيها عدة أيام. لم تكن المحطة تبعد كثيرًا عن الهوستل الذي حجزت فيه سريرًا لعدة ليال، لذا لم أحتج إلا لبضع دقائق حتى وصلت إليه. كان الهوستل

منمقًا ومزيَنًا بديكور حداثي يطغى عليه اللونان الأصفر والأزرق، وهو فرع لسلسة هوستلات شهيرة تغطي النمسا وألمانيا. سجلت دخولي وزودتني عاملة الاستقبال ببطاقة الدخول إلى الغرفة وبعض الفرش والأغطية البيضاء، إذ يقوم النزيل بترتيب سريره بنفسه حتى يوفّر الهوستل نفقات عاملي التنظيف وبالتالي تَقِّل أجرة الليلة فيه. كانت الغرفة التي وُضعت بها مكونة من ستة سرر وواقعة في الطابق الثاني، ولما دخلتها وجدت خمسة فتيان يوضبون أغراضهم فألقيت عليهم التحية قبل أن أضع أمتعتي على السرير الخاوي الوحيد وشرعت بترتيبه وصف الأغطية عليه. ما إن قمت بذلك حتى تقدم نحوي أحد الفتيان مرحبًا تعلوه ابتسامة، فصافحته وعرّف بنفسه بأنه من المكسيك واسمه قيصر، أو تشيزار كما يُنطق بالإسبانية. تبعه صحبه الذين سّلموا عليّ معرفين بأنفسهم.

باستثناء أشكالهم، كانوا جميعًا متشابهين في كل شيء تقريبًا. إذ كانوا جميعًا من المكسيك ويدرسون سويًا ويسافرون معًا وأعمارهم جميعًا في السابعة عشر. لم تُستثنى أسماؤهم كذلك من هذا التشابه إذ كان اثنان منهم يحملون اسم قيصر، والثلاثة الآخرون يحملون اسم ألفونسو. ابتسمت وقلت لهم بأن أسماءهم ملكية، إذ كانت تلك من أسماء الملوك الأوروبيين في الماضي، وأخبرتهم أنني - لكي أفرّق بينهم - سأطلق عليهم أسماء كما كان أولئك الملوك يسمون أنفسهم، فأسميتهم قيصر الأول وقيصر الثاني وألفونسو الأول وألفونسو الثاني وألفونسو الثالث وأطلقت على شلتهم لقب «شلة الملوك» فأعجبهم ذلك وضحكوا كثيرًا. كانوا جميعًا من عرق الميستزو، وهو عرق هجين نشأ من تزاوج الأوربيين الغزاة، خاصة الإسبان، من سكان القارتين

الأمريكيتين الأصليين وهو الغالب الآن على سكان أمريكا اللاتينية. عرّفت بنفسي لهم ولمّا ذكرت أنني من السعودية قال لي قيصر الأول بسرعة:

«أنت من الرياض؟!»

توقفت لبرهة متعجبًا كيف لفتى مكسيكي في السابعة عشر من عمره أن يعرف السعودية، فكيف له أن يعرف الرياض!

أجبته والدهشة تعلو محياي:

«نعم أنا من الرياض! لكن كيف سمعت بهذه المدينة؟»

قال رافعًا رأسه وكأنه يحاول استرجاع معلومة:

«لأن الرياض تحوي مبنى هرمي طويل تعلوه كرة زجاجية ضخمة اسمه...آآآ.. ممم... مم...فصص..فوصص...» «فيصلية!» أتممت كلامه وكلي دهشة «تقصد برج الفيصلية؟!!»

جاوبني وهو يشير إليّ بإصبعه فرحًا:

«نعم نعم! الفيصلية! أنا مغرم بذلك البرج يا رجل! أحتفظ بعشرات الصور له وأتمنى أن أزوره يومًا!» تابع حديثه والحماسة بادية عليه: «في الواقع إنني، من شدة إعجابي بالمبنى، عازم على دراسة العمارة في كلية للعمارة في لندن تخرّج منها مهندس شارك في تصميم برج الفيصلية!»

أبديت إعجابي بما قال ولم أُخفِ عليه دهشتي بأن أحدًا ما خلف البحار يبدي اهتمامًا بفن العمارة في بلادي. أخذوا بعد ذلك يحدثوني عن أنفسهم، فعلمتُ أنهم من طبقة أبناء التجار، وهذا ما قد يُفسِّر قدرتهم على تحمل تكاليف السفر في سن مبكرة، وأنهم يدرسون في مدارس خاصة، وهذا ما قد يُفسِّر تمكنهم من اللغة الإنجليزية، وإن كان قيصر الأول أكثرهم تمكنًا منها.

تبادلنا بعد ذلك أحاديث السفر وزودوني بمقترحات متعلقة بفيينا والأماكن التي تستحق الزيارة فيها، إذ كانوا قد وصلوا المدينة قبلي بيومين وتجولوا فيها. أخبروني بأنهم سيقضون عدة أيام إضافية ثم يغادرون إلى وجهة لم يحددوها بعد، إذ كانوا من طراز أولئك المسافرين الشباب الرحالة الذين يكثر وجودهم في الهوستلات والذين تتسم خطط سفرهم بمرونة كبيرة تتيح لهم التمتع بما تفرضه عليهم لحظات السفر. قلت لهم بأنني سأغادر إلى البندقية في إيطاليا بعد ثلاثة أيام على متن قطار ليلي واقترحت عليهم ذات الخطة، فوعدوني بأن يتشاوروا حيالها.

تركني الفتيان لأرتب أمتعتي وأنا سعيد بصحبتي الجديدة تلك، ولم أزل متعجبًا من قصة ذلك الفتى مع برج الفيصلية!

بعد أيام قضيتها في فيينا، مستكشفًا قصورها البهية ومتاحفها الثرية، ومستمتعًا بحدائقها البديعة ومتذوّقًا لحلوياتها الشهيرة، جلست في إحدى الأمسيات أحادث شلة الملوك التي اتخذت قرارًا يقضي بمرافقتي إلى البندقية واتفقنا على أن نبكّر بالاستيقاظ في صباح اليوم التالي لكي نشتري تذاكر السفر على متن القطار الليلي.

قضينا معظم المساء نتبادل القصص ونستعرض الصور حتى قربت الساعة إلى العاشرة مساء. عندها قال أحدهم بأن عليهم أن يستعدوا لسهرة الليلة، إذ كانت هذه آخر ليلة لهم في فيينا وأرادوا توديعها بالذهاب إلى إحدى النوادي الليلية للرقص والشرب. دعوني للانضمام إليهم واعتذرت بطبيعة الحال فلم يُلحّوا علي إدراكًا منهم بأن ذلك لا يتماشى مع معتقداتي الدينية الإسلامية. استفسرت منهم عن كيفية دخولهم للنوادي الليلية وهم دون الثامنة عشر، إذ يمنع القانون ذلك!

«بطاقات هوية مزورة يا عبدالله!» قال أحدهم ذلك بمرح، ولما سألته عن مصدرها ضحك وأجاب:

«أنت مسلم متديّن ولست بحاجةٍ إلى معرفة أمورٍ كهذه!»

ضحكت وشكرته ثم تركتهم يستحمون ويتجهزون لليلتهم الليلاء بينما رحت أكتب مذكراتي وأقرأ في كتاب كان في حوزتي. ولمّا أشارت الساعة إلى الحادية عشر ودعوّني على أن نخرج مبكرًا صباح الغد إلى المحطة لشراء تذاكر القطار. أطفأتُ الإضاءة وارتخيت في سريري بعدما خرجت شلة الملوك لتأنس بليلتها، بينما ظللت وحيدًا مكتفيًا بسماع أغنية أسمهان الشهيرة «ليالي الأنس في فيينا».

***

استنهضت نفسي مبكرًا صباح اليوم التالي، ولما فَرِغتُ من طقوس الاستيقاظ رجت أستطلع أمر الفتيان الخمسة فوجدتهم مضطجعين على سررهم وقد غاصوا في الفرش وما كاد يبين غير

وجوههم وشيء من سيقانهم العارية. كان واضحًا أنهم لم يناموا إلّا متأخرين، فرأيت عدم إيقاظهم والاتجاه إلى محطة القطار لشراء تذكرتي وحدي. لم يكن القطار لينطلق قبل التاسعة إلا ثلثًا من مساء ذلك اليوم، لذا كانت لديهم وفرة من الوقت لشراء التذاكر في بقية النهار.

اشتريت تذكرة القطار الليلي المتجه من فيينا إلى البندقية واختارت لي بائعة التذاكر في محطة القطار سريرًا في غرفة تحوي ستة سرر. وعلى الرغم بأن البائعة أخبرتني بأن الغرفة جيّدة وتقع في وسط إحدى عربات القطار، إلّا أنني ندمت حينها لأنني لم أوقظ شلة الملوك إذ كان بإمكاننا أن نحتل سويًا غرفة كاملة تسعنا جميعًا. قلت لنفسي أنه لعل في الأمر خيرة ولم أعبأ كثيرًا للأمر. قضيت ما فَضُل من نهاري ذاك في زيارة ما تبقى لي من معالم مدينة فيينا الجميلة. بعد عدة ساعات قادني القدر إلى مهرجان كبير للأكلات العالمية في ساحة البلدية وكان ذلك خلاصًا لي إذ كنت أتضور جوعًا لأنني خشيت التوقف للأكل فيضيق عليّ الوقت فلا يسعني زيارة بقية مزارات المدينة. وبينما كنت أتناول طعامًا مكسيكيًا لمحت قيصر الثاني وألفونسو الثالث من بعيد فأشرت بيدي ناحيتهم فقدموا وكأنهم مكرهون فعجبت لهذا وقلت لنفسي لعلهم تضايقوا مني لأنهمٍ ظنّوا أنني لم أوفِ بوعدي بشراء تذاكر القطار معهم! تحدثنا قليلاً رغم ذلك وأخبروني بأن بقية الفتيان في أحد المتاحف يتذوقون الفن، بينما آثروا هم القدوم إلى هنا لتذوق الطعام! أشار أحدهم إلى طبقي وسألني:

«ما هذا الذي تأكله؟!»

قلت مستغربًا:

«ظننت أنك تعرفه، هذا طعام مكسيكي!»

فهزّ رأسه وقال:

«لا لا، هذا ما يسميه الأمريكيون طعامًا مكسيكيًا فأنا لم أر مثله قط من قبل!»

ابتسمت وودعتهما على أمل أن نلتقي على متن القطار بعد نحو ساعتين. أكملت طعامي مجهول الهوية وأنا أتفكر بما ذكره الفتى مستذكرًا كيف أن الأمريكان يسوّقون في العالم أطباقًا من صنعهم على أنهم من وصفات شعوب أخرى، فمثلاً البيتزا التي توسم بالإيطالية التي يأكلها الناس حول العالم في مطاعم بيتزا هت ودومينز بيتزا ليست بتلك التي يسميها الطليّان بيتزا. بل هي ضرب من الطعام ابتُكر في نيويورك في مطلع القرن العشرين. تمامًا كما أنه لا يطلق المكسيكيون على الطبق الذي كنت أتناوله طبقًا مكسيكيًا!

مر الوقت سريعًا ووجدت نفسي أضع حقيبة ظهري على السرير العلوي في الغرفة داخل القطار. كانت الغرفة تحتوي، كما أسلفت، على ستة سرر موزعة على مجموعتين من ثلاث طوابق يتوسطها سلم صغير مثبت بالحائط الذي يحوي نافذة واسعة. لم تسع الدنيا سعادتي حينها، فأنا كنت على أعتاب تحقيق أمنية صغيرة من أمنيات الصبا

ظللت أحدث بها نفسي منذ زمن بعيد، فحمدت الله على نعمه وشكرته على فضله. كنت قد وصلت مبكرًا إلى القطار من فرط حماستي، لذا كنت وحدي بالقاطرة لنحو نصف ساعة حتى بدأ الركاب بالقدوم. اضطجعت على سريري وأنا أرقب المارة من النافذة وأتساءل أي منهم سيكون رفيق سفري وزميلي في الغرفة. لم يطل انتظاري حتى دخل عليّ شاب إيطالي ظريف ممتلئ البدن في بداية الثلاثينات من عمره احتل السرير العلوي المقابل لسريري. كانت لغته الإنجليزية متواضعة لكنه يستعيض عنها بكلمات إيطالية يقحمها بين الكلمات الإنجليزية القليلة التي يعرفها معتمدًا على ذكاء المستمع وفطنته في استنتاج ما يريد قوله. فهمت أنه مسافر إلى البندقية للقاء محبوبته التي شغفها حباً، ولا أظنه إلّا كاذبًا إذ ما لبث أن دخلت علينا مجموعة من أربعة فتيات أسبانيات جلسن على السرر الأربعة المتبقية، وإذا به يمسح كفّيه ببعضهما وكأنه بصدد التهام طريدة ثم أخذ يغمز بإحدى عينيه ويشير بإصبعين ويقول هامسًا: «اثنتانٍ اثنتان» وكان يقصد أننا سنتقاسم الفتيات بحيث يحظى هو باثنتين وأحظى أنا باثنتين! هززت رأسي «مُسلِّكًا» له وأخذت أكمل مشاهدتي عبر النافذة للمسافرين الذين أخذوا بالتقاطر على القطار من كل صوب.

مرت دقيقة أو اثنتان حتى رأيت شلة الملوك يحملون حقائبهم على ظهورهم ويتجهون نحو القاطرة التي تلي قاطرتنا مباشرة. شعرت ببعض الارتياح لكونهم وصلوا القطار لأنني خشيت أن يختلط عليهم الأمر إذ كان هناك قطار آخر ينطلق في ذات الوقت ويتجه إلى ذات الوجهة، البندقية، لكن إلى محطة تقع في ضواحيها بينما كان قطارنا سيتجه إلى محطتها الرئيسة. انتظرت قليلاً ثم ذهبت للسلام

عليهم سالكًا الجسر المتحرك الصغير الذي يربط بين قاطرتينا. ما إن وصلت الممر الذي تقع عليه الغرف في قاطرتهم حتى رأيتهم جميعًا خارج إحدى الغرف يتحادثون. ألقيت عليهم تحية حارة ولكنهم قابلوها ببرود شديد. تيقّنت حينها من صدق ظني بأنهم قد حملوا علي لأنني لم أوقظهم كما كان اتفاقنا. ولأنني لم أرد أن أنهي علاقة جميلة كنت قد سعدت بإنشائها، أخذت أسألهم عن ليلتهم البارحة وما إن أخذوا كفايتهم من النوم أم لا. إلّا أنني ما تلقيت منهم إلّا إجابات مقتضبة، إذ كانوا يتحادثون مع أنفسهم بالإسبانية ووجوههم متجهمة يظهر عليها غم شديد. لم أكن أعلم أن صداقتي لهم كانت على ذلك القدر من الأهمية، أو هكذا فكرت! إذ لماذا يكدرون أنفسهم كل هذا الكدر لأجل شاب تعرفوا عليه قبل أيام؟!! شعرت بخجل وتأنيب ضمير شديدين وندمت كثيرًا لأنني لم أوقظهم لشراء التذاكر خاصة وأنني أنا من اقترح عليهم مرافقتي. استمروا بالحديث بالإسبانية دون أن ينظروا إليّ، بل كانوا ينظرون إلى داخل غرفتهم باستمرار! دفعني الفضول لاستجلاء أمر تحديقهم العجيب على داخل الغرفة، فقررت إلقاء نظرة!

طلّيت برأسي على الغرفة الصغيرة وألقيت داخلها نظرة ما ندمت على نظرة مثلها قط! اتضح حينها كل شيء، لم يكن الفتيان غاضبين مني البتة، بل كانوا جزعين مما رأوه يتربع داخل غرفتهم. حبست أنفاسي وأنا أتطلّع إلى ذلك المنظر الذي ما رأيت مثل قبحه أبدًا، وأدركت بأن من رأى ذلك لا يغضب ممن التقاهم بالسفر فحسب، بل يتعدى ذلك إلى الغضب على الجنس البشري ككل!

كان إنسانًا بشعًا أشد البشاعة، مُنكَر الخلق لا يستبين المرء جنسه من أول وهلة، فلا هو بذكر ولا هو بأنثى! كان له شعر طويل مصبوغ بلون يزيد صاحبه قبحًا، وله صدر ضخم كأنه أترجّة إلّا أنه يتمايل كما تتمايل حلوى الجلي، ويضع على وجهه مساحيق ملونة كثيرة ويرتدي قميصًا أسودَ ضيقًا يظهر تعرجات جسده السمين وبنطالاً لماعًا على لون جلد النمر. وفضلاً عن ذلك كله، كان يرمق الفتيان بنظرات عجيبة وحادة ويخرج لسانه النتن ليلعق شفتيه وكأنه ينظر إلى طبق شهي! استقبحت المنظر وما وسعني البقاء، فتركت الفتيان وشأنهم بعدما لم تتلق نظراتي المتسائلة جوابًا منهم. اتجهت سريعًا نحو غرفتي مشدوهًا مما رأيت وصعدت إلى سريري أنظر في الفتيات الإسبانيات بلا وعي، وكأنني أعوّض برؤية جمالهنَّ القبحَ الذي سيطر على مخيلتي!

لم أر فيما مضى علي من الدهر أبشع مما رأيت ولا أقبح مما شاهدت حينها. كان من الواضح أن ما رأيته لم يكن رجلاً ولا امرأة بل كان كلاهما! كان رجلاً حوّل نفسه إلي امرأة، بل إلى مسخ!

انطلق القطار خارجًا من محطته متجهًا جنوبًا نحو الحدود الإيطالية بينما هدأ روعي وأخذت أفكر في مصير شلة الملوك مع ذلك المخلوق العجيب الذي يقبع داخل غرفتهم. حدثّت نفسي بأن علي أن أذهب لأساعدهم وأقف معهم في محنتهم، إلّا أنني خشيت أن يكونوا فعلاً غاضبين مني كارهين لي بعدما ظنوا أنني لم أوف بعهدي الصغير معهم. قطع تفكيري صوت ألفونسو الثاني وهو ينادي في الممر: «عبد الله! عبد الله!» هرعت من سريري ونزلت إليه لأجده يبحث عني.

«نحتاج مساعدتك!» قال لي ذلك وهو يمسك بيدي ساحبًا إياي تجاه قاطرتهم بسرعة.

وصلنا إلى غرفتهم في القاطرة الأخرى وكان الوضع متأزمًا جدًا، فالشباب لا يزالون مصرّين على خروج الرجل المتحوّل من غرفتهم بينما كان هو يضطجع بشكل مستفز على إحدى السرر محدثًا بعض الحركات ومتحدثًا ببعض الكلمات التي تزيد وتيرة الاستفزاز والتقزز على حد سواء. طلب مني ألفونسو الثاني التحدث إليه ومحاولة إقناعه بتغيير سريره. قمت بالتحدث إليه وإخباره بأنني أريد تبديل الأسرّة معه لكي أستطيع النوم في غرفة واحدة مع أصدقائي بينما يستطيع هو النوم في غرفتي لأنه مسافر لوحده ولا يعنيه كثيرًا تغيير الغرف. لكن بطبيعة الحال رفض المتحوّل كافة التوسلات وأصرّ بأنه لن يبرح مكانه لأن ألفونسو الثاني، وهو شاب مليح حسن الصورة، قد وقع في نفسه ويريد أن يمتع ناظريه برؤيته كما يزعم. ما إن صرّح بذلك حتى ثارت ثائرة ألفونسو الثاني وأخذ يتحدث إلى أصحابه بالإسبانية كلامًا لا أدري ما هو ثم طلبوا مني أن نبتعد قليلاً لنتشاور في الأمر. كانت الشلة في مأزق حقيقي، فليس باستطاعتهم إجبار أي راكب، أيًّا كان جنسه، على تغيير سريره فضلاً عن كون القطار مزدحمًا وبالكاد يجد فيه الركاب أماكنهم.

«كم مستعدون أن تدفعوا مقابل التخلّص من هذه المشكلة؟»

سألتُهم هذا السؤال بعد لحظة تفكير، فأجابوا بصوت واحد:

«أي مبلغ! أي شيء!»

وبعد بعض المداولات قررنا التوجه إلى المتحوِّل وتقديم عرض له يتضمن 200 يورو كانت شلة الملوك مستعدة لدفعها مقابل أن يُبادل معي الأسرّة بحيث أنام أنا مع الفتيان بينما ينام هو في غرفتي. ما إن وصلنا الغرفة حتى غشيتنا فرحة مفاجئة إذ لم يكن المتحوِّل هناك! رغم أن حقائبه لا تزال موجودة إلا أننا حاولنا إقناع أنفسنا بأنه اقتنع أخيرًا وراح يبحث عن سرير خاوٍ.

اقترح قيصر الثاني أن ندخل جميعًا ونغلق الباب على أنفسنا، لكن لم تبد تلك كفكرة سديدة إذ يستطيع بسهولة الطلب من مأمور القطار فتح الباب وربما أخذنا إلى خارج القطار ورمينا في إحدى المحطات! فهو راكب في نهاية المطاف وله حقوقه!

قرر بعض أفراد الشلة البحث عنه، فلم يلبثوا أن غابوا لعدة دقائق حتى عادوا والهلع بادٍ عليهم.

«ما الأمر؟ هل وجدتموه؟!»

سألتهم بسرعة فأجاب أحدهم بعدما رمقنا بصمت لعدة لحظات:

«نعم وجدناه! لكن هناك مشكلة!» قال ذلك ثم بلع ريقه وأكمل قائلاً: «لم يكن وحده، بل هناك العديد منهم!»

***

العديد منهم! العديد من المتحولين!! كان واضحًا أن المشكلة

كانت في طريقها إلى تأزم أعظم، فنحن بالفعل بدأنا بالتصادم مع متحوّل واحد فكيف الحال مع أكثر؟! تشاورنا قليلاً وقررنا الإقدام ومواجهة المشكلة عوضًا عن إضاعة الوقت في التردد، فتقدمتُ الشلة واتجهنا نحو الغرفة التي يقبع فيها هؤلاء المتحولون.

كان هناك خمسة منهم! كانوا جميعًا مضطجعين بشكل مقزز على أسرة القطار الضيقة ويلبسون من الملابس ما هو أضيق لتظهر مساوئهم وتعرجات أجسادهم القبيحة. باستثناء المتحول الأول الذي تجاوز عمره الأربعين، كانوا جميعًا في بداية الثلاثينيات من أعمارهم، وكانوا جميعًا قد نفخوا صدورهم لتصبح كصدور الإناث، وملؤوا وجوههم بالمساحيق والألوان حتى غدا الفرد منهم أقرب إلى المسخ منه إلى الإنسان. كان اثنان منهم أسودا البشرة وملامحهم رجولية أكثر من بقيتهم، لكنهم كانا أخس المجموعة وأقلهم مروءة إذ انبرى أحدهم يدافع عن حق صاحبه بالسرير الذي خصص له بل راح يتبجح بملاطفة الفتيان ببعض الكلمات التي لا يسع المرء كتابتها من شدة ما بها من البذاءة والفحش!

وقفت مشدوهًا من الموقف الذي كنت بصدده، لم يكن موقفًا عاديًا البتة، بل أقل ما يمكن وصفه به أنه تجسيد لكلمة «بشاعة»: خمسة متحولين مشوهين شبه عراة يوجهون لي ولصحبتي أفحش الحديث وأنجس الكلام في غرفة داخل قطار ليلي وسط أوروبا! لم يكن ذلك تحديدًا ما كنت أتصوره في طفولتي عندما تمنيت السفر على متن قطار أوروبي ليلي كهذا! تسمرت في مكاني محاولاً الخروج من هذا المأزق وبدأت بالمفاوضات بحيث عرضت المائتي يورو عليهم مقابل

أن يقنعوا صاحبهم، الذي كان صامتًا ويوزع ابتسامات قبيحة كوجهه مستقويًا بمجموعته، بالعدول عن تصلبه والموافقة علًى الخروج من غرفة الشلة. رغم أن الشمس كانت توشك على المغيب إلّا أن ضوءها كان بالكاد يجد له فسحة في غرفة القطار المعتمة تلك. أخذ بعض المتحولين ينظرون إليّ بتغنج ظاهر وهم يتمايلون بأجسادهم كقطط الشوارع وهو يتبادلون العبارات باللغة البرتغالية، إذ كانوا جميعًا من البرازيل، وكأنهم يقولون بأنهم لا يعبأون بما أقول أو بمحاولاتي اليائسة بالتفاوض معهم واكتفوا بترديد أكاذيب شنيعة وحماقات عجيبة مما يستقبح ذكرها ويستهول الحديث عنها.

فجأة! نظر إلي المتحول الأسود وقال:

«تريد أن نتفاوض؟»

أجبته والشكوك تعصف بي:

«نعم بالتأكيد!!»

عندها قام السفيه الماجن من مكانه بسرعة وأطفأ الإضاءة التي كان مفتاحها بجانب الباب الذي أقف وسطه وقال بهدوء وهو يقرب فمه نتن الرائحة من أذني: «إذا أردت التفاوض فنحن نريد أن يتم ذلك في الظلام»! ثم فعل فعلاً قبيحًا لا يجري به اللسان فدفعته عني بعنف وكدت أن ألكم هذا الخبيث لكمة تعيد له رجولته التي تنازل عنها، إلا أن الشباب سحبوا يدي وطلبوا مني الهدوء والخروج. كدت أن أملأ هذا الفاجر الدنيء بالشتائم وقبيح الكلام لكنني عدلت عن

ذلك مستشعرًا أنه أنا من جلب نفسي إلى هذا المكان وأنزلني إلى هذه المنزلة التي عرضت نفسي فيها لمخالطة الخبثاء وقليلي الذوق. ما إن شرعت بالخروج حتى لمحت ضوءًا اشتعل في السرير العلوي الأيمن من غرفة المتحولين، وإذا به ضوء مصباح قرءاة صغير تعلقه على كتابها شابة شقراء كانت قد تلحفت بغطاء فلم ألحظها في البداية. نظرت إلي نظرة هادئة وابتسمت متعاطفة مع حالي وحال الفتيان، إلا أنني تعاطفتُ معها أكثر إذ كانت كوردة جميلة غرزت بين أشواك!

«يجب أن نخبر مدير القطار عن المشكلة» قال قيصر الأول ذلك متبوعًا بتأييد شلته فوافقتهم رغم تشكيكي بقدرة المدير على فعل أي شي. خرجنا من القاطرة التي توجد فيها غرفة المتحولين متجهين إلى مقدمة القطار بحثًا عن مديره. ما إن سرنا قليلاً حتى صادفنا عامل التذاكر المسؤول عن التحقق من تذاكر الركاب، وكان ظريف الهيئة ممتلئًا كبير البطن متعرج الشعر دائري الوجه، ولا يخفي سعادته الغامرة عندما يشخط بقلمه على تذاكر الركاب وكأنه بفعله هذا يضفي عليها الشرعية والصلاحية. تقدمنا نحوه وتحدثنا إليه مطالبينه بالقدوم معنا مستخدمين لغة الإشارة لكون الرجل لا يجيد الإنجليزية. حاولنا إفهامه المشكلة وشرح الصورة له إلا أن الرجل كان عصيًا، لكنه وافق على مرافقتنا أخيرًا بعدما تملّكه الفضول وكأني به يُسائل نفسه عن الأمر المهم الذي يصر هؤلاء الفتيان على مرافقته لهم لأجله!

لم تمض سوى دقيقة حتى وقفنا أمام غرفة المتحولين فأخذ العامل ينظر إلينا متسائلاً! أشرنا له بأن ينظر إلى الداخل فرمقنا

بنظرة اتسعت معها عيناه حتى خُيِّل لي أن فضول الدنيا قد اجتمع فيها. تقدم العامل نحو باب الغرفة متطاولاً برأسه الدائري وكأنه لا يريد أن يندفع خشية مما قد يكون داخلها. أطل برأسه إلى الداخل ثم تراجع قليلاً وقد تكشَّرت ملامحه وتغيّر لونه من هول ما رأى. أخذ يحدثنا بالإيطالية وكأنه يتساءل عن الأمر بينما كنا نحاول إفهامه معضلتنا مع هؤلاء خاصة المتحول الذي يحتل سريرًا في غرفة شلة الملوك. أشرنا له بتذاكرنا وطلبنا منه التحقق من تذاكرهم، ففعل ذلك ممتعضًا وأخذ يشخط على تذاكرهم بسرعة وهو بالكاد يراها، وما إن وصل إلى المتحول الأول حتى طلب منه الخروج والذهاب إلى سريره. نظر إلينا العامل وطلب التحقق من تذاكرنا فلما رأى تذاكر الفتيان حتى توقف قليلاً متطلعًا فيها ثم أشار بيده إلى المتحول الكبير وهو ذاهب إلى غرفتهم ثم أعاد الإشارة إليهم وكأنه يسألهم بصمت: «هل سريره في غرفتكم؟!»

«سي سي» صاح قيصر الأول بالإيطالية بسرعة ويعني «نعم نعم»، ثم هززنا رؤوسنا مؤيدين ولسان حالنا يقول:» أخيرًا فهمت!» ثم أضاف أحد الفتيان بإنجليزية واضحة حتى يفهم العامل: «ذلك الرجل سينام معنا في ذات الغرفة! أرجوك افعل شيئًا!»

نظر العامل إلى الفتيان نظرة شفقة ثم قال أمهلوني بعض الوقت أنظر في الأمر، فما لبث أن عاد وبصحبته سيدة عجوز طويلة صارمة الملامح وتلبس زيًا رسميًا بني اللون يقارب لون شعرها الكث. قالت لنا بإنجليزية جيدة إنها مديرة القطار فأعلمناها عن المشكلة وأخبرتها بأن الفتيان جميعًا دون الثامنة عشر ولا يصح أن ينام معهم شخص

بتلك الصورة خاصة بعدما تحرش بهم لفظيًا! لم تغيّر العجوز ملامح وجهها الصارمة عندما طلبت منا مرافقتها إلى غرفة الفتيان لكي ترى الرجل الذي نصفه بالمتحول البشع، إلا أنه ما إن وقعت عيناها عليه، وكان حينها يسرّح شعره من أمام مرآة صغيرة يحملها، حتى اتسعت عيناها واحمرت وجناتها وانكسرت نفسها ورق قلبها لأجل الفتيان. أخذت تتحدث مع المتحول قليلاً باقتضاب وطلبت منه اطلاعها على تذكرته، ثم تركتنا بعدما طلبت منا عدم الدخول إلى الغرفة حتى ترى ما يمكن عمله.

انتظرنا في الممر طويلاً حتى انتشرت قصة الفتيان الخمسة والمتحول البشع في أرجاء القطار وراح بعض الركاب يؤانسهم بنظرات الرأفة والشفقة. كان الجميع في صف الفتيان لكن أحدًا لا يستطيع أن يعمل شيئًا، فالقوانين الأوروبية تمنع التمميز على أساس الجنس، فلا فرق بين الذكر والأنثى وما يسمى بـ«الجنس الثالث»، لذا أخذ الفتيان يقبلون بواقعهم البائس القاضي مشاركة الغرفة مع المتحول البشع.

«سأنام في الممر» صرّح ألفونسو الثاني «لا يمكن أبدًا أن أنام بسرير يقابل سرير ذلك المخلوق»

لكن ألفونسو الأول عارضه وقدم اقتراحًا:

«لا لا، بإمكانك أن تنام بجانبي على نفس السرير!» وعلى الرغم من ضيق الأسرة إلّا أن الأولفونسوين الأول والثاني قررا التشارك في أحدها بحيث يكون السرير المقابل للمتحول خاليًا. حينها، كان ذلك هو الحل الوحيد!

إلّا أن القدر جاء محملاً بحل آخر، حل أفضل بكثير. إذ لم نلبث طويلاً حتى أقبل نحونا مهرولاً عامل التذاكر بشعره المجعد الطويل وكرشه المتمايل وهو يضحك متحدثاً بعبارات إيطالية لا ندري ما تعني إلا أنها كانت توحي بخير. سألَنا عن المتحول فأخبرناه بأنه عاد إلى غرفة أصحابه فهرع صوب غرفتهم دون أن نعلم ما يجري. انقضت عدة دقائق قبل أن نرى المتحول مقبلاً علينا وشرر الغضب يتطاير منه لسبب نجهله، فدخل الخليع المارد الغرفة دون أن يكلمنا وأخذ يجمع أمتعته ويحشرها في حقيبته حشرًا ونحن ننظر إليه مشدوهين مختطلة داخلنا مشاعر البهجة والفضول. لم يمض وقت طويل حتى بدأ القطار بتخفيض سرعته وتم الإعلان عن وصولنا إلى إحدى المحطات. أخذنا نتساءل عما يجري إلا أن قدوم مديرة القطار كان كفيلاً بإجابة كافة تساؤلاتنا، إذ أخبرتنا أنها تحققت من تذكرة المتحول واتضح أنه ركب القطار الخطأ بحيث أنه قد اشترى تذكرة في القطار الآخر المتجه إلى البندقية وليس هذا القطار وأنه عليه أن يترجل في أقرب محطة ليستقل القطار الآخر! لم نصدق ما سمعته آذاننا للتو، فلن يكون المتحول خارج الغرفة فحسب، بل خارج القطار كله!

توقف القطار داخل محطة صغيرة وكان الليل قد حل، فخرج المتحول من الغرفة حاملاً حقيبته دون أن يكلمنا ونحن نرمقه بنظرات النصر، فترجل من القطار وهو يكيل لنا ويكيل للمديرة الشتائم والسباب، وما إن أغلق باب القطار وبدأ بالسير حتى عمت الاحتفالات في أرجاء القاطرة ابتهاجًا بنصر الملوك المكسيكيين وحليفهم العربيِ على المسخ المتحول البرازيلي. تعانقنا وضحكنا وشعرنا بأن حملاً ثقيلاً قد أزيح من ظهورنا فشكرت الله على منّه وفضله وأقداره وقررت

مشاركة الشلة بعض قطع الشوكولاتة الفاخرة التي ابتعتها من فيينا بمناسبة انقضاء المعضلة وإحلال السلام والأمان في غرفتهم، فذهبت مسرعًا صوب غرفتي إلّا أنني ما إن انتصفت في الطريق حتى مررت بغرفة باقي المتحولين فدخلت عليهم وكان الشرر يتطاير من أعينهم غضبًا من إنزال صاحبهم جبرًا من القطار.

«كان عليكم أن تتجاوبوا معنا!» قلت لهم ذلك بشكل متعالٍ فوثب علي المتحول الأسود وهو يصرخ:

«ساحر! أنت ساحر!»

فأرهبته وزجرته بعنف حتى اندس في سريره كقط في مخدعه وتركتهم غير مأسوف عليهم. خرجت من غرفتهم وأحضرت قطع الشوكولاتة إلى غرفة شلة الملوك التي جلسنا نتسامر فيها حتى أدركنا النعاس فتمنيت لهم ليلة سعيدة وذهبت إلى غرفتي فصليت ونمت.

***

انتبهت صباحًا على صوت عاملة في القطار توقظ الركاب وتوزع عليهم الإفطار المتواضع والذي كان عبارة عن خبز قاس وزبدة ومربى بالإضافة إلى علبة عصير. نزلت من سريري العلوي وذهبت لأغتسل وأصلي الصبح قبل أن أعود لترتيب أمتعتي استعدادًا للوصول إلى البندقية. استرخيت قليلاً في فراشي مستذكرًا أحداث ليلة البارحة وكيف أن الله كتب لنا الخلاص من ذلك المتحول البشع الذي كاد أن يحيل رحلتنا، خاصة بالنسبة إلى شلة الملوك، إلى جحيم متحرك!

أعلن القطار وصوله فأخذت مكاني في الطابور أمام باب القاطرة استعدادًا للنزول وأخذت أتبادل أطراف الحديث مع شريكي في الغرفة الشاب الإيطالي الظريف. قال إن اسمه «قيصر» هو الآخر (كنت محاطًا بالقياصرة ذلك اليوم!) لكنهم بالإيطالية ينطقونه «تشيزرِه» بدلاً من «تشيزار» بالإسبانية أو «سيزر» بالإنجليزية، وذلك جريًا على عادة الإيطاليين بلحن أسمائهم وكلماتهم، فتذكرت نابليون بونابرت القائد الفرنسي العظيم وكان قد ولد في إيطاليا وكان اسمه لما كان طفلاً «نابوليوني دي بونابيرتي»! زودني الشاب باسمه الكامل وطلب مني أن أبحث عنه في الإنترنت ووعدني بأنني سأتفاجأ، وهذا بالفعل ما حصل إذ اتضح أنه مغني أوبرا وله أعمال جميلة وصوت شدي!

ترجلت من القطار حاملاً حقيبة ظهري وسلمت على شلة الملوك والذين أخبروني أنهم ناموا في أسرتهم نوم الأطفال بعد أن اطمأنوا لسلامتهم من المسخ المتحول. ودعتهم على أمل أن ألقاهم لاحقًا في البندقية فانطلق كل منا في طريقه.

بعد انقضاء زيارتي إلى البندقية وذهابي إلى روما انقطعت عني أخبار شلة الملوك، باستثناء قيصر الأول الذي قدم لزيارتي لما كنت أدرس في لندن وذهبت معه إلى كلية العمارة التي تخرج منها المهندس الذي ساهم في تصميم الفيصلية والتي كان حلمه أن يدرس فيها، إذ اطلعنا على سير إجراءات القبول ونحوه حتى يتسنى له التقديم عليها قريبًا. لم أره بعدها إذ عاد إلى المكسيك إلا أنه لا تزال تربطني به علاقة افتراضية قوية عبر مواقع التواصل الاجتماعي التي تقرب البعيد وتبعد القريب كما تقول أمي!



شلة الملوك في البندقية. من اليمين إلى اليسار: قيصر الأول، ألفونسو الثالث، ألفونسو الأول، ألفونسو الثاني، قيصر الثاني.

الرسالة المفقودة

مانشستر، لندن- المملكة المتحدة. شتاء وربيع 2011

خرجت ذات صباح في يوم عطلة أسبوعية هادئة من مكتبة كلية إدارة الأعمال في جامعة مانشستر حيث كنت أحضّر لدروس الأسبوع القادم. كانت شمس الشتاء ساطعة رغم برودة الجوّ وبياض الثلج الذي يكسي الطرقات. أخذت أسير متجهًا نحو منزلي القريب وأنا أمتّع ناظريّ بتلك الحلة البيضاء التي تزيّن مانشستر، وأشاهد – مبتسمًا – أولئك المارة الذين يفقدون توازنهم من فوق الأرض الجليدية الملساء حتى يسقطوا عليها وهم يبادلون العابرين الضحكات الخجولة والابتسامات. لم يمض وقت طويل حتى جاء دوري ليختل توازني أنا الآخر لأكون ضحية بريئة من ضحايا الممر الجليدي الذي بدا وكأنه مرآة من شدة لمعانه وصقالته. حملت نفسي ومعطفي الأسود الثقيل وحذائي (البوت) الهائل وانتصبت مستندًا على جدار قريب بمساعدة شاب دمث الأخلاق. شكرته بلطف وما إن ابتعد حتى لمحت من خلفه طاولات صغيرة اصطفت فوقها عشرات الكتب في ساحة صغيرة. تقدمت نحو الساحة لأجد بائع كتب متجول استغل صفاء الطقس ليبيع ما يقتنيه من كتب مستعملة التي صفها بلا ترتيب معين فوق الطاولات الصغيرة، فضلاً عن صناديق كرتونية احتوت اسطوانات موسيقية قديمة. لطالما اعتقدت أن ما لدى الباعة المتجولين يكتنفه الغموض

والإثارة وهو أمر تفتقر إليه عادة المحلات المعتادة في الأسواق، لذا قررت الاطلاع على الكتب المعروضة علّني أجد من بينها ما يسليني في ما تبقى من عطلة نهاية الأسبوع.

أخذت أقلب الكتب والمجلات القديمة التي لم يكن بينها ما يثير كثيرًا، لكن لفت نظري كتاب عتيق ضخم عنوانه «تاريخ الإنسان» وكان مطبوعًا في عشرينيات القرن الماضي. ولما كان سعره رمزيًا، ابتعته وأكملت طريقي إلى المنزل مارًّا بمحاذاة مباني جامعة مانشستر القديمة بنية اللون المزينة بقبب قرميدية حمراء بنيت في عشرينيات القرن التاسع عشر. لا أزال أذكر بوضوح اليوم الأول الذي سرت به في هذا الشارع قبل عدة أشهر عندما بدأت الدراسة في هذه الجامعة العريقة. لم يكن ذلك يومًا استثنائيًا لي فحسب، بل كان كذلك بالنسبة إلى الجامعة، ليس لأنني بدأت دراستي فيها بطبيعة الحال، بل لأن ذلك اليوم صادف إعلان فوز أستاذين من أساتذة الجامعة بجائزة نوبل مما جعلها الجامعة البريطانية الأولى التي تحوي حائزَي جائزة نوبل متقدمة على كامبردج، التي احتلت اللقب لعقود طِوال. يا لها من منافسة شريفة!

***

لم يكن المنزل الذي كنت أسكن فيه في مانشستر بعيدًا عن الجامعة، ولم تمر سوى دقائق حتى ارتميت فوق سريري مغمضًا عيني. لطالما استلهمت نصيحة رئيس وزراء ماليزيا الأسبق مهاتير محمد، الذي لم يكن ليفوّت أدنى فرصة لإغماض عينيه على فترات متفرقة في اليوم الواحد، ليشحذ ما وسعه من طاقة ونشاط. كانت الساعة تقترب

من الحادية عشر صباحًا، لذا اكتفيت ببعض الدقائق للراحة وشحذ الطاقة ثم صعدت إلى الأعلى بصحبة كتابي الجديد. بُني منزلنا هذا في العصر الفيكتوري، قبل نحو 160 عامًا تحديدًا، ولم يكن بالأساس منزلاً خاصًا بل كان عبارة عن حانة أو «منزل عام» أو كما يطلق عليه اليوم (بَب). ويعتبر الـ

Pub (وهي لفظة اختصار لعبارة Public House أي: منزل عام) مركزًا لتجمّع أبناء القرية أو أبناء الحي الواحد في الماضي، إذ كان أشبه بديوانية تجمعهم بعد الفراغ من أعمالهم لـ«تبادل الأحاديث الودية» وبحث «مجمل الأوضاع والتطورات على ساحتهم الإقليمية» واستعراض «القضايا ذات الاهتمام المشترك». وتعتبر المنازل العامة هذه من أهم مقومات التراث الإنجليزي إذ يعود تاريخها لأكثر من 1200 سنة، ولا تزال حتى اليوم تفيض حيوية بروّادها الذين يقضون أوقاتهم فيها بالتواصل الاجتماعي ومشاهدة مباريات كرة القدم وتناول الشاي والمشروبات الروحية.

ولا يزال الدور تحت الأرضي في منزلنا يحوي غرف تخزين النبيذ، الخالية الآن بطبيعة الحال، فضلاً عن غرف سكن العاملين وموقد النار الخاص بهم. غني عن القول أن هذا الدور السفلي كان مصدر رعب لنا ولم نكن نملك الجرأة الكافية لاستكشافه إلا لما نكون، أنا وزملائي في السكن، مجتمعين ومحصنين بالكشّافات!

أعددت مشروب الشوكولاتة الساخنة وأخذت مكاني على أريكة مريحة في غرفة المعيشة قبالة النافذة التي تطل على أشجار غمرها البياض تصطف متشابكة على جانب الطريق. أمسكت بكتابي الضخم

العتيق وشرعت بتصفحه. كان الكتاب يؤرخ، بإيجاز، تاريخ البشرية منذ نشأة البشر حتى الحرب العالمية الأولى، أو الحرب العظمى كما كانت تسمى قبل قيام الحرب العالمية الثانية. كانت جودة الكتاب والورق عالية رغم مرور 90 سنة على طباعة هذا الكتاب مما دفعني للسرحان قليلاً وأنا أتخيل مُلّاكه الذين قرؤوه والمكتبات التي احتوته طوال تلك المدة التي تقارب القرن. أخذت أقلّب صفحاته مستشعرًا تلك الأيادي التي قلّبته قبلي، وتلك العيون التي طالعته طامعةً بمعلومة أو متسليةً بقصة. قطع سرحاني قطعة ورق كانت تطلّ خارجة من بين صفحات الكتاب، رفعت رأسي متسائلاً عما تكون، فسارعت بفتح الكتاب على الصفحة التي تقع الورقة عليها لأجد شيئًا في غاية الإثارة، وما إن رأته عيناي حتى انفرجتا على أوسع ما يكون..كانت بطاقة بريدية!

سحبت البطاقة وأخذت أكتشفها، كان الوجه الأمامي منها يحوي صورة بالأبيض والأسود لمبنى بدا وكأنه قلعة متهدمة جزئيًا، بينما احتوى الوجه الخلفي على رسالة مكتوبة بحبر أزرق وطابع بريد أحمر مختوم. تملكتني الإثارة حينها، ووضعت الكتاب جانبًا لأفرّغ مجهودي لاستطلاع أمر هذه الرسالة البريدية التي ربما ظلت محبوسة بين دفتي الكتاب لعقود طويلة. كان خط اليد المكتوبة به الرسالة صعب القراءة بالنسبة لي رغم كونه باللغة الإنجليزية، لكن طابع البريد الذي احتل الزاوية العلوية اليمنى كان ممهورًا بعبارة «الجمهورية الفرنسية» مكتوبةً باللغة الفرنسية! تأملت البطاقة أكثر حتى تبيّن مكان وتاريخ إرسالها، كانت مرسلة من بلدة فرنسية إلى لندن في تاريخ 22 أغسطس 1939، ستة أيام فقط قبل قيام الحرب العالمية الثانية!

***

ظللت أختبر البطاقة البريدية وأنا أحدّث نفسي بأنني وجدت أخيرًا ما أتسلى به في نهاية الأسبوع هذه، ولما كان الرسالة مكتوبة بخط يد قديم عصيت عليّ قراءته، قررت طلب مساعدة صديقي في السكن، سكوت. كان سكوت شابًا إنجليزيًا يافعًا يدرس الماجستير في العمل التطوعي، وكان يقضي نهار كل سبت متطوعًا لدى مركز لتعليم الأطفال العميان. لم يمض وقت طويل حتى عاد إلى المنزل لأباغته باللقطة التي وجدتها مختبئة بين دفّتي الكتاب القديم. شعرت بالارتياح عندما أخبرني بأنه ليس بمقدوره قراءة نص الرسالة، وشعرت بارتياح أعمق عندما أخذ يؤكد بأن النص كتب باللغة الفرنسية، بينما أخذت أؤكد أنه بالإنجليزية حتى أعاد الإطلاع عليها ليقتنع برأيي. ومصدر راحتي هنا منبعه أنني تفوّقت في مسألة لغوية إنجليزية على إنجليزي تعد الإنجليزية لغته الأم، وفي هذا الأمر متعة لا يستشعرها سوى من تعلّم لغة أجنبية!

جلسنا على طاولة صغيرة في غرفة المعيشة نتفحص الرسالة في محاولة لاستقراء كلماتها، وتحديد اسم المرسل والمرسل له. لم يستغرق الأمر طويلاً لنحدد العنوان الذي أرسلت إليه الرسالة في لندن، بينما وجدنا صعوبة بالغة في تهجئة اسم الشخص المرسلة إليه الرسالة. كانت الرسالة، في المجمل، تتحدث عن جولة سياحية قام بها شخصان في الأرياف الفرنسية، بحيث ذكروا بعض أسماء المدن والبلدات التي زاروها سويا، ولم تخل الرسالة من عبارات لم نستطع قراءتها وأخرى لم تبد مفهومة، كعبارة تصدّرت الرسالة مرة وذيّلت بها مرة أخرى وكانت أقرب ما تكون إلى عبارة «درة الليل»! درة الليل!!

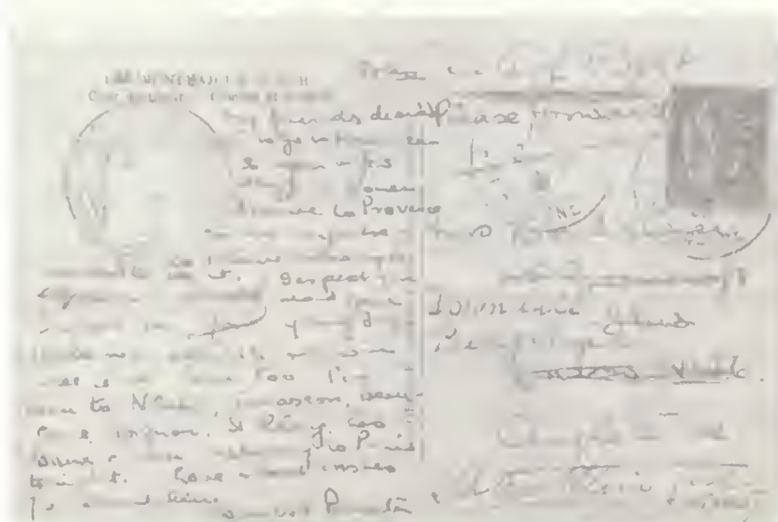
«كرونهايمر» صرختُ مبتهجًا وأنا أشير بإصبعي إلى اسم المرسل إليه «السيدة كرونهايمر»!

أخذ سكوت يتحقق من صحة تهجئتي للاسم بينما سحبت كوبي مرتشفًا بعض الشوكولاتة الساخنة ومنتشيًا بتفوقي اللغوي مرة أخرى!

«يبدو أن الاسم ألماني!» قال سكوت ذلك متسائلاً ثم تابع: «سيدة ألمانية في لندن في ذلك الوقت! ماذا كانت تفعل هناك قبيل الحرب؟ وماذا حدث لها بعد قيامها ؟ أراهن أنه تم نقلها إلى إحدى معسكرات الألمان قبل أن تستلم الرسالة! لكن من الذي استلمها إذاً؟!! ربما استلمها جار لها وأخفاها داخل هذا الكتاب الذي لا يقرأه أحد!» جذب سكوت البطاقة البريدية وانتصب واقفًا وهو يقول بشغف «ثم ماذا تعني عبارة «درة الليل» هذه؟! أراهن أنها شفرة سرية لها علاقة بقيام الحرب! ربما لم تؤخذ السيدة كرونهايمر إلى معسكر، بل ربما جرى تصفيتها من قِبل الاستخبارات!» قال كل ذلك ثم أخذ يهتز طربًا ويقول بصوت صاخب: «يا للإثارة! يا للإثارة!».

أعترف بأنني لم أكن أعلم أن لدى زميلي في السكن خيالا جامحا كهذا، إلّا أنني أدركت بأن ما نحن بصدده كان من قبيل تلك الأشياء التي يتفوق فيها الخيال على التعقل، بل ويضيف لها متعة وإثارة. لذا وضعت تحفظاتي جانبًا، ورحت أشارك سكوت تخيلاته...واهتزازاته!





البطاقة البريدية بوجهيها

بحديثه عن معسكرات الألمان، كان سكوت يشير إلى معسكرات تم إنشاؤها في بريطانيا لتحوي المواطنين الألمان المقيمين فيها أثناء الحرب العالمية الثانية، ليعيشوا فيها مؤقتًا لضمان عدم قيامهم بأي نشاط عدواني ضد بريطانيا.

ورغم أن خيالاتي الخاصة لم تقدني إلى الاعتقاد بأن للمعسكرات هذه شأنا في بطاقتنا البريدية الغامضة، إلّا أنني لم أستبعد حصول أي أمر للسيدة الألمانية التي أرسلت إليها الرسالة. لذا تحتم علي البحث!

كأي إنسان متحضر في هذه العصر، استعنت بآية الله جوجل للحصول على بعض المعلومات. كل مرة أستخدم فيها محرك البحث هذا أتعجب من كمية المعلومات الهائلة التي يحتويها والأرشيفات الضخمة التي يحتفظ بها مستشعرًا قدرة الله سبحانه بأن سخر لنا هذا المحرك الذي يختصر الزمان والمكان. لذا لم أعجب كثيرًا عندما قرأت عن ديانة تسمى «جوجلزم» تمارس في كنيسة افتراضية تدعى «كنيسة جوجل»، ورغم أنها ليست كنيسة بالمعنى الحرفي، لكن أتباعها يؤمنون بأن جوجل هو أقرب تجسيد للإله تمكن منه البشر، بل ذهبوا إلى الاعتقاد بكون جوجل هو إله، أو إلهة أنثى تحديدًا، مستدلين بتسعة أدلة تدعم زعمهم هذا من بينها أنها تعلم كل شيء، وأنها موجودة في كل مكان في ذات اللحظة، وأنها غير محسوسة وليس لها تجسيد مادي!

بالإمكان اعتبار بحثي عن السيدة كرونهايمر في جوجل دليلاً على نقض زعم أتباع «كنيسة جوجل» الأول، إذ لم يعلم جوجل المحرك، ولا حتى الإلهة جوجل ذاتها، شيئًا عن السيدة ولا عن مصيرها، وأقصى ما تم تزويدي به هو معلومات متفرقة وعامة عن تاريخ هذه

العائلة الألمانية. الشيء الوحيد الذي استفدته من بحثي هذا هو تحديد ماهية الصورة التي تزين وجه البطاقة البريدية الأمامي، إذ كانت لدير رهبان يقع في كنيسة من العصور الوسطى تقبع في التخوم الغربية لتلال لوبيون الخضراء وسط فرنسا. أيًا كان من أرسل البطاقة البريدية للسيدة كرونهايمر، فلقد كان يتسكع في تلك الأنحاء بلا شك!

وبما أنني لم أخرج بكثير فائدة من بحثي الافتراضي هذا، قررت الاستعانة بالطرق التقليدية، فدسست البطاقة البريدية في جيب معطفي الذي تدثرت به قبل خروجي من المنزل متجها صوب مكتب لتقصي النسب والسلالات حددت موقعه بفضل جوجل (آه نعم هذا شيء آخر استفدته من البحث!). تنتشر في بريطانيا، وغيرها من بلاد الغرب، مكاتب عديدة من هذا الطراز، تتمثل مهامها في تتبع أشجار العوائل وتحديد أقارب المرء الذين انقطع عنهم منذ أجيال، فالأساس الأسري في بريطانيا يعتبر الأكثر هشاشة في أوروبا وبالكاد يعرف الإنسان والديه وإخوته، وربما قلة قليلة من أقاربه. لم يستطع سكوت مرافقتي لارتباطه بعمله المسائي في كشك صغير لبيع الكوكيز لذا طلب مني تزويده بأي معلومات جديدة أحصل عليها بخصوص السيدة كرونهايمر، وعدته بأن أفعل طالما أنه سيحضر لي، مجانًا بطبيعة الحال، قطعًا طازجة من كوكيز الشوكولاته بالحليب.

اتجهت على قدمي شمالاً صوب وسط المدينة حيث يقع مكتب تقصي النسب، كنت أمشي الهوينا محافظًا على توازني قدر الإمكان خشية السقوط بسبب الطبقة الجليدية التي تكسو ممرات المشاة. مررت على منشأة ضخمة تبنى لأجل كلية الهندسة في طرف الجامعة وقرأت

عبارة على لافتة ضخمة عُلِّقت هناك أشعرتني بالفخر بصفتي طالبًا في جامعة مانشستر، إذ كُتب عليها بخط عريض: «جامعة مانشستر، مكان ولادة الهندسة الكيميائية» في إشارة إلى أن هذا العلم نشأ في هذه الجامعة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وقد علق بحفظي أنني قرأت في مكان آخر في الجامعة «هنا انشطرت الذرة لأول مرة» في إشارة إلى الإنجاز العلمي العظيم الذي قام به العالم إرنست رذرفورد المتمثل في شطر الذرة والذي مثّل فتحًا علميًا هائلاً قلما يكون له نظير. رغم أنني لا أحبذ الإيغال في بث «الإشارات الإيجابية» هذه، إلّا أنني أؤمن تمامًا بأن نشر عبارات كهذه كفيلة بأن تحفز طلاب الجامعة للإبداع والإنجاز وذلك بتذكيرهم بأنهم جزء من جامعة عظيمة يدين لها العالم بكثير من الفضل. تداعى إلى خاطري أني قرأت مرة في صحيفة الجامعة الإلكترونية بأنه من بين أعظم عشرة إنجازات علمية حققتها الجامعات البريطانية على مدى ستة عقود، تم اختيار إنجازين لجامعة مانشستر لتكون من ضمنها: الكمبيوتر الحديث وحبوب منع الحمل، ولما قرأت الخبر رفعت رأسي مزهوًا وكأنه أنا من قام بهذين الإنجازين الجليلين!

لم يجتحني الكثير من الزهو عندما سقطت على عجزي حين حاولت التوقف عند إشارة المشاة الضوئية، وأخذت أستنهض جسدي كما تفعل الفقمة في محاولة يائسة للوقوف فوق الطبقة الجليدية الملساء. قبضت على عمود الإشارة الحديدي واستويت واقفًا وأنا أكيل الشتائم للسيدة كورنهايمر ورسالتها الغامضة!

انقضت نحو نصف ساعة قبل أن أصل إلى المكتب في الطرف

الشمالي لوسط مانشستر العامر بالحياة وسط الثلوج. كان المكتب يقع في منطقة «دينزجيت» في الدور الثاني لمبنى حديث نسبيًا، وذلك إذا أخذنا بالاعتبار أن المبنى الحديث، في عُرف الإنجليز، لا يتجاوز عمره المئتي سنة! بني المبنى بالطوب الأحمر في العصر الصناعي على الأرجح، إذ لا تزال تتجلى خارجه سمات العظمة والقوة لتبرز، إلى جانب مبانٍ ضخمة أخرى، عظمة هذه المدينة التي نقلت العالم من العصر الزراعي إلى العصر الصناعي باعتبارها منطلق الثورة الصناعية وأول مدينة صناعية عرفها التاريخ. ومما يستملح ذكره أن لفظة «مانشستر» كانت، ولا تزال لكن على حد ضيق، تطلق على المنسوجات كفرش النوم وغيرها في بعض مستعمرات بريطانيا في السابق كأستراليا وجنوب إفريقيا، إذ كانت مانشستر مصدر هذه السلع الأول!

صعدت إلى الدور الثاني بعدما نفضت حذائي الضخم من الثلوج التي التصقت به. لم يكن تحديد المكتب المطلوب يتطلب بذل جهد كبير، إذ ميزته بسرعة بسبب لوحة دعائية عُلِّقت على بابه كتب عليها: «اتبع تاريخ عائلتك، فقد تكون من سلالة ملكية!».

دلفت إلى المكتب وطرقت الباب بهدوء رغم كونه مفتوحًا.

«مرحبًا!» قالها صوت متهدج لرجل طاعن في السن مكفهر الأسارير يحتل مكتبه الصغير ركنًا قصيًا في غرفة مستطيلة الشكل. اتجهت صوب مكتبه وأنا أتفرّس في وجه الرجل وأتأمل الحيطان التي زُيِّنت بلوحات قديمة تحوي أشجار عوائل عديدة ودروع لشعارات نبالة بديعة تحوي فرسانًا وتيجانًا وأسودًا.

دنوت من الرجل وأخبرته، بعد تقديم عبارات المجاملة، عن البطاقة البريدية التي وجدتها بعد أن زوّرت الحقيقة قليلاً، إذ قلت له أنني وجدتها في صندوق قديم لجدتي المتوفاة وأنني أطلب مساعدته في تحديد مكان السيدة كرونهايمر هذه أو أبنائها لكي أتواصل معهم بصفتهم أقارب محتملين لي. لم أقصد الكذب لأجل الكذب، بل كان آخر شيء أريد سماعه ذلك اليوم هو عبارات استخفاف من عجوز متجهم كبير السن. مد يده وأخذ البطاقة مني بهدوء وببرود شديد ينافس برودة الطقس خارج هذه الجدران المصمتة، وعدّل نظارته العتيقة ذات اللون الذهبي القاتم فوق أنفه وأخذ يقرأ محتوى الرسالة. وقفت مذهولاً وأنا أسمعه يقرأها بسرعة كبيرة دون توقف أو تردد كما لو كان يقرأ صحيفة رياضية!

لم أنبس ببنت شفة حتى رمقني بنظرة تفّحص طويلة وقال بسكون بالغ:

«أنت لست يهوديًا، أليس كذلك؟!»

كانت سؤاله مباغتًا بحق ولم أجد مجالاً للتفكير فجاوبته بسرعة وأنا أهز رأسي نافيا:

«لا لا! لم تسألِ؟!!»

قلت ذلك بتعجب بينما وضع هو البطاقة على طاولته الممتلئة بأشجار العوائل والسلالات ونظر إلي بعدما خلع نظارته:

«ألم تقل لي أنك وجدت هذه البطاقة في صندوق جدتك؟!»

«آه..بلى صحيح!»

«وهل كانت جدتك يهودية؟»

لم أدرك حينها ما الذي كان يرمي إليه، لكنني أدركت بالفعل بأن حبل الكذب قصير فقررت العدول عنه والاكتفاء بقول الحقيقة:

«في الواقع لا، جدتي لم تكن يهودية بل أبناء عمي يهود»

حسنًا! لم أكذب، بل استخدمت التورية، فنحن العرب أبناء عم اليهود في نهاية المطاف!

«أوه حسنا! لا أعلم إن كنت تعلم ذلك مسبقًا لكن عائلة كرونهايمر عائلة يهودية ذات أصل ألماني هاجرت إلى إنجلترا ودول أخرى قبل قرنين من الزمان »

«يهودية!!» فكرت بهذا متعجبًا بينما أخذ الرجل يسرد من ذاكرته معلومات متتابعة عن هذه العائلة وكأنه يقرأ في كتاب من شدة حفظه وحدة ذاكرته. قال لي أن: «عائلة كرونهايمر عائلة متشعبة ويحمل أفرداها الآن أسماء عوائل متعددة، إلّا أن أصلهم، كما أخبرتك، من يهود ألمانيا التي هاجروا منها في منتصف القرن التاسع عشر واستقر معظمهم في الولايات المتحدة بينما استقر آخرون في بريطانيا ومستعمراتها السابقة»

سحب العجوز نفسًا عميقًا بعد الدرس التاريخي الذي سرده لي وتابع قائلاً:

«هذا كل ما لدي الآن. إن كنت تريد معلومات تفصيلية عن هذه السيدة صديقة جدتك، أو أي كانت علاقتك بها، فأنا أخشى أن هذا سيكلفك بعض المال، إذ يتحتم علي إجراء بعض التحقيقات والقيام ببحث مكثف!»

أخبرته بأنني أؤثر أن أتابع البحث عن السيدة كرونهايمر شخصيًا معتمدًا على المعلومات التي زودني بها مشكورًا. أطنبت في شكره وإبداء تعجبي من غزارة معرفته وسعة إطلاعه، لكنه قابلني بهز رأسه ببروده المعتاد. وما إن شارفت على الخروج حتى قال وهو يستند على كرسيه المائل واضعًا راحتي يديه خلف رأسه:

«تابع البحث يا بُني، فلن تصدق مقدار المفاجآت التي تظهر في النهاية!»

ابتسمت له شاكرًا واتجهت إلى الأسفل وأنا أفكر بعبارته الأخيرة: «مفاجآت!! هل يمكن أن السيدة كرونهايمر كانت ثرية ولم تورّث ممتلكاتها؟! هل سأكون وريثها الذي طال انتظاره؟! أمر مثير!!»

ولوهلة كنت أشبه بمن كذّب الكذبة وصدقها، فلا تربطني بالسيدة كرونهايمر أدنى علاقة، وليس ثمة إرث بانتظاري. كل ما في الأمر أنني شاب فضولي شمّ رائحة مغامرة فقرر اتّباعها!

خرجت من بوابة المبنى لأرى السماء وقد بدأت بنثر بلورات الثلج الأبيض على مانشستر. كان منظر تساقط الثلج الذي يداعبه نسيم الهواء البارد يبعث على البهجة والمسرّة، لذا رحت أتأمل هذا الجمال محدثًا نفسي بأنه على «مفاجآت» السيدة كرونهايمر أن تنتظر حتى يحل الربيع!

***

استيقظت على جرس المنبه صباح يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر أبريل لذلك العام. كانت قد مضت عدة أشهر منذ أن اكتشفت الرسالة واستقصائي لخبر السيدة كرونهايمر. لم تحدث أي تطورات بالأمر، سوى فقدي لكتاب «تاريخ الإنسان» الذي وجدت البطاقة البريدية داخله، ربما لأنني لم آبه كثيرًا بالكتاب عندما وجدت داخله ما يفوقه إثارة ويتجاوزه متعة. كنت قد قررت منذ مدة أن هذا الوقت هو الأمثل لتتبع عنوان السيدة كرونهايمر المكتوب في الرسالة، إذ كان الربيع قد حلّ وبدأ الطقس بالتحسن، فضلاً على أنني سأستغل وجودي في لندن خلال هذين اليومين لحضور احتفال زواج الأمير وليام بالآنسة كيت مديلتون الذي يوافق اليوم التالي، والذي سيكون حدثًا تاريخيًا كما يتبنأ الكثير.

استحممت وتناولت إفطارًا خفيفًا، وارتديت سترة ربيعية وحملت حقيبة الظهر الخاصة بالسفر بعدما وضعت البطاقة البريدية في مخبأ آمن فيها واتجهت إلى محطة قطار بيكاديللي وسط مانشستر. رغم الصباح الباكر، كانت محطة القطار الحديثة هذه تعج بالمسافرين وعابري السبيل الذين اصطفوا كطوابير أمام أكشاك بيع الإفطار

الجاهز والقهوة الساخنة. اضطررت لقطع طابور أو اثنين حتى أصل إلى شاشة إعلان قيام الرحلات، وأنا أمطر المصطفين بعبارات التأسف التي يحب سماعها البريطانيون الذين - ربما بصفتهم مخترعي فكرة الطوابير- ينزعجون عندما يقطعها أحدهم، بل ويُعدّ تجاوز الطابور أكثر ما يثير غضب البريطانيين حسب دراسة حديثة.

لم يمر وقت طويل حتى أخذت مكاني في قطار الثامنة وخمس وخمسين دقيقة صباحًا المتجه إلى لندن والذي تشغّله شركة «فيرجن». كلما رأيت شعار الشركة هذه تساءلت عما إذا كان يسعني الحصول منها على تخفيض خاص، أو حتى على تذاكر مجانية، بسبب تضميني لمؤسس الشركة السير ريتشارد برانسون في كتابي الأول «عظماء بلا مدارس»!

امتدت مدة الرحلة لساعتين وربع حتى توقف القطار في محطة «يوستن» في لندن. خرجت من المحطة متجهًا صوب هوستل قرب ساحة «رُسل سكوير» التي تبعد عن المحطة نحو ربع ساعة مشيًا على الأقدام. كان الجو من أمتع ما يكون، وكانت أشعة الشمس الساطعة تستجلب ابتسامات الناس الذين طال انتظارهم لشمس الربيع الحانية. كانت لندن مكتظة بالسياح الذين توافدوا إليها من داخل بريطانيا وخارجها ليستمتعوا بإجازة نهاية أسبوع طويلة وليشاركوا العائلة المالكة احتفالها بزواج الأميرين الشابين.

تجاوزت ساحة «رُسل سكوير» متجهًا ناحية الهوستل الذي كان يحتل مبنيين من جملة مبان فيكتورية مطلية بالبياض تمتد على شارع طويل. كان بهو الهوستل متوسط الحجم ويحوي مكائن شراء المعلبات

والحلويات بالإضافة إلى أجهزة كمبيوتر يستخدمها النزلاء الشباب، بينما عُلّقت إعلانات سياحية ولوحات دعائية مبهرجة على جدرانه الزرقاء. انتظرت قليلاً أمام مكتب الاستقبال حتى تقدم لي شاب في نهاية العشرينيات من عمره، كان طويلاً وجيه المنظر وبه سحنة عربية أو جنوب آسيوية وتعلوه ابتسامة ترحيبية هادئة. قال مستفسرًا بإنجليزية جيّدة:

«مرحبًا بك! كيف أستطيع خدمتك؟»

«أهلاً بك، لقد حجزت سريرًا لثلاث ليالٍ هنا»

أخبرني بأن الوقت لا يزال مبكرًا لتسجيل دخولي وتسليمي سريري، لكني اتفقت معه على أن أضع حقيبتي في مخزن الهوستل على أن أعود مساءً لاستلام السرير. طلب مني اسم عائلتي لكي يتأكد من وجود حجزي في نظام الكمبيوتر لديه، وما إن زودته به وأدخله في الجهاز حتى نظر إلى الشاشة بتعجب أتبعها بنظرة مماثلة لي. قال مشدوهًا بلغة عربية رصينة وبلهجة خليجية محبّبة:

«الأخ سعودي؟!!»

تعجّبت أنا الآخر وجاوبته على سؤاله وعلامات التعجّب تحيط برأسي:

«إيه نعم الله يحفظك!»

«الله يحييك أخوي، الصراحة أنت أول سعودي يشرفنا هنِي

عشان جِذي تعجبت!»

ابتسمت وتابعت معه:

«الله يشرف مقدارك، الحقيقة أنا دايم يقولون لي في الهوستلات هالكلام، لكن العجيب إني أول مرة أشوف خليجي يشتغل في هوستل!»

ضحك الشاب وقال:

«طيّب اسمع زين» ثم أخذ ينادي مجموعة من الشباب بالعربية بكُناهم وعرفني عليهم بكونهم إخوته وأبناء عمومته وذكر بأن أحدهم، وكان عمره بالأربعينيات، هو مالك الهوستل ومديره، بينما يعمل هو والآخرين في الاستقبال والتنظيف وما إلى ذلك. كانوا شبانًا لطيفين ويشعون حيوية ونشاطًا، لذا لم يكن من السهل إخفاء دهشتي، إلّا أنني تأكدت تمامًا بأنهم خليجيون عندما غمروني بكرمهم واحتفائهم. قرر عمر، وهو الشاب الذي استقبلني بداية، أن يسلمني سريري الآن وبغرفة أفضل من التي قمت بحجزها. أكمل إجراءات الدخول بسرعة ثم طلب مني أن أتبعه نحو الغرفة وهو يقول:

«مو بالعادة نروح للغرف مع النزلاء لكن أنت ضيفنا»

شكرته على لطفه الجمّ، وسألته عن قصته بينما كنت نصعد السلالم الضيقة داخل الهوستل. قال بأنه ينتمي هو وأبناء عمومته إلى بلد خليجي لكنهم لم يتمكنوا من الحصول على جنسيته رغم أنهم لا يعرفون بلدًا غيره، فقرروا الهجرة إلى بريطانيا في التسعينات.

تابع حديثه: «وحصلنا على الجنسية البريطانية من عشر سنين أو أكثر، لكن والله ما تمر سنة بالكثير إلّا ونزور بلدنا في الخليج؛ لأنه هو الأصل ومعزته غالية حيل».

كَسَرت عبارته الأخيرة نفسي إذ شعرت بمرارة تغلّفها وغصّة تحفّها، فأشفقت على حاله وحاولت ملاطفته بعبارات مجاملة حتى وصلنا الغرفة. شكرته وودعته على وعد أن نلتقي لاحقًا، بينما لم تودعني كلماته التي ظللت أتفكر فيها مدةً حتى كدت أن أنسى سبب مقدمي الأساسي إلى لندن، السيدة كرونهايمر ورسالتها المفقودة!

كانت الغرفة، التي طليت جدرانها بطلاء أزرق، خالية من النزلاء وتحوي ستة سرر تنقسم إلى مجموعتين، بحيث حوت كل مجموعة ثلاثة طبقات من الأسرة، في حين ركّبت ستة خزائن على الجدار إلى جانب مغسلة صغيرة. اخترت سريرًا علويًا بعدما لاحظت أن بعض الأسرة قد حُجزت فعلاً من قِبل نزلاء قبلي، فصعدت إليه لأستلقي قليلاً للراحة ولأنتظر قدوم صديق لي كان قد أبدى اهتمامه بسر الرسالة المفقودة ورغب مشاركتي البحث عن صاحبتها المجهولة. ما إن أغمضت عيني حتى فُتح باب الغرفة لتدخل مجموعة من الفتيان والفتيات الذين بادروا بإلقاء التحية عليّ وتقديم أنفسهم بكل ود. كانوا أربعة، فتيَان وفتاتان، وأعمارهم في منتصف العشرينات وتبدو عليهم آثار مشقة السفر. أخبروني بأنهم كنديون يدرسون تاريخ الإغريق في اليونان، وأنهم وصلوا إلى لندن في وقت متأخر من مساء أمس. تابعت إحداهن:

«لم نكن لنفوّت حفل زواج ملكنا المستقبلي! كم أنا مغرمة بالأمير

وليام وخطيبته كيت!»

كانت الفتاة تشير إلى كون الأمير وليام هو الوريث الثاني - بعد والده الأمير تشارلز- للتاج البريطاني الذي تخضع له، إلى جانب بريطانيا، خمسة عشر دولة من بينها كندا وأستراليا ونيوزيلندا وجامايكا. أكملت استرخائي وتركت الفتيات يتحدثن عن توقعاتهن بخصوص فستان زفاف الآنسة كيت يوم الزواج، إذ بدا أن هذا الموضوع هو المفضل لكثير من الفتيات في تلك الأيام.

***

لم تُشر الساعة إلى منتصف النهار حتى اتصل بي صديقي عادل السرحاني الذي قرر مرافقتي لاستطلاع خبر السيدة كرونهايمر صاحبة الرسالة. أخرجت البطاقة البريدية من حقيبتي وودّعت مجموعة الفتيان الكنديين واتجهت صوب محطة قطار الأنفاق (أندرقراوند) في «رُسل سكوير» حيث كان ينتظرني صاحبي. بعد التحية وتبادل عبارات السلام والمجاملات، زوّدت عادل بملخص قصتي مع البطاقة وعن المعلومات التي تحصّلت عليها. أظهر عادل السرحاني، الذي كان حينها يدرس اللغة الإنجليزية في لندن، حماسةً وروحًا عاليتين دفعتني لأستجلب حماستي التي فترت بمرور الأشهر منذ أن اكتشفت الرسالة لأول مرة. سرنا سويًا قاصدين محطة قطار «يوستن» التي كنت قد وصلت إليها قادمًا من مانشستر قبل ساعة ونيف، إذ ينطلق من هذه المحطة القطار المتجه إلى محطة «ساوث هامبستد» التي لا تبعد كثيرًا عن عنوان السيدة كرونهايمر. أعلن عن قيام رحلة القطار الذي صعدناه فوجدناه حديثًا جدًا وواسعًا مقارنة

بقطارات أنفاق لندن بالغة القدم. بعد خمسة دقائق أو نحوها وصلنا مقصدنا، فترجلنا من القطار وكلنا حماسة لقرب وصولنا إلى عنوان الرسالة. كانت محطة «ساوث هامبستد» هادئة وتقع في منطقة وادعة تحمل ذات الاسم يلفها السكون في هذا النهار الربيعي الجميل. كانت الطرقات خالية من المارة إلّا القليل منهم الذين بدَوا كسُكّانٍ لهذه المنطقة لا كسواح، إذ لا شيء مميزا يدفع السواح إلى هذا القطعة من لندن. مضينا في سيرنا متتبعين لوحات الطريق حتى وصلنا الطريق الذي يقع عليه عنوان السيدة كرونهايمر. تبادلت مع عادل ابتسامة نصر هادئة بينما كنا نبحث عن المنزل رقم 65 إذ كان هو العنوان المطلوب تحديدًا. كانت معظم المنازل فيكتورية الطراز مبنية من الطوب الأحمر وتفصلها عن الطريق الضئيل أفنية وحدائق صغيرة اعتنى مُلاكها بتهذيبها وتزيينها بالورود الربيعية زاهية الألوان. كان الطريق خاويًا تمامًا من المارة، بل بدت المنازل خاوية على عروشها ولولا الحدائق المشذبة وبعض السيارات الواقفة لجزمت بذلك قطعًا. تقدمنا ونحن نعد الأرقام الفردية على أبواب المنازل في الجهة اليسرى من الطريق، 59 61 63... وأخيرًا بلغنا مقصدنا الأخير: المنزل رقم 65، منزل السيدة كرونهايمر!



(أنا من أمام المنزل رقم 65 حاملاً البطاقة البريدية)

كادت الإثارة أن تطير بي إلى السماء عندما توقفت مع عادل أمام سياج المنزل، فها أنا أخيرًا أمام العنوان الذي كنت أبحث وأتحقق عنه منذ عدة أشهر. لم يختلف طراز المنزل عن غيره من منازل ذلك الحي، فلقد كان مبنيًا من الطوب الأحمر بينما طليت نوافذه بلون أبيض ناصع. المختلف أنه كان أكبر حجمًا من غيره، مما جلب لي سعادة مؤقتة مصدرها أن كبر حجم المنزل يعني ثراء أصحابه، أي ثراء السيدة كرونهايمر، وبالتالي ضخامة حصتي من إرثها الذي كانت خيالاتي الجامحة تصوّره لي! لم تدم سعادتي طويلاً، إذ بدا واضحًا أن المنزل طالته يد التحسين والصيانة قريبًا جدًا مما يعني

أنه ربما قد تم بيعه أو هجرة أصحابه. تحدثت مع صديقي عادل بهذا الشأن، فقررنا أن نضغط على جرس الباب. وقفت لوهلة وأنا أنظر إلى الجرس، استجمعت أنفاسي وثقتي وضغطته!

لا جواب! انتظرت للحظة قبل أن أجرب مرة أخرى، فم أتلقّ جوابًا كذلك. كان واضحًا أن المبنى مهجور منذ فترة، ربما بسبب الصيانة، كما أن حديقته لم تُعدّ لاستقبال الربيع كما فعل بقية الجيران بحدائقهم مما قد يعني عدم وجود أحد في المنزل ليعتني بها. صدق حدسي عندما ألقيت نظرة من النافذة، فلقد أظهرت الستائر البيضاء شبه الشفافة خلفها الغرف وقد بدت خالية حتى من الأثاث، بل وضعت عوضًا عنها آلات الصيانة وأدوات الترميم.

شعرت بخيبة أمل إذ يبدو أن السيدة كرونهايمر قد انتقلت لمكان آخر من زمن بعيد، أو ربما توفيت وحيدة وتم تصفية أملاكها. كنت قد استنتجت من كون الرسالة أرسلت إلى السيدة لوحدها دون زوجها، مع الأخذ بالاعتبار أن من أرسلها كانا زوجين أو خليلين، إنها أرملة تعيش وحيدة. ربما منعت الحرب أحبابها من زيارتها، وربما تم نقلها إلى معسكر الألمان فعلاً كما يظن صاحبي في السكن سكوت حتى ماتت كمدًا وهمًّا.

انقطعت تساؤلاتي هذه عندما اقتربت من المنزل سيدة عجوز طاعنة في السن، بيضاء الشعر مجعّدة الجلد وتحمل بعض المشتريات. كانت متأنقة وتتدثر بمعطف أبيض طويل يغطي جسدها المتهالك. اقشعر جلدي وتسمّرت في مكاني بينما أخذ عادل يرمقها بنظرات متسائلة. اقتربت السيدة أكثر وهي تسير بهدوء ورويّة وتصاعدت

دقات قلبي أكثر فأكثر!

«هل تكون هذه السيدة كرونهايمر؟! هل وجدتها أخيرًا؟!!» راحت هذه التساؤلات تحتل تفكيري «ما الذي ستقوله عندما أخبرها بما وجدته؟! هل ستتذكر الرسالة؟ هل حدث شيء لمن أرسلوا إليها الرسالة؟ هل قضت فعلاً بعض الوقت في معسكر الألمان؟ هل كانت أرملة فعلاً؟ هل ستكافئني من مالها الوفير؟! سأرضى ببعض آلاف من الجنيهات الإسترلينية! أوه! هل ستسألني عن كتاب «تاريخ الإنسان» الذي وجدت البطاقة البريدية داخله ثم أضعته؟ ربما يكون ذا قيمة معنوية كبيرة لها ثم ترفع علي دعوى تعويض بدلاً من مكآفئتي!» ياه ياه، كانت هناك العديد من التساؤلات التي تنتظر تلك العجوز الألمانية الأصل اليهودية الديانة!

اقتربت أكثر من السياج وأنا «أتحرى» المفاجأة التي تنبأ بها العجوز في مكتب تقصي النسب في مانشستر! ما أن شارفت السيدة على باب السياج الصغير حتى تجاوزته بعد أن ألقت علينا نظرة فاحصة!

توقفت متعجبًا وأنا أراها تبتعد، كدت أن أصرخ بها قائلاً: «إلى أين ذاهبة يا سيدة كرونهايمر؟! هذا هو منزلك هنا؟» إلا أنني استجمعت عقلي وتركتها وشأنها إذ كان جليًا أنها عجوز عادية من عجائز الحي وليست السيدة كرونهايمر!

بعد خيبة أملي الثانية هذه، أضيئت في رأسي فكرة مفاجئة فتقدمت نحو العجوز دون تردد ووقفت أمامها قائلاً:

«عفوًا سيدتي! هل لي بأن أسألك سؤالاً؟»

«ماذا؟» قالت ذلك بتعجب دون أن تتوقف عن سيرها.

«إنني أبحث عن سيدة تدعى كرونهايمر أرسلت لها هذه الرسالة قديمًا وأريد إيصالها لها»

لم تقاوم العجوز الفضول التي تملكها فتوقفت لأطّلعها على البطاقة البريدية التي بحوزتي.

نظرت إليها لبرهة ثم قالت وهي تهز رأسها غاضبة:

«هذه مرسلة عام 1939! هل أبدو لك أنني كبيرة إلى هذه الدرجة؟!!»

علمت أنني وقعت في محظور «نسائي»، فانعقد لساني وانقطعت الريح عن أشرعتي. نظرت العجوز إليّ شزرًا وأكملت مسيرها وهي تتمتم بغضب. لم أدعها تذهب فتبعتها مستسمحًا:

«المعذرة يا سيدتي، لم أقصد هذا، بل قصدت أنه ربما يكون للسيدة كرونهايمر أبناء في هذا الحي وليس هي تحديدًا»

قالت لي دون أن تتكلف عناء الالتفات: «أنا أعيش في هذا الحي منذ ثلاثين سنة ولم أسمع بعائلة بهذا الاسم من قبل وهذا كل ما لدي!»



(أنا مع العجوز متعكرة المزاج حاملاً رسالة السيدة كرونهايمر)

شكرتها بصوت عال وتمنيت لها نهاية أسبوع سعيدة. التفت لأجد أن صديقي عادل كان يوثّق لقاءنا هذا بالصور، بينما يكاد يسقط هاتفه الجوال منه من شدة الضحك الذي يحاول كتمانه. ما إن رأيته على هذا الشأن حتى انفجرنا ضاحكين على حالنا مع السيدة متعكرة المزاج والتي ظنناها السيدة كرونهايمر، التي يبدو أنها قد ماتت أو هاجرت منذ عقود طويلة.

قررت أن هذه هي نهاية مغامرة الرسالة المفقودة، فلم يكن بإمكاني، عبر الوسائل المتاحة لي، التوصل إلى مكان السيدة كرونهايمر تحديدًا، إذ ربما تكون مدفونة في مقبرة مجاورة أو ربما في جزيرة بعيدة أو في بلدة ما في ما وراء البحار. أعترف بأنني أصبت بخيبة أمل جراء النهاية غير المثيرة لمغامرة البحث عن صاحبة الرسالة، إلّا أنني أدركت أن متعة السفر الحقيقية لا تكمن في جهة الوصول بل في الرحلة إليها!

العلم المقلوب

إسطنبول، تركيا. صيف 2010

أيقظتني رائحة الإفطار الزكية الذي أعدته أمي في ذلك الصباح من صباحات صيف اسطنبول الدافئة. امتزجت أصوات زقزقة العصافير في الخارج مع زقزقة عصافير بطني الذي ظلّ خاويًا منذ أن تناولت عددًا لا بأس به من كعك «السميت» المدوّر والمزيّن بالسمسم مساء البارحة أمام خليج البسفور. قمت بطقوس ما بعد الاستيقاظ، من غسيل الوجه وتنظيف الأسنان ونحو ذلك، واتجهت لأقبّل رأس أمي التي شاركتها الإفطار مع بعض إخوتي الصغار.

كنت قد قدمت مع عائلتي إلى إسطنبول قبل عدة أيام ونزلنا في منطقة السلطان أحمد الواقعة في الجانب الأوروبي من هذه المدينة الضخمة. تعد منطقة السلطان أحمد هذه أقدم مناطق إسطنبول ومقصد سياحها الأول، إذ تحوي أشهر معالم المدينة، كجامع السلطان أحمد المعروف بـ«الجامع الأزرق» ومتحف آيا صوفيا الشهير الذي بني أساسًا ككنيسة أرثوذكسية في القرن الرابع الميلادي قبل أن يصيره محمد الفاتح جامعًا عقب فتحه العظيم لهذه المدينة في منتصف القرن الخامس عشر، ولم يزل كذلك حتى حوِّل متحفًا عاما 1931 م بعد علمنة الدولة التركية إبّان سقوط الدولة العثمانية.

كانت الشقة التي استأجرناها تقع ضمن مبنى يعني اسمه بالتركية «المنزل الحجري»، ورغم أن الاسم يوحي بعراقة المكان إلّا أن الشقة كانت مجهّزة بتجهيزات محدثة ومؤثثة بأثاث معاصر، وإن كان قد زخرف ونمّق ليبدو قديمًا. ظللت مع أمي وإخوتي نجهّز أنفسنا لرحلة اليوم ريثما يأتي أبي الذي خرج منذ الصباح الباكر لبعض شأنه. كنا قد عزمنا ذلك اليوم على زيارة الجانب الآسيوي من إسطنبول واستطلاع أهم معالمه ومزاراته. تشتهر إسطنبول بكونها مدينة تقع على قارتين كما هو معلوم، لكن العجيب أن معظم أجزاء المدينة الهامة، القديمة والحديثة، تقع على الجانب الأوروبي رغم كون تركيا تمتد في الجانب الآسيوي امتدادًا يفوق امتدادها الأوروبي بنحو اثنين وثلاثين مرة! لن تكون هذه المرة الأولى التي نزور فيها قارتين في يوم واحد، ففي الواقع أنّنا لمّا أقلعت طائرتنا من الرياض توقفنا في القاهرة (ترانزيت) قبل أن نصعد طائرة أخرى متجهة إلى مطار أتاتورك الدولي الواقع في الجانب الأوروبي من إسطنبول، وبهذا نكون قد تواجدنا في ثلاث قارات (آسيا وإفريقيا وأوربا) في يوم واحد!

طُرق باب شقتنا فعلمنا أنه أبي، لذا حملنا حقائب النزهة الصغيرة واتجهنا جميعًا إلى الأسفل حيث كانت تنتظرنا حافلة صغيرة رمادية اللون كنا قد استأجرناها مع سائقها التركي لكي يقود مجموعتنا العائلية في رحلتنا الاستكشافية هذه. أخذنا مقاعدنا في الحافلة التي انطلقت بنا تقطع بسرعة معتدلة طرق منطقة السلطان أحمد الضيقة والمرصوفة بالحجارة. كانت الشمس ساطعة رغم نسيم الهواء العليل لذا وضعت نظارتي الشمسية بينما كان السائق يحاول أن يمرر حافلته الصغيرة بين الأزقة والمنازل القديمة المتراصة. لم يفوّت

تجار السياحة فرصة استغلال المنازل والمباني القديمة في هذه المنطقة، فحولوا كثيرًا منها نُزلاً سياحية من فنادق وشقق سكنية وغيرها طمعًا بأموال السياح الذين يفضلون المبيت في هذه البلدة القديمة القريبة من المعالم السياحية الشهيرة. كانت الحافلة تتمايل جراء انخفاض سرعتها ومرورها فوق الفراغات التي تفصل بين الحجارة المرصوفة بها الطريق، وكان مجمل الطريق منحدرًا حيث يؤدي في النهاية إلى خليج البوسفور عبر بوابات سور المدينة القديم.

وما إن تراءت أمامنا بوابة من بوابات السور الضيقة والمنخفضة التي بنيت أساسًا لمرور البشر والدواب حتى لفت نظري شيء على يسار الطريق كنا نقترب منه. كان فندقًا صغيرًا متواضع الحال يعلّق فوق بوابته التي تعلو سلمًا قصيرًا أعلامًا صغيرة لبلدان شتى كما يفعل غيره من الفنادق، لكن شيئًا ما لم يكن صحيحًا! خلعت نظارتي الشمسية لأتحقق مما أرى بينما كانت حافلتنا تقترب من بوابة السور ببطء مما مكنني من التمعن بالمنظر الذي أمامي. ركّزت نظري بشكل أدق فلما حاذينا الفندق تمامًا صدق ما كنت أره! كان علمنا، علم المملكة العربية السعودية، يرفرف مقلوبًا!

***

ذُهلت ممّا رأيت وخلت نظري قد خُدع جراء سطوع الشمس وقوة ضوئها، إلّا أنني كنت أدرك تمامًا أن ما رأيته كان علمنا وقد علّق مقلوبًا! راحت التساؤلات تجول في خاطري حول ما إذا كان العمل مقصودًا أم كان محض خطأ بريء. لا شك أن الفندق قد علّق علمنا لكون العديد من مرتاديه من السعوديين، فلماذا إذًا لم ينبته أحدهم

لهذا الخطأ الشنيع؟! ربما لم يبالوا وربما قد علّق العلم لتوّه، أو ربما، ببساطة، خدعتني عيني!

بعد مداولات ومشاورات حثيثة مع نفسي، آثرت السكوت وعدم إطلاع أهلي على الأمر حتى نعود في المساء لأجد حلاً لهذه المشكلة التي بدأت ببث القلق في نفسي. كيف لا وأنا أرى علمنا، وما يحمله من شهادة التوحيد، يرفرف مقلوبًا دون أن أتصرف! كان ذلك اليوم أطول أيام الرحلة بالنسبة إليّ، فمع كل ثانية تمر كنت أستذكر صورة العلم وهو يرفرف مقلوبًا حتى كدت أن أنفجر في آخر النهار من شدة التفكير والهمّ حتى أنني ندمت أشد الندم على عدم إيقافي للحافلة ذلك الصباح لأخبر العاملين بالفندق بشأن العلم المقلوب!

بعد انقضاء ساعات كأنّها الدهر بطوله، عدنا قافلين إلى منطقة السلطان أحمد بعدما انصرم النهار وحلّ المساء سالكين نفس الطريق الذي سلكناها في الخروج. ما إن دلفت الحافلة من بوابة السور حتى تسمّرت على يمين الحافلة لأتأكد من موضع العلم. رغم الظلام الذي غلّف المكان إلّا أن إضاءة الطريق الصفراء كانت كفيلة بأن تجعلني أبصره، علم بلادي وحامل شهادة التوحيد وقد انسدل مقلوبًا من ساريته دون حراك، وكأنه حزين بسبب تجاهلي له منذ الصباح! تجاوزنا الفندق بينما رحت أحفظ معالم الطريق لكي آتي له بعد قليل عندما يغلب النعاس أفراد أسرتي. لم أشأ أن أخبر والديّ بخصوص العلم ابتداءً، ربما لأنّني خشيت أن يعارضا ذهابي إلى الفندق خوفًا عليّ، وربما لأنني وددت أن أحل الإشكال لوحدي. لم تصل الساعة إلى الحادية عشر والنصف ليلاً حتى خلد الجميع إلى النوم بينما كنت

أتقلّب في فراشي متظاهرًا بنوم عميق. عمّ السكون المكان فرأيتها فرصة سانحة للتسلل والخروج من الشقة. ارتديت سترة خفيفة فوق بجامة النوم واتجهت إلى الخارج بعدما أخذت مفاتيح الشقة. كان الوقت حينها يعد متأخرًا في تلك البقعة من إسطنبول، فالدكاكين والمتاجر مقفلة والممرات خاوية إلّا من بعض المارة والقطط الأليفة.

اتجهت صوب الفندق، الذي لم يكن يبعد بتقديري سوى عدة دقائق مشيًا، سالكًا الطريق الذي حفظت معالمه لما كنت في الحافلة. قررت السير وسط الطرقات المعبدة بالحجارة متجنبًا الأماكن الظلماء ما استطعت، فرغم أن إسطنبول مدينة آمنة في العموم إلّا أن الحذر واجب خاصة في هذا الوقت المتأخر من الليل. كانت الشوارع مضاءة بإضاءة صفراء تبعث على الهدوء وتزيد من شعور المرء بالعزلة عن العالم الحديث وهو يسير متنقّلاً بين منازل ومبانٍ بنيت في عصور قديمة قد خلت. رفعت رأسي إلى السماء لأجد القمر وقد اكتمل بدرًا. توقفت مكاني لأستشعر ذلك الشعور الفاتن الذي يجتاحني لما تتملكني لحظة استثنائية في السفر، بدر منوّر في السماء القاتمة وأرض مرصوفة بالحجارة وسط بلدة عمرها ألفَا عام، أسير فيها وحيدًا متجهًا صوب مغامرة غير محسوبة العواقب! أي كمال يفوق ذلك في السفر؟!



كان لقطّ متشرد رأي آخر، إذ أخذ يعبث بقدمي حالما توقفت لأغلق عينَيّ مستغرقًا في لحظة سحر السفر تلك. نهرته بقدمي وأكملت مسيري. بعدما قطعت طريقين أو ثلاثة انتهى بي الأمر إلى زاوية يتفرع من عندها الطريق الذي يؤدي إلى الفندق المقصود. ترددت قليلاً إلا أنني عزمت على ما أنا بصدده إذ لن يعرف النوم طريقًا إليّ إلاَّ بعد أن يوضع ذلك العلم في موضعه الصحيح. تقدمت نحو الزاوية ثم انعطفت يسارًا من عندها متجهًا ناحية الفندق الذي بدا في منتصف الطريق.

كان الطريق يفصل الفندق والمباني المجاورة له عن حديقة صغيرة غابت عنها يد العناية طويلاً، إذ نبتت على أطرافها الحشائش وتمايلت من فوقها أغصان الأشجار التي امتدت لتظلل جزءًا من الطريق لتحرمه من ضوء المصابيح الصفراء، مما جعله أكثر ظلمة من غيره. اقتربت إلى الفندق أكثر. كانت بوابته الصغيرة تعلو سلمًا حجريًا صغيرًا مزيّن بسياج حديدي عتيق. الملفت للنظر، وعلى رغم كون معظم الطرقات خاوية، وقوف مجموعة من الرجال أمام البوابة وعلى السلم وكانوا يدخّنون السجائر ويتضاحكون بصوت عالٍ. توقفت لبرهة لأستطلع الأمر، إذ خشيت أن يكون الفندق من طراز تلك الفنادق الوضيعة التي يسهر بها الشبان المجّان والخلعاء. ترددت قليلاً وحدثتني نفسي بأن أعود أدراجي إلى سريري الآمن في الشقة، إلّا أنني ما إن رأيت العلم المقلوب حتى بثّ في نفسي حماسة ورغبة. «لم التردد؟!» أخذت أتساءل : «أليست الحياة مغامرة جريئة أو لا شي كمَا تصرّح هيلين كيلر؟!» لذا توكلت على الله موفقًا بشرف غايتي وكريم مقصدي!

***

كان هناك نفر من الشبان يقفون أمام بوابة الفندق الذي بدا صغيرًا ومن درجة نجمتين أو ثلاثة على الأكثر. كان ثلاثة منهم يدخنون وهم متكؤن على سياج السلم الحديدي من الأعلى، بينما استند الرابع على البوابة السوداء. كان جدار الفندق الخارجي بُنّيًا فاتحًا وتظهر عليه بعض التشققات لذا استنتجت أنه لم يرمم منذ زمن. تقدمت نحو هؤلاء الشبان وألقيت عليهم تحية الإسلام التي أجابوني بمثلها بينما كنت أصعد درجات السلم الصغير. أتاح الرجل

الذي قرب البوابة المسار لي لكي أدخل إذ ظنني نزيلاً في الفندق لكنني أشرت بيدي نافيًا. وما إن سألته عما إن كان يتحدث الإنجليزية أم العربية، حتى انبرى أحدهم وكان ضخم الجثة فاتحًا قميصه ليظهر سلسالاً من الفضة يغوص في بحر شعر صدره الكث وقال بإنجليزية شديدة الركاكة:

«أنا أتكلم الإنجليزية!»

ثم تابع ضاحكًا: «أنا المترجم هنا!» فأتبعه رفقته ضحكًا وكأنه قال طرفة حسنة. سألني إن كنت أبحث عن غرفة فأخبرته بأنني هنا لأمر آخر أريد محادثة مدير الفندق بشأنه. عندها رمقني بنظرة فاحصة ثم ترجم كلامي للرجل الواقف إلى جانب الباب، إذ كان على ما يبدو مدير الفندق أو عامل الاستقبال. ما إن فعل ذلك حتى نظر إلى الجميع بفضول متسائلين عن ماهية الشيء الذي جلبني في منتصف الليل إلى هذا المكان!

رغم أن رغبتي كانت أن أحادث المدير لوحده، إلّا أنني بدأت حديثي وقلت:

«كلنا إخوة مسلمون وأنا أعرف أنكم تحبون الخير...»

فجأة، قام الرجل ضخم الجثة بإطفاء سيجارته وطالب رفيقيه المدخنين بعمل المثل، إذ ظن أنني جئت لأحادثهم بهذا الأمر! عندها وضّحت قائلاً:

«لا لا لا، ليس للأمر علاقة بالسجائر!» وتابعت محاولاً تلطيف الجو: «بل الأمر أبسط بكثير!»

لم يقُم الرجل الضخم بترجمة كلامي هذه المرة بل اكتفى وجهه المتجهم بتوجيه عينيه إليّ دون أن يرمش، ففهمت أنه يقول «اخلص علينا!». بلعت ريقي مرتبكًا ثم أشرت بإصبعي إلى الأعلام وقلت:

«إنه العلم! علم السعودية مقلوب هنا!»

رفع الرجل نظره بسرعة بينما أخذ الجميع يقلّده دون أن يعوا ما قلت له وطالبوه بأن يترجم ما قلته له للتو! بعد أن ترجم لهم تبادلوا نظرات خاطفة وكلمات مقتضبة وهم ينظرون إلى أعلى ناحية العلم، فتكلّم أحدهم فطلبت أن يُترجم كلامه فإذا به يسأل إن كنت سعوديًا!

«آه! ليس الأمر بكوني سعوديًا أم لا، فهذا العلم يحوي شهادة التوحيد ولن يقبل أي مسلم بأن يراه مقبولاً، وأنتم شباب مسلمون وتدركون ذلك!»

«هل أنت سعودي؟» سألني الرجل الضخم مرة أخرى بهدوء فلما جاوبته بالإيجاب التفت إليهم وتحادث معهم بشيء لم أفهمه إلّا أنه أشار إلى العلم ثم التفت إلي وقد علته ابتسامة لم أفسر مغزاها وقال:

«حسنًا يا صديقي سنقوم بتعديله» ثم اقترب مني ووضع ذراعه خلف عنقي واستند على كتفي. كانت رائحة العرق والدخان التي تفوح منه تبعث على الغثيان، ولم يكن مظهره بأحسن حال إذ كان شعر صدره

الكث وبشاعة ملامحه تجلب التقزز. أخرج سيجارة أشعلها رفيق له وجذب منها الدخان بشغف وأخذ يقول موجهًا كلامه لي بعدما افترت شفتاه عن ابتسامة مفاجئة أخرى: «أنت شاب يافع وشجاع ويبدو أنك حسن المعشر، أخبرني أين تسكن؟»

لم يرق لي تصرفه ذلك ولا حتى سؤاله، فحاولت تجاهل السؤال وأبعدت يده عني. عندها قال بتحذلق:

«يبدو أنك خائف! لا داعيَ لذلك فنحن إخوة كما قلت قبل قليل!» ثم تحدث مع أحد رفقته الذي توجه إلى داخل بهو الفندق الصغير. عرض علي سيجارة فرفضت وأخبرتهم بأنني هنا فقط للتأكد بأن العلَم موضوع بحاله الصحيحة. تقدم الرجل الضخم مرة أخرى ووضع يده خلف عنقي كما فعل في المرة الأولى لكنني لم أمانع هذه المرة لسبب ما.

عاود السؤال مرة أخرى:

«لم تخبرني أين تسكن!»

«في مكان قريب من هنا!»

«لوحدك أم مع عائلتك؟» «مع عائلتي. لا أفهم لم تسألني هذه الأسئلة» تابعت وقد ظهر علي بعض الارتباك «فقط أخبرني إن كان بمقدوركم تعديل العلَم أم لا؟»

«يبدو أنك صعب المراس» قال ذلك وهو ينفث دخانًا من سيجارته

نتنة الرائحة. عندها رأيت الشاب الذي دخل إلى البهو وقد كان يمد يده من خلف مكتب الاستقبال ليبحث عن شيء ما. حدّثت نفسي بأنه كان يبحث عن مفتاح مخزن أو ربما عصا طويلة ليستعين بها في إنزال العلَم المقلوب وتعديله.

شدد الرجل الضخم من اتكائه على كتفي، بينما كان هو وأصحابه يتبادلون النظرات والكلمات المقتضبة وهم يدخنون السجائر بهدوء قاتل. أوجست في نفسي خيفة عندما نظر الجميع إلى الشاب داخل البهو الذي توقف ولوهلة توقف عن تحريك يده التي كان يتحسس بها شيئًا من خلف المكتب إذ بدا واضحًا أنه وجد ضالته. سحب يده من المكتب ممسكًا بما كان يبحث عنه. لم يكن مفتاحًا ولا عصًا طويلة، بل كانت سكّينا!

***

انتفضت في مكاني بينما كان الرجل يتقدم إلينا بهدوء. كان شابًا طويلاً مرتديًا قميصًا وبنطالاً أسودين وكان يتلاعب بالسكين بيده اليمنى وهو يوجه نظراته إلى الأسفل دون أن ينظر إلي أو لأصحابه. وقفت مشدوهًا لا أدري ما أصنع، فالشاب ضخم يضع يده حول عنقي وهو ينفث الدخان من سيجارته ويبادل أصحابه النظرات والعبارات القصيرة. تقدّم الرجل حامل السكين إلينا من داخل الفندق بينما أخذت الأفكار تتصارع داخلي. «أهرب أهرب!» صرخت غريزة البقاء داخلي بينما عارضتها مبادئي التي كانت تهتز منذ الصباح «أنت هنا لهدف نبيل! يجب أن تقاوم يجب أن تدافع يجب أن تصمد!».

أعلن جسدي حالة الطوارئ والتعبئة العامة، فراحت دقات قلبي تتسارع وأنفاسي تتتابع، وبدأ العرق بالانتشار على جبيني وأخذت عيناي بالاتساع. شعرت بالأدرينالين ينتشر في كافة أنحاء جسدي وشعرت أن طاقة هائلة قد بعثت فيَّ وأخذت غريزة البقاء تصيح داخلي: «نصف الشجاعة في الهروب يا عبدالله!» نظرت إلى الحال التي وجدتني فيها، فقد كنت شابًا مسالمًا معتدل الحجم يقف في منتصف الليل أمام فندق صغير في بلدة قديمة منعزلاً عن المكان والزمان ويحيط به شبان ضخام بدت على بعضهم علامات الشراسة واللامبالاة. «حتى لو كنت شجاعًا، فالكثرة تغلب الشجاعة يا عبدالله!» حدثتني غريزة البقاء محاولة إغرائي بالهروب والنجاة بحياتي.

ولوهلة، كدت أن أستجيب لهذا الإغراء! إلّا أنني صمدت في مكاني حاميًا لمبادئي التي أعيش لأجلها، ومنتصرًا لاعتقاداتي التي طالما آمنت بها، ومدافعًا عن علَم بلادي وشهادة التوحيد المسطرة فيه. وقف متنصبًا وقد خرج الرجل من بوابة الفندق والسكين متوسطة الحجم منتصبة حادّة تملأ يده. جاءت اللحظة! تخيّلته يطعنني ويغرز سكينه الحادة تلك في جسدي. تخيّلت الدم يتطاير مني بينما ينظر إليّ هؤلاء الأشرار وهم يتضاحكون بعدما أوقعوني بشرَكهم. «ماذا سأفعل حينها؟ سأتصل بالشرطة! هل يتحدثون الإنجليزية؟ لا لا لا، سأتصل بزميلتي المحامية التركية التي تعرفت عليها في إنجلترا وتناولت معها طعام الغداء قبل أيام هنا في إسطنبول قرب إحدى المحاكم بعدما كسبت قضية فيها! نعم لقد زودتني ببطاقتها، سأتصل بها وستأتي مع فريق من المحامين والشرطة لإغلاق هذا الفندق وإلقاء القبض على هؤلاء المجرمين الذين امتد شرهم من قلب الأعلام إلى طعن الشبّان!»

تابعت الأفكار صراعها داخل عقلي بينما لم يكن بيني وبين اليد التي تحمل السكين سوى مسافة قصيرة «سأتصل بالسفارة! نعم نعم، أنا هنا لأدافع عن بلدي وعلمه، وحري بهم بأن يأتوا ليدافعوا عني! لن أتصل بالمحامية بل بالسفارة!».

قررت قطع أفكاري والاتصال بواقعي الذي أعيشه. خرج الرجل وهو يحمل السكين من بوابة الفندق التي كنت واقفًا أمامها مستندًا على سياج السلم الحديدي ومحاطًا بذراع الرجل الضخم. خلت أن قلبي سينخلع من مكانه من هول دقاته التي كنت أسمع صوتها داخلي، ورغم جحوظ عيني إلّا أنني كنت بالكاد أرى إذ شعرت بأن كافة قوى جسدي قد تجمعت في مقدمة بطني لتشدّ عضلاته ولتعزز قوته في مواجهة السكين الحادة! اقترب الرجل أكثر حتى حاذاني ولم يكن بيني وبينه سوى سنتيمترات معدودة، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى العلم وأرخيت يدَي دون أن أبدي أية مقاومة، شددت على بطني ونفسي تحدثني:»انعم بالسلام يا عبدالله، فستكون شهيد العلم!».

***

لم أزل على حالي تلك حتى تجاوزني الرجل نازلاً السلم. اقشعر جلدي وانتفضت يداي وأنزلت اليد الضخمة التي على عنقي وأنا أنظر إلى أين سيذهب هذا الرجل. لم أعر الشاب الضخم ورفيقيه أي اهتمام ورحت أنظر إلى الشاب الذي يحمل السكين وهو يقترب من سيارة حمراء صغيرة متوقفة أمام السلم على طرف الشارع. فجأة، حرّك الرجل السكين لتتدلى منها عدة مفاتيح! ركزت نظري لأدرك أن السكين لم تعد كونها ميدالية مفاتيح مرعبة الشكل! حمدت الله وأنا

أشعر بالخلاص. أدار الرجل مقبض السيارة بهدوء شديد في حين ربت الرجل الضخم على كتفي قائلاً:

«لم تخبرني باسمك يا صاح!»

«اسمي عبدالله!» قلت ذلك دون أن ألتفت إليه وأنا أركز ناظري على الفتى ذي القميص الأسود وهو يبحث في السيارة عن شيء ما. ما أكثر ما يبحث عنه ذلك الفتى! دارت في رأسي أفكار تشاؤمية عدة، ربما كان مصدرها غريزة البقاء لتحفزني على الهرب «ماذا لو كان يبحث عن مسدس ليقتلني به؟ ماذا لو كان رشّاشًا؟ لا لا ليس لهذه الدرجة!».

فجأة خرج كلب من ظلمة الشارع وأخذ ينبح بشدة عليّ من أسفل السور، كان منظره مخيفًا وزادني رعبًا على الرعب الذي كنت أعيشه. لا بد أنه شمّ رائحة الأدرينالين الذي أنتجه جسمي بكميات هائلة حتى انتشر في الجو. أخذ الكلب البني ينبح ويتحرك بشراسة جيئة وذهابًا. كان الموقف قد وصل حينها حدًّا لا يسعني معه الاحتمال، نظرت إلى الكلب من فوق السلالم وأنا أحدث نفسي بأنه رسالة من الرب بأن أهرب!

ما إن هرب الكلب جراء نهر الفتى الضخم له حتى نزلت السلالم بسرعة دون مقدمات. نظر إلي الفتى عند السيارة وأخذ يحدثني بتركية فهمت منها أنه يسألني ألّا أذهب. هززت رأسي نافيًا وأنا أكمل مسيري حتى سمعت الرجل الضخم يقول بصوت عال:

«انتظر انتظر! ألا تريد أن ترانا ونحن نعدل العلم» نظرت إليه نظرة أتبعتها بأخرى نحو الشاب الذي يفتّش السيارة وإذا به يخرج عصًا معدنية طويلة ذات نهاية أشبه بنصف حلقة كتلك التي تعلّق على الستائر. أدركت أنهم سيستخدمون العصا بإنزال العلم وتعديله إلّا أنني آثرت عدم البقاء. قلت لهم وقد برئت ساحتهم من اتهامي أنني أثق بهم ولا داعي للانتظار أكثر خاصة أن الوقت قد تأخر والنعاس قد تمكن مني.

حثثت السير إلى المنزل وأنا أعرف أن النعاس قد هرب مني هروب الطريدة من الصيّاد، فالطاقة التي بعثت فيَّ قبل دقائق كانت كفيلة بأن تجعلني متيقظًا لعدة أيام. قطعت الطريق نحو الشقة مسارعًا الخطى حتى وصلت إلى مقر سكننا المسمى بـ«البيت الحجري»، دفعت الباب الخارجي بعدما فتحته بالمفتاح، ولم أشعر بالأمان حتى أغلقته. استندت على جدار الممر المظلم وأنا أحاول استجماع أنفاسي وأهدئ من روعي. أغمضت عيني ووضعت يدي على قلبي الذي كان ينبض بشدة طالبًا الصفح منه ومتسائلاً عما إن كان ما فعلته صحيحًا ويستحق التضحية. فسّرت البرودة التي بدأت باكتساح جسدي والسلام الذي عمّ روحي بأنها إجابات على تساؤلي. أي أمر أعظم وأفخر، وأسنَى وأكبر من الدفاع عن رمز ديني وشعار بلادي؟ وأي شيء حقيق بالتضحية أكثر من هذا؟!

لم تتربع الشمس في منتصف السماء حتى كنت واقفًا أمام الفندق الذي علّقت فوقه الأعلام. وقفت ويداي مندستان داخل جيوب بنطالي أتأمل المنظر الذي أمامي ونسيم الصباح يداعب شعري. كان

علم بلادي يرفرف وهو معلّق على وضعيته الصحيحة. خيّل لي أنه كان يرفرف بشكل أسرع من بقية الأعلام وكأنه يشكرني ويشيد بما فعلته لأجله. كان إحساسًا جميلاً وشعورًا فاتنًا لم أعهده من قبل. رفعت رأسي منتشيًا وكلي رضًا وفخرا!

الحُمّى

فلورنسا وبيزا، إيطاليا. صيف 2009.

فتحت عينَيّ ذات صباح صيفي حار في روما، لم يكن المنبه هو الذي أيقظني حينها، فلقد انتبهت وأنا أشعر بحر شديد تصبب منه عرقي بكثرة، وبصداع شديد ثَقُل معه رأسي وخمول عارم ضعف معه جسدي. طفت بنظري بهدوء من سريري العلوي نحو الغرفة الواسعة في ذلك الهوستل الواقع في وسط المدينة، كان الجميع يغط في نوم عميق بينما كانت المراوح المنتصبة في زوايا الغرفة تحرك الهواء الساكن بشكل خفف قليلاً من حرارة الجو وانغلاق المكان.

كان ذلك آخر يوم لي في روما أثناء تجولي في إيطاليا، وكان علي زيارة بعض المعالم قبل أن آخذ القطار المنطلق نحو فلورنسا قبل منتصف النهار لذا لم يكن لدي ما أضيعه من الوقت. حملت نفسي وأنا أتساءل عما أصابني من التعب والجهد، فحتى مساء البارحة لم أكن أشكو شيئًا. تحممت بماء بارد علّه يخفف حرارة جسدي وصليت قبل أن أتجه نحو مكتب الاستقبال لأسلم المفاتيح وأغادر. يقع الهوستل هذا في دورين علويين في عمارة ضخمة قديمة يشوبها التهالك ويعتريها القِدم لكن يميزها موقعها المناسب وقربها من محطة القطار وبعض المواقع التاريخية. كان على مكتب الاستقبال شاب يغط هو الآخر

في نوم عميق، ميّزته بسرعة إذ كان هو من استقبلني لما وصلت إلى الهوستل قبل عدة أيام، وهو شاب إيطالي ظريف يجري على سجيته ويتسم بالظرافة والمرح، ومن ذلك أنه لما رأى جوازي السعودي لأول مرة رفع قدميه على الطاولة واستند إلى كرسيه ويديه خلف رأسه وقال ممازحًا:

«أنت من المفترض أن تذهب إلى فندق خمسة نجوم وتستلقي على أريكة هكذا، لا أن تأتي لتسكن في هوستل متواضع كهذا!»

أيقظته وفزّ من نومه وأخبرته بأنني مغادر، فقام من مكانه بهدوء وضمّني إلى صدره وأغمض عينيه وسكن وسكت وأطال الاحتضان حتى ظننت أنه يكمل نومه، فلما حاولت دفعه برويّة نهرني بهدوء وقال: «أنت أول سعودي يأتي إلى هذا المكان ومتأكد أنك الأخير كذلك، لذا دعني أحضنك قليلاً» ضحكت وضممته أنا بدوري.

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا عندما توقفت حاملاً حقيبة ظهري أمام كنيسة سانتا ماريا ماجوري وهي كنيسة كاثوليكية تملكها الفاتيكان رغم وقوعها خارج حدود تلك «الدولة»، وهي آخر المعالم الهامة التي كان علي زيارتها في روما، واللطيف في الأمر أنها كانت أقرب هذه المعالم لمقر سكني لكنني لم أكن بدعًا من معظم البشر الذين يميلون إلى تأجيل الأشياء القريبة منهم إلى النهاية، بل ربما تجاهلوها تمامًا لأنهم يحدثون أنفسهم بأن معهم الوقت الكافي لزيارتها فتمر الشهور والسنون ويرحلون من المكان دون أن يتوقفوا عندها، تمامًا مثل الكاتب المصري أنيس منصور رحمه الله الذي طاف العالم وزار معظم معالمه دون أن يزور أهرام الجيزة رغم أنه

كان يمر بقربها لعشرات السنين!

لما صار الوقت ضحى حثثت خطاي قاصدًا محطة القطار، كانت الشمس تتربع في كبد السماء والحر شديد والريح ساكنة فاشتد تعبي وزاد صداع رأسي. توقفت لآخذ دواءً للصداع قبل أن أرمي جسدي فوق مكاني في القطار الذي كان جيّد التهوية فاخر التصميم، وما إن تحرك شمالاً صوب فلورنسا حتى جلس أمامي رجل متحول إلى إمرأة قبيح المنظر منكر الخلقة كدأب من هم مثله فلقد صبغ شعره بلون أحمر وارتدى فستانًا سماويًا ضيّقًا يظهر من أعلاه صدره الاصطناعي القبيح، فتذكرت أولئك المتحولين البشعين الذين صادفتهم وجادلتهم في القطار الليلي بين فيينا والبندقية قبل نحو عشرة أيام، فأخذت أنظر إليه وينظر إليّ شزرًا وكأنه يعلم بحالي معهم فتوهمت أن للمتحولين جمعية سرية يتبادلون فيها معلومات من يجابههم حتى يتقوا شره وربما يثبوا عليه ويفتكوا به! استعذت بالله وأنا أتذكر الكلاب الكورية التي تهاجم كل شخص يأكل الكلاب هناك إذ لديها حاسة تخبرها بذلك فسبحان من علّمها!

أخذت غفوة قليلة وما لبثت أن انتبهت وقد اشتدت حرارتي وراحت أطرافي ترتجف وأسناني تتصادم حتى نظر إليّ الرجل المتحول فما وسعه أن يبقى فحمل حقيبته النسائية وراح يتمايل غير قادر على الاستقامة وهو ينتعل حذاءًا نسائيًا بكعب عال. لم ينسلخ ذلك المخلوق من رجولته الجسدية فحسب، بل من المعنوية كذلك فلم يطلب المساعدة لي ولم يخبر بشأني أحدًا بل اكتفى الوضيع بالهروب! مضت عدة دقائق وأنا أحاول أن أهدئ نفسي وأسترخي قليلاً لكن حرارتي

جسدي كان لها رأي آخر، إذ أخذت بالاشتداد وأخذ العرق يتصبب من جبيني بغزارة. لم أنتبه إلا وعامل القطار أقبل يتحقق من التذاكر فأشرت إليه فلما رآني على حالي تلك أحضر لي مناديلَ ثقيلة وماء باردًا ودواءً مخففًا للصداع. هدأت نفسي قليلاً واستسلمت للنوم حتى أيقظتني جلبة في القطار فسرعان ما علمت بأن القطار غيّر وجهته لوجود إضرابات في بعض المحطات مما يعني زيادة مدة الرحلة التي ستصل إلى نحو خمس ساعات. لم أبالِ كثيرًا إذ كنت مرتاحًا في نومي غير أن حرارتي أخذت بالارتفاع. حاولت لأن أتجاهلها وسلّيت نفسي بقراءة كتاب معي إلّا أن الله منّ علي بعدها بنومة طويلة علِمتُ، من نظرات الركاب إليّ عندما وصلنا، أنها كانت زاخرة بسيمفونيات الشخير وأصوات الإرهاق! حملت نفسي بتثاقل من كرسيي ونزلت من القطار أريد الهوستل الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن المحطة، فلما وصلته وقد أعياني التعب قدمت جوازي إلى مكتب الاستقبال فلما رأى أحدهم الجواز أبدى – كالعادة – تعجبه وأخبرني، كالعادة كذلك، أنني أول سعودي ينزل في هذا الهوستل إلا أنني لم أُظهر، على غير العادة، أية تفاعل إذ كان التعب قد تمكّن مني ولم يجعلني في مزاج جيد لتبادل المجاملات. حملت حقيبتي وطلعت الدرج صوب غرفتي التي كانت تحوي خمسة سرر خاوية. اخترت سريرًا وحيدًا في زاوية المكان وألقيت نفسي عليه وكنت أشعر أن وزن رأسي حِمل بعير. دون أن أشعر، غططت بنوم قصير ومركّز من قبيل «قيلولة طاقة» شعرت بعده ببعض النشاط، فقررت الاستحمام بماء بارد لأخفف حرارة جسدي وأستجمع طاقتي. بعدما صليت الظهر والعصر جمعًا وقصرًا نزلت إلى الأسفل وكانت الساعة تقترب من الثالثة ظهرًا.

كان عامل الاستقبال اللطيف ينظر إلي من بعيد وكأنه يعرض خدماته فتقدمت إليه طالبًا منه خريطة للمدينة، فمدها لي وهو ينظر إلى وجهي الشاحب قائلاً:

- هل أنت بخير؟ لا تبدو على ما يرام!

- أنا بخير، فقط مرهق جراء السفر.

-- حسنًا لكنني لا أشجعك بأن تتجول في المدينة وأنت على هذه الحال، أقترح أن تتجه لترى طبيبًا، هناك عيادة في الجوار.

استصوبت رأيه لكنني خشيت فوات الوقت وانقضاء النهار دون أن أزور معالم المدينة، خاصة وأنني سأغادرها ظهر الغد. خرجت من الهوستل بعدما شكرت الشاب على اهتمامه وسرت قاصدًا أشهر معالم المدينة؛ كاتدرائية فلورنسا! ما إن وطئت الساحة التي تقع فيها الكاتدرائية حتى شعرت بزيادة في النشاط، فزحام الناس في المقاهي الجميلة والمتاجر العتيقة تضفي على النفس سرورًا وفرحًا. دخلت الكاتدرائية التي بنيت في أواسط القرن الخامس عشر وكان خارجها أجمل من داخلها، إذ كانت جدرانها الداخلية بيضاء خالية من أية زخارف تتناسب مع طراز الكاتدرائية الخارجي.

رأيت زحامًا في أحد أركانها فلما سألت قالوا بأنهم يشترون تذاكر صعود برج الكاتدرائية الشهير، فترددت قليلاً بشراء التذكرة إذ تذكرت صعود البرج يتطلب صعود أكثر من 460 عتبة ولم أكن بحال تساعدني على ذلك. لم أفكر كثيرًا وقررت شراء التذكرة وصعود

البرج، فما قيمة زيارة فلورنسا دون صعود أطول أبراجها وأشهرها والتمتع برؤية المدينة العريقة من الأعلى! بدأت بصعود العتبات الحجرية متوكلاً على الله وكانت أول العتبات معتادة إلّا أنها بدأت بالتراص وبدأ الممر يضيق أكثر وأكثر حتى انحبس عنه الهواء وارتفعت فيه الحرارة، إلّا أنني أكملت الصعود وأنا أشعر بأنني مع كل عتبة أعلوها ينقص جزء من طاقتي. لم أستطع التوقف للراحة فالزوار من خلفي كُثر وتوقفي للحظة يعرقلهم جميعًا، فاستجمعت قواي وجسدي قد تثاقل عن المسير وصعدت ونفَسي يكاد يتقطع، فمضت دقائق كأنها ساعات إذ فيها جفّ حلقي وتقاطر العرق من جبيني، فسرت صاعدًا العتبات الحجرية الحمراء وكأنني أسحب عربة ثقيلة من هول ما شعرت به حتى أطليت برأسي على قمة البرج فلفحني نسيم هواء عليل كأنه من نسيم الجنة إذ ما شعرت بأجمل منه قط! فما برحت مكاني أستنشقه وأدفعه داخلي طلبًا للطاقة والقوة حتى دفعني باقي الزوار مطالبينني بالخروج. خرجت وتوقفت أجمع أنفاسي وأمسح عيني التي غزتها قطرات العرق.

توقفت أنظر إلى فلورنسا من الأعلى، كانت أسقف بنيانها الحمراء وأعمدة كنائسها المتناثرة وأزقتها الملتوية تحكي قصة هذه المدينة التي انطلق فيها عصر النهضة الأوروبي، ففي القرن الثالث عشر قادت فلورنسا باقي المدن الإيطالية نحو النهضة العلمية والفكرية والفنية التي بدأت في إيطاليا ثم انتشرت إلى باقي أوروبا لتخلصها من ظلام العصور الوسطى، فكانت المدينة طوال قرون رافدًا للمعارف والآداب ومركزًا للمفكرين والعلماء والفنانين الرواد. رحت أتخيل نيقولا ميكافيللي صاحب كتاب (الأمير) يتجول في طرقات المدينة

مفكرًا في كتابه الذي سيصبح لاحقًا مرجعًا للسياسية الغربية لقرون طويلة. وتأملت في العُمران مُتقن البناء والتصميم مستشعرًا كيف كان مايكل آنجلو يستلهم منه أفكاره الفنية ليخرج لنا بتحف معمارية خالدة قلّ نظيرها.



قبة كاتدرائية فلورنسا الشهيرة كما تظهر من أعلى البرج

كنا في رابعة النهار والشمس تتوسط السماء وحرارتها تكوي الأجساد وكان رأسي يكاد ينفجر من شدة الصداع الذي عاود كرّته علي، فما احتملت البقاء فلما تحركت اختل توازني فأمسكت بشبك حديدي وضع ليحمي الزوار من السقوط فلما لمسته انتفضت يدي بشكل لا إرادي جراء حرارة أسلاكه الشديدة، إلّا أنني مددت يدي وأمسكته إذ شعرت أنني بدوامة شديدة فوق هذا البرج العالي! لم ينتبه أحد لما أنا فيه، فلقد كانوا منشغلين بالتقاط الصور بينما انشغل قليل منهم بالتأمل بالمكان واستشعار تاريخه ومجده، وهذا من عيوب السياحة في العصر الحديث، إذ ينشغل معظم الناس بالتقاط الصور للمكان عن الاستمتاع بالمكان نفسه! أخذت أنفاسًا عميقة وقررت نزول درج جانبي قصير يؤدي إلى مكان مفتوح أسفل قمة البرج، إلا أنني ما إن تحركت حتى شعرت بإحساس الدوامة مرة أخرى فأسرعت بالنزول حتى أدركت آخر عتبة والتي ما إن وطئتها حتى شعرت بأن الدنيا من حولي قد تحوّلت زرقاء اللون وبدا لي كأنني أهبط داخل مصعد سريع، فما انتبهت حتى سقطت على عقبي!

***

«هل أنت بخير؟»

سمعت صوتًا يحدثني بينما أشعر بصفعات خفيفة على خديّ وأنا أهذي كالمحموم. فتحت عينَيّ بهدوء فرأيت فتاة تنظر إلي بجزع.

«آه نعم أنا بخير» جاوبتها بكلمات متثاقلة وتابعت: «منذ متى وأنا على هذه الحالة؟!»

- منذ دقيقة ربما أو أقل، لم تكن على ما يرام منذ كنت في القطار.

- قطار؟ أي قطار؟!!

فأخبرتني أنها كانت تجلس قريبًا مني في القطار ولاحظت أنني متعب خاصة أثناء نومي! شكرتها بلطف وهي تحملني على كتفها، كانت شابة أمريكية في بداية الثلاثينيات من عمرها يرافقها صديقها الذي اكتفى بالوقوف بعيدًا وهو يحمل قارورة ماء بارد كانت الشابة قد وضعت بعضًا منه على رأسي ووجهي. قالت لي والحرص بادٍ عليها:

-- هل تشعر بالتحسن؟ إذا لم تكن كذلك سأرافقك إلى الأسفل لأنه لا يوجد عمال هنا للأسف!

- آه نعم أشعر بتحسن كبير. أقدر لك اهتمامك.

- يجب أن تذهب لرؤية طبيب أو إلى لفندق على الأقل لأخذ قسط من الراحة!

أيّدت رأيها إلّا أن هذا كان يعني أنني سأتنازل عن نهاري الوحيد في فلورنسا. ظللت أفكر بحالي وأنا أنزل العتبات حتى وصلت الأرض، ولما استويت أخبرت جسدي بأن عليه أن ينتظر حتى المساء ليأخذ نصيبه من الراحة!

خرجت من الكاتدرائية ووجدت نفسي وسط ساحتها المملؤة بالمقاهي المظللة فاتخذت لنفسي كرسيًا تحت أحدها اتقاء للشمس

وطلبت من إحدى العاملين ليموناضة باردة وابتعت من بائعة متجولة مروحة إلكترونية صغيرة من قبيل تلك التي تبث رذاذ الماء. أدرت المروحة ورحت أستشعر الهواء البارد الذي تدفعه إليّ وأنا أروي عطشي بالليموناضة المنعشة التي ذكرتني بلقب «السيد ليموناضة» الذي أطلقه علي بعض الأصدقاء الأجانب في بريطانيا، حيث كانوا إذا خرجنا سويًا يشربون البيرة والكحوليات بينما أكتفي أنا دائمًا بشرب الليموناضة! انخفضت نبضات قلبي وهدأ جسمي وشعرت بانخفاض حرارته الشديدة لكن الصداع لم يزل يحكم قبضته على رأسي. قمت بعد ذلك من مكاني ورحت أخترق البلدة القديمة متمتعًا برؤية مبانيها الأثرية وعمارتها المميزة.

زرت ساحة ديلا سجنوريا التي كانت قلب جمهورية فلورنسا في القرون الوسطى، ومتحف أوفيزي الشهير الذي يحوي أفضل مجموعة من أعمال عصر النهضة في العالم وفيها مما يستعظم قدره من نفائس التحف واللوحات، وزرت بعض المباني القديمة التي يدّعي البعض أن حيطانها بُنيت وداخلها لوحات فنية ثمينة حُفظت داخلها، والحق أنني لم أجد لهذا الإدعاء سندًا إلّا ما يرويه عامتهم وما يذكره الكتّاب المولعون بالرمزية.



جانب من البلدة القديمة في فلورنسا

كنت أسير موازيا للحيطان مستظلاً بها اتقاءً للَهيب الشمس، حتى انتهى بي المطاف إلى متحف ليوناردو دا فنشي، وهو متحف صغير فريد خُصص لعرض مجسمات حديثة لتصاميم دا فنشي الأصلية التي سبق بها عصره، كالدبابة الحربية والطائرة الشراعية وقاذفة الأسهم. بلا شك، يعتبر دا فنشي أشهر الفلورانسيين على الإطلاق، وربما أشهر الإيطاليين، إذ كان فريد عصره وقريع زمانه، ويعتبره

الكثير أعظم عبقرية عرفتها البشرية من غير الأنبياء، إذ أبدع بكونه رسامًا ومهندسًا ونحاتًا وغيرها من المهن حتى يذكر أن أمير فلورنسا أعلن عن رغبته بتوظيف رسام ومهندس وعسكري ونحات فتقدم دا فنشي وكتب له رسالة مفادها: «أنا وحدي أغنيكم عنهم جميعًا!» فكان كما قال، فنال من الأمير سني الجوائز ووافر الأعطيات.

ولعل أشهر أعماله هي لوحة الجيوكاندا أو الموناليزا التي لا تقدر بثمن، والتي حيكت حولها الأساطير والنظريات وكانت موضوعًا مفضلاً لكتاب الروايات والمؤرخين على مدى قرون وهي أشهر من أن يُنبه عليها. ولقد علمت من وجودي في أحد المتاحف هناك أن النظرية المفضلة للكثير هي أن المرأة ذات الابتسامة الغريبة في تلك اللوحة الشهيرة لم تكن سوى ليوناردو دا فنشي نفسه إذ كان هو، كما يؤكد الكثير من المؤرخين، مثليًا فرسم نفسه على هيئة شبيهة بامرأة حسناء إذ أراد أن يعبر عن دواخله في لوحة إذ كان مجتمعه حينها يقمع أمثاله ويحتقرهم.

انتهيت من المتحف وقد أعياني التعب فمشيت بتثاقل أشق الأزقة الضيقة حتى كلّت أقدامي من الطواف، فلُذت إلى عتبة متهالكة أمام متجر مغلق وألقيت جسدي فوقها وكانت قلبي يرجف بشدة وحرارتي تكاد تفتك بي فعلمت بأن الوقت قد أزف للذهاب إلى رؤية طبيب فقررت أخذ سيارة أجرة لتقلني إليه، فانتظرت في مكاني وأنا أنظر إلى الشارع ذي المسارين الذي أمامي دون أن ألمح أيًا منها. كان الحر شديدًا وبدأت أشعر بأن صوت الضوضاء حولي بدأ بالتراجع فأغمضت عينَيّ بعدما وضعت يديّ أعلى رأسي.

انتبهت لاحقًا على صوت عالٍ، نظرت وإذا بها سيدة عجوز قصيرة ممتلئة تحمل حقيبة وبعضٍ أكياس التبضع وهي تصرخ في وبرجل كان بجواري، نظرت إليه وإذا به مشرد طويل القامة والرقبة وله لحية طويلة ويعتمر قبعة مهترئة مدبدبة الشكل فهرب بسرعة بينما ظللت أنا أستقبل صيحات العجوز وحيدًا. لم أفهم ما كانت تقوله، لكنني فهمت أنها صاحبة المتجر وأنها تريدني أن أغادر عتبتها، فقمت من مكاني وأنا أتأسف منها فأشارت بيدها - وهي تصرخ بطبيعة الحال - إلى نقطة في الشارع تحوي موقفًا للحافلات وكأنها تقول بأن موقف الحافلات هناك وليس أمام متجرها! تركتها وأنا أنظر إلى الموقف لأرى حافلة سياحية حمراء مفتوحة السقف، فانطلقت نحوها فورًا. رغم أن المدينة صغيرة وبالإمكان التجول فيها على الأقدام إلّا أنني رأيت في الحافلة هذه خلاصي وتحقيق مرادي، فأخيرًا باستطاعتي استكشاف المدينة وأنا جالس على كرسي مريح! قطعت التذكرة بلا تأخر، رغم سعرها المبالغ فيه، واتخذت لنفسي كرسيًا في الدور العلوي غير المسقوف وشعرت بطاقة بدأت تسري داخل جسدي الساخن ورأسي المصدع. انطلقت الحافلة بعدما حمّلت بعض السياح، فمددت جسدي على بعض الكراسي الخاوية وأنا ألمح في الأسفل الرجل المشرد ذا القبعة المدبية وهو ينظر إليّ بتعجّب، إذ ربما أدهشه أن باستطاعة «المشرد» الذي كان بجانبه تحمل تكاليف تذكرة سياحية غالية الثمن!

***

كانت الساعة تقترب من السابعة ولم يبق على انقضاء النهار سوى ساعتين، فأخذت الحافلة تشق طريقها نحو التلال القريبة من

فلورنسا إذ كانت الحافلة التي استقليتها قد انتهت من جولتها داخل المدينة وبدأت جولتها في أرجائها. رغم أشعة الشمس الحارقة قررت البقاء في مكاني المكشوف والاستمتاع بالتلال الخضراء الجميلة والمنازل الريفية البديعة التي تُكوّن قُرى قائمة على حوافّ تلك التلال. توقفتْ الحافلة عند بعض الأماكن التي لم تثر اهتمامي، لذا لم أبرح مكاني حتى وصلنا قرية صغيرة حلوة التصميم وجيدة التنسيق. أخذت أتجول فيها مستكشفًا معالمها حتى تعبت بشدة، فارتفعت حرارتي أكثر من قبل وزاد صداع رأسي وبدأت أطرافي بالاهتزاز فتذكرت بطني الخاوي منذ الصباح، فابتعت شطيرة ساخنة لم لأستطع إنهاءها من شدة ما يعتريني من الاضطراب فقضيت باقي الوقت بجانب الحافلة منتظرًا انطلاقها.



الحافلة تشق طريقها بين الأشجاروسط ممرات ضيقة في التلال قبل نزول المطر

مضت نصف ساعة أو تزيد وكنت بالكاد أقدر على فتح عيني، فنودي على انطلاق حافلتنا قبل الغروب بقليل. رغم أنني كنت أرغب بالجلوس في الدور السفلي للحافلة إلا أن السائق اقترح على الركاب بالجلوس في الأعلى للتمتع برؤية فلورنسا من بعيد وهي تودع الشمس. امتثلت لاقتراحه وأخذت مكاني في الأعلى وكنت بالكاد أتحرك. لم يمض الكثير من الوقت حتى بدأت فلورنسا الجميلة تتراءى لنا من بعيد تداعبها خيوط شمس المغيب، كان المنظر بديعًا بحق، فنهر المدينة يعكس ما تبقى من ضياء الشمس بينما بدت منارات كنائسها الشامخة وكأنها تتطاول لتلامس نهايات شعاع شمس ذلك اليوم. كان منظرًا بهيًا في غاية الجمال، كان منظرًا حتم علي أن أقف لآخذ صورة له. وقفت في أعلى الحافلة وكأنني أتحرك داخل كتلة عجين مما كنت أستشعره من ثقل جسدي وخوَر قواي.

ما إن وقفت حتى شعرت برذاذ كثيف فقد بدأت السحب بنثر قطرات مطر كأنّها اللؤلؤ، وحيث أن جسدي كاد أن يفوح من شدة الحرارة، شكرت الله على هذا المطر البارد بينما ترك معظم الركاب أماكنهم العليا واتجهوا إلى الأسفل، فما بقي سواي وعائلة ألمانية من أبوين وطفل في السابعة من عمره اكتسوا جميعًا بمعاطف المطر البلاستيكية.



فلورنسا تودع الشمس

أخرجت كاميرتي رغم المطر الخفيف ورحت ألتقط بعض الصور متجاهلاً لوحة معلقة على طرف الحافلة تحذر من وقوف الركاب خشية الاصطدام بلوحات الطريق وفروع الأشجار، ومتجاهلاً كذلك صيحات كل بقعة من جسدي بأن أبقى في كرسيي لا أتحرك. وقفت حاملاً كاميرتي وأنا أشعر بأن الأرض تموج بي وكأن رأسي يتوسط أمواج المحيط. كان المطر ينهمر عليّ والرياح تحفّني وقدماي بالكاد تحملاني. أسرعت الحافلة بشق طريقها نزولاً من التلال قاطعة ممرات ضيقة تغطي بعضها الأشجار. كدت أن أجلس بعدما أضناني التعب إلّا أن منظر فورنسا الجميلة وقت الغروب من خلف التلال الخضراء وتحت السماء الممطرة كان ساحرًا ويدفعني للتأمل فيه والتقاط بعض الصور له. انتصبت قدر استطاعتي وجسدي يكاد يفوح

من عِظم حرارته ورأسي كأنه قِدر ثقيل يغلي ويهتزّ. كنت أنظر صوب نهاية الحافلة التي كانت مسرعة تشق طريقها وسط المطر، وكنت بالكاد أستطيع فتح عيني التي تمكن منها الإجهاد والمشقة. التفتُ نحو مقدمة الحافلة لأرى طريقي نحو الكرسي، فما شعرت إلّا بغصن شجرة مررنا بجانبها يرتطم بوجهي ويرديني ساقطًا على الأرض، أطلقت صرخة مكتومة وطارت كاميرتي من يدي واستقريتُ في الممر بين الكراسي ووجهي إلى السماء تمطرني قطرات المطر وتقطعني آهات الألم. أخذت أغمض وأفتح عينَيّ بهدوء وأنا أحاول استرجاع ما حصل حتى شعرت بأن صفارة إنذار تصيح داخل رأسي وأخذ جسدي يرتعش ويضطرب. تنفّست بهدوء وعيناي تدمعان من الألم والجهد، فأحسست ببعض الدفء في موضع من وجهي فلما وضعت يدي عليه شعرت ببعض الدم يسيل من أسفل شفتي!

قمت من مكاني متحاملاً على نفسي وأنا أمسح الدم وأوراق الشجر التي علقت بي مستندًا على بعض المقاعد لتساعدني على القيام وأنا أبحث عن كاميرتي. هبط علي عناء ثقيل تهالكت تحت وطأته وبدأت أشعر وكأن سوادًا يغشى المكان وأخذ قلبي ينبض بشدة وكأنه سيُنتزع من مكانه. جلت بنظري أسفل المقاعد بحثًا عن الكاميرا، فما انتبهت إلّا والطفل الألماني بمعطفه البلاستيكي الأزرق يتقدم إلي مادًّا إياها بيديه. اغرورقت عيناي بالدموع وأنا ابتسم إذ كنت حينها بحاجة لأي ذرة تعاطف بشرية! حملت كاميرتي ونفسي وأنا أهز رأسي شاكرًا الطفل ومشاهدًا لأبويه الذين انشغلا عنه بلحظة حميمية. نزلت درجات الحافلة وجلست على أقرب كرسي رأيته. كنت أنتفض من البرد فتقوقعت على نفسي ورحت أحاول بقميصي الذي تشبّع بماء

المطر إيقاف نزيف الدم الخفيف الذي تضاعفت به علتي وخارت معه قواي.

***

من حسن الحظ أن الحافلة السياحية توقفت بجانب محطة القطار التي تقع بالقرب من الهوستل الذي أنزل فيه. ترجلت من الحافلة أسحب جسدي المتهالك حتى وصلت الهوستل وصعدت إلى غرفتي. كان واضحًا أنني كنت النزيل الوحيد في تلك الغرفة ذات الخمسة أسرة إذ كانت جميعها خاوية باستثناء سريري الذي رميت فيه نفسي بعدما صرت كخشبة لا أقدر أن أتحرك.

مضت ساعة أو اثنتان قبل أن أستيقظ من نومي، كان الظلام حالكًا لا يبدده سوى إضاءة حمراء متقطعة تأتي من لوحة حانة قريبة تخرج منها أصوات الموسيقى وضحكات السكارى. قمت من مكاني أتلمس الجدار بحثًا عن مفاتيح الإضاءة وأنا أشعر ببعض السكينة الداخلية. فتحت الإضاءة وجلست على كرسي أمام مكتب صغير في زاوية أخرى من الغرفة. نظرت إلى جوالي ولم أجد أية اتصالات أو رسائل. لم يكن أحد يعلم أنني هنا، لا عائلتي ولا أصدقائي ولا أي من معارفي. لا أحب إخبار الكثيرين بأنني مسافر؛ لأن بعضهم سينشغل باله علي وبعضهم سيمطرني بالاتصالات التي تطمئن علي في كل يوم. عندما أسافر، أحب أن أشعر ببعض العزلة. عندما أسافر، فإنني لا أبتعد جغرافيًا فحسب، بل أبتعد كذلك عن كل ما يربطني بمحل إقامتي، ذلك هو «السفر»!

لا أتذكر لحظات كثيرة شعرت فيها بهدوء داخل جسدي وعقلي مثل ذلك الوقت، بدا أن عقلي وكأنه توقف عن التفكير وجسدي يئس من بعث إشارات الألم إلى دماغي. كان هناك جهاز حاسب آلي على المكتب فأدرته، كان قديمًا ومستهلكًا إذ أخذ عدة دقائق قبل أن يعمل وتظهر شاشة سطح المكتب. لم يكن هناك اتصال بالانترنت كما كُنت آمل، فأخذتُ أجول في الملفات الموجودة فيه، ولشدة عجبي وجدت مقطعًا مرئيًا للملك فيصل بن عبدالعزيز يلقي خطبة! في الحقيقة، لا أستطيع الجزم الآن إن كان ما رأيته في المقطع صحيحًا أو أن عقلي كان يهذي حينها! أخذ عقلي بالسرحان محاولاً تفسير وجود مقطعًا مرئيّ للملك فيصل في هوستل مغمور في فلورنسا! انقطع حبل أفكاري لما دخل علي في الغرفة شاب وشابة، عرفا بنفسيهما بأنهما صديقان من تشيلي. ما إن رأتني الفتاة حتى قالت والدهشة بادية عليها:

- هل أنت على ما يرام؟ ما الذي حدث لوجهك؟!!

«وجهي؟!» رددت عليها وأنا بالكاد أتحدث ثم التفت إلى مرآة قريبة فارتعبت وارتعش جسدي لما رأيت وجهي، إذ كان الدم السائل من شفتي قد انتشر على خدي الأيسر عندما كنت نائمًا وصبغه باللون الأحمر. نظرت إلى المرآة وكأنني أرى شخصًا آخر، شخص شعرت تجاهه بالشفقة والرأفة، وكأن عقلي لم يستوعب بأن ذلك انعكاس صورتي!

كانت الفتاة لطيفة جدًا، إذ أسرعت بإحضار مناديل مرطبة بالماء لأمسح بها وجهي بينما اكتفى صديقها بالنظر متوجسًا وهو يرتب أمتعتهما. تذكرت الفتاة الأمريكية في البرج ذلك النهار وكيف أنها

أشفقت علي بينما لم يعرني صديقها أي اهتمام، فسبحت بحمد الله الذي جعل الأمهات من جنس الإناث لما رُزقن به من العاطفة والرأفة.

شكرتها على لطفها قبل أن آخذ حمامًا باردًا (للمرة الألف في ذلك اليوم!)، وجلست أقرأ في كتاب وأنا مندهش بأن ألمي كله زال وصداع رأسي قد خف كثيرًا، فحمدت الله ووقع رأيي بأن أستغل نشاطي لاستكشاف المدينة ليلاً، فالمدن تعقِل في النهار وتعطف في الليل. تسكعت في ساحات المدينة القديمة وابتعت فطيرة ساخنة من بائعة متجولة واتجهت صوب جسر بونتي فيكو الشهير. كانت الإضاءة الصفراء الخفيفة فوق الجسر تحاول بخجل تبديد ظلمة السماء التي بدا قمرها بدرًا ينعكس نوره على النهر الذي يعلوه الجسر العتيق، حتى الأحجار التي رُصف بها أخذت تعكس ذلك النور الفاتن إذ كانت لا تزال تبتل بماء المطر. استندت على أحد جوانب الجسر ،الذي يستقر في مكانه منذ ثمانمائة عام، وحيدًا بين عُشاق جمعتهم ترانيم عازف طيّب الصوت حسن النغمة أخذ يغني لهم على قيثارة بكلام رومانسي رقيق. بدرٌ وليل ونهر وجسر شاعري وعازف مليح الصوت حسن النغّمة، كانت تلك من اللحظات التي يشعر الإنسان الوحيد بعدم تمام روحه، فيشعر بشيء يختلج في صدره يحتاج معه إلى حبيب يضمه إليه ليشاركه حديث المشاعر ونشوة العشق!

لستُ وحيدًا، في قلبي تسكُنين

لستُ وحيدًا، رأوني يومًا معكِ

وأراكِ معي في كل حين!

أظلّ وحيدًا؟ لا أبالي!

ألم تري البدر وحده،

غدا أبداً إمامًا للعاشقين؟



العازف على جسر بونتي فيكو في ذلك المساء

***

كان الهدوء يعم المكان عندما استيقظت في الصباح التالي في الهوستل، كان الصديقان التشيليان يغطان في نوم عميق فقمت بترتيب أغراضي بهدوء كيلا أزعجهما. رغم أن آثار الإعياء كانت بادية عليّ إلا أنني شعرت ببعض التحسن منذ ليلة البارحة، وبالتالي كانت شهيتي مفتوحة للأكل الذي يقدمه الهوستل والذي كان عبارة عن طبق كبير من البيض المقلي والخضروات وخبز التوست والمربى.

كان علي أن أستقل قطار التاسعة صباحًا والمتجه من فلورنسا إلى بيزا، التي كانت خطتي تقضي بأن أقضي معظم النهار فيها قبل أن أتجه إلى مطارها عائدًا إلى لندن حيث كنت أدرس. وصلت المحطة وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف فقررت استغلال الوقت بالذهاب إلى العيادة القريبة التي أخبرني عنها عامل الاستقبال في الهوستل. كانت العيادة ملحقة بالمحطة لذا لم يكن من العسير إيجادها وكانت في الواقع جزءًا من صيدلية كبيرة وهذا معهود في إيطاليا، إذ تُلحق بعض الصيدليات بعيادات صغيرة. طلبت من الصيدلانية رؤية الطبيب، فأشارت إلى باب صغير وطلبت مني الدخول منه لرؤيته. كان الطبيب طويلاً ورشيقًا في نهاية الثلاثينيات من عمره، وكان يقرأ في بعض التقارير الطبية عندما دخلت عليه. نظر إلي وكان مكفهر الوجه وراح يتكلم معي بالإيطالية فأفهمته بالإنجليزية أنني أشعر ببعض التعب والحمى منذ البارحة، فراح يحدثني، بعصبية لم أفهم سببها، بالإيطالية بينما كنت أرد عليه بهدوء بالإنجليزية. قاس ضغطي وحرارة جسدي وهو يهرف بكلام لا أعلمه ثم قام من مكانه ودلف إلى الصيدلية وأخرج دواءً أعطانيه وهو يتحدث بغضب وكأنني ارتكبت جرمًا ما، بل وكأنني قررت بأن أمرض لآتي وأزعجه!

أخذت الدواء ودفعت قيمته وقيمة أتعاب الطبيب (وصراخه!) بعدما أخذت تقريره الطبي حتى يتسنى لي استعادة المبلغ من شركة التأمين الصحي. كانت المحطة مكتظة بشكل كبير، وكان الجميع يقفون أمام الشاشات بانتظار إعلان قيام قطاراتهم. وقفت بدوري أمام أحد الشاشات منتظرًا الإعلان عن قطاري الذي كان من المفترض أن يغادر بعد نحو عشرة دقائق. نظرت إلى الدواء والذي كان عبارة عن أقراص بيضاء اللون ورحت أتساءل إن كان علي أن أتناوله، إذ خشيت أن الطبيب غريب الأطوار لم يُصب في وصف الدواء لي، وبعد استشارات حثيثة مع نفسي، نظرت إلى نشرة الدواء المكتوبة بالإيطالية ثم تناولت قرصًا متوكلاً على الله راجيًا الشفاء منه سبحانه.

دقت ساعة المحطة معلنة تمام الساعة التاسعة صباحًا دون أن تعلن عن وصول قطارنا! مضت عدة دقائق قبل أن يُعلن عن تأجيل رحلة القطار لنصف ساعة. نصف ساعة ليست بالوقت الطويل، أو هكذا حسبت قبل أن يعلن عن تأجيل الرحلة لنصف ساعة أخرى! كانت رحلتي من مطار بيزا في تمام الساعة الثالثة ظهرًا، لذا كان يحتم علي الوصول إلى بيزا قبل ذلك الوقت بوقت كاف حتى يتسنى لي رؤية برجها المائل الشهير. لم يكن تأخير قيام القطار لساعة بالأمر الكبير في نهاية المطاف، فسيكون لدي وفرة من الوقت في بيزا الصغيرة. وضعت حقيبتي على الأرض واستندت عليها بين جموع المسافرين الذين افترشوا محطة القطار.



لوحة إعلان قيام القطارات في محطة فلورنسا تظهر إعلان إضراب العاملين باللون الأحمر

كان هناك مئات المسافرين معظمهم من السياح، لذا لم يبد على كثير منهم الامتعاض من التأجيل الذي طال معظم القطارات وليس فقط القطار المتجه إلى بيزا، إذ أخذوا يتبادلون الصور ويتناولون المفرحات. لم تدم لحظات الاسترخاء هذه طويلاً، إذ أعلنت الشاشات فجأة عن إلغاء كافة الرحلات وذلك لوجود إضراب للعاملين! قمت من مكاني سريعًا لاستطلاع الأمر وسط لغط المسافرين وجلبتهم. تم إخبارنا أن الإضراب قائم لأجل غير مسمى فسارعت إلى مكتب قريب لبيع تذاكر الحافلات علني أجد لديهم حافلة تنطلق قريبًا إلى بيزا.

كانت طوابير الانتظار طويلة أمام المكتب، ولأنه لم تكن لدي حيلة قمت بالانتظار لأكثر من نصف ساعة وسط الشمس التي بدأت حرارتها تذكرني بحرارة جسدي التي أخذت بالتصاعد.

«الحافلات المتجهه مباشرة إلى بيزا ممتلئة حتى اليوم التالي» أخبرتني عاملة المكتب لما جاء دوري ثم أضافت «لكن باستطاعتك أخذ الحافلة إلى بلدات أخرى والتغيير هناك لحافلة تتجه إلى بيزا!»

«رائع»! قلت لها بحماسة طالبًا منها تذكرة واحدة باتجاه بيزا عبر إحدى البلدات القريبة.

«حسنًا، ستكلفك التذكرة 54 يورو وستصل بيزا عند الخامسة بعد الظهر»-

«الخامسة؟! لا لا، لدي رحلة طيران عند الثالثة!»

«للأسف هذا كل ما لدي يا سيدي!»

تثبطت حماستي التي اشتعلت للحظة واتجهت نحو المحطة آملاً بأن الإضراب قد انتهى، إلا أنني لم أر سوى مسافرين غاضبين وعمالاً لا يبالون بوجودهم ورجائهم. سمعت كثيرًا عن كثرة الإضرابات العمالية في إيطاليا، لكن هذه المرة الأولى التي أعيش أحدها. لم يكن الوقت ولا المكان، بل ولا حتى حالتي الجسدية والنفسية مناسبين لخوض تجربة مريرة كهذه! كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، وكان علي أن أصل إلى بيزا عند الواحدة على الأكثر حتى يتسنى لي رؤية البرج

المائل، أوعند الثانية على أكثر تقدير حتى أضمن صعود طائرتي. احترت ما أدري ما العمل ولم يكن أمامي سوى استئجار سيارة أجرة رغم الثمن الباهظ، فاتجهت لسائق أجرة فسألته عن تكلفة الرحلة إلى بيزا فأخبرني بسعر هائل لا أتذكره، الذي أتذكره فقط بأنه لو عُصرت حينها ما خرج مني نصفه! تركت السائق الذي كانت عروض الركاب العالقين تنهال عليه وأنا أتذكر قول أبي الطيب المتنبي:

بِذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عن قوم فوائد

***

وقفت من بعيد أنظر في حال آلاف الركاب خارج المحطة الذين تعطلت رحلاتهم جراء الإضراب البائس، بدت على معظمهم أمارات القلق بينما لم يكترث بعضهم بالأمر كثيرًا، فهم في فلورنسا على أية حال ولا ضير عندهم في قضاء يوم إضافي في هذه المدينة الصغيرة الحالمة. لم يكن ذلك خيار متاح أمامي، فطائرتي ستقلع خلال ساعات وحالتي الصحية التي بدأت بالتدهور لا تسمح لي بالبقاء. لحقتني حيرة ولم أدر ما العمل فأخذت أدقق النظر في الركاب حتى لفت نظري أربعة شبان يتجادلون فيما بينهم. كان واضحًا أنهم أصحاب وكانوا يحاولون التوصل إلى حل لمعضلتهم. تقدمت إليهم وسألتهم عن وجهتهم فقالوا مطار بيزا، وأن خطتهم كانت الذهاب إلى بيزا مبكرًا لرؤية برجها ثم التوجه إلى المطار لكن الآن يريدون الذهاب مباشرة إليه إذ أن رحلتهم في تمام الساعة الواحدة، أي خلال ساعة ونصف من ذلك الوقت، ولأن الرحلة من فلورنسا إلى بيزا تستغرق نحو ساعة، كان عليهم الذهاب الآن، الآن!

أخبرتهم بأن خطتي شبيهة بخطتهم وأنني أرغب بالذهاب إلى المطار كذلك، فأشرت عليهم بأن نتشارك جميعًا في قيمة سيارة الأجرة. ففرحوا بشدة وأخبروني بأنهم سألوا سائق أجرة لكن لم يكن معهم جميعًا ما يكفي لتغطية الأجرة التي طلبها وأنني بمشاركتي إياهم يستطيعون تحملها. حملوا أمتعتهم بسرعة واتجهنا جميعًا نحو صف سيارات الأجرة القريب من المحطة والذي كان هو الآخر مكتظًا بالركاب الحانقين على غلاء الأجرة الفاحش. تعرفت على الشبان وكانوا جميعًا إسبان وأعمارهم في أوائل العشرينيات وأخبروني بأنهم قطعوا في رحلتهم آلاف الكيلومترات من شمال أوروبا مرورًا بشرقها ووسطها وانتهاءً بجنوبها. بدت عليهم الدهشة لما أخبرتهم بأنني سعودي وقالوا بأنهم لم يقابلوا سعوديًا قط من قبل باستثناء أحدهم الذي قال بأنّه زامل شابًا سعوديًا عندما كان يدرس اللغة الإنجليزية في إنجلترا. وصلنا إلى صف سيارات الأجرة وسألنا أحد السائقين لكي يوصلنا إلى بيزا، نظر إلينا وقال:

«أنتم خمسة! أستطيع أن أحمل أربعة فقط!»

يا للخيبة! سألناه عن السعر وكان غاليًا كغيره، حتى الشبان الإسبان لم يكن معهم ما يكفي لدفعها. رمى أحدهم حقيبته على الأرض وأخذ يكيل الدنيا بالشتائم، بينما كان الأسى واضحًا على البقية. سألتهم عما سيفعلون فقالوا بأنهم سينتظرون في المحطة آيسين من اللحاق على طائرتهم وأنهم ربما يبيتون فيها لعدم حملهم ما يكفي من المال لاستئجار غرفة. رأفت على حالهم وهم يتبادلون النظرات بكل بؤس وآثار السفر ومشقته بادية عليهم، فسألتهم كم

ينقصهم، فقالوا نحو ثلاثين يورو.

«فقط؟! ثلاثين يورو فقط؟!»

قلت لهم ذلك متعجبًا فأجابني أحدهم بحسرة:

«نعم، ربما أقل إذا حسبت العملات المعدنية الصغيرة»

أخرجت عندها محفظتي وأخرجت ثلاثين يورو ومددتها لهم، رفضوا بطبيعة الحال في البداية لكنهم مع ذلك رأوا فيها خلاصهم واستقامة أمرهم.

«ليس عليك أن تفعل هذا، أنا متأكد أننا سنصل إلى حل!» قال أحدهم وكلماته تعارض نظراته إلى النقود في يدي.

«ليس معكم الوقت الكافي لذلك، إنها فقط ثلاثين يورو يا رجل! لو كنت مكانك لما ترددت في أخذها من شخص غريب تعرفت عليه للتو!»

تبادلوا النظرات ثم قام أحدهم بسحب النقود مني وهم يمطرونني بعبارات الشكر وهم يتساءلون إن كان بإمكانهم ردُّها لي يومًا ما، فقلت مازحًا: «نعم، عندما أزوركم في إسبانيا»! حملوا أمتعتهم بسرعة ووضعوها في صندوق سيارة الأجرة الخلفي وأخبروا السائق بأن لديهم المال الكافي للذهاب إلى مطار بيزا. تقدموا جميعًا إلي ورتبوا على كتفي وحضنني أحدهم واغرورقت عيناي ببعض الدمع وكأني أودع حبيبًا، ربما لكوني كنت في حاجة ماسة لمن يواسيني، وربما

لأنني ساعدت هؤلاء الفتيان لتجاوز أزمتهم بينما لا أزال أنا أجابه أزمتي لوحدي. ركبوا السيارة بسرعة وانطلقوا تاركينني وحيدًا أصارع الحمى والصداع، معلقًا في هذه المدينة معزولاً عن العالم!

ما إن التفتُ متجهًا صوب المحطة حتى رأيت سيارة الأجرة التي تقِل الشبان تتوقف ويترجل منها الشاب الذي حضنني. جاء يركض نحوي وسط دهشتي وفضولي، فلما اقترب مد سوارة يد رقيقة على شكل حبل ملون وقال:

«هذه للحظ! إنها تعمل فعلاً. أؤمن بأنها من قادتك إلينا، لذا أريد أن أسلمها إليك عرفانًا لجميلك فأنت تستحقها!»

وضعها في كفي وأغلق يدي ثم ركض عائدًا إلى السيارة دون أن يسعني أن أقول شيئًا إذ خشيت أن أنطق فأبكي من فرط اغتمامي!

ظللت للحظات أنظر لسيارتهم تختفي في الأفق وعيناي تقاومان الدموع، ثم نظرت إلى السوارة في كفي! تأملتها مشككًا بجدواها، الإيحاء فقط هو الذي يجعل لها قيمة، فمتى آمن المرء بقدرتها على جلب الحظ فإن نفسه توحي إليه بأن كل جميل يحدث له يكون بسببها. بالنسبة لي، لم تكن سوى سوارة من نسيج ملون! لذا دسستها في جيب بنطالي رغم تقديري للفتة الشاب النبيل الذي أخلص لي ثقته وأصفاني مودته، وعدت إلى المحطة آملاً بقطار يخرجني من هذا المكان.

كان المحطة لا تزال غاصة بالخلق والمسافرون العالقون يفترشون ساحات وطرقات المحطة التي اكتظت بهم. اتخذت لنفسي موضعًا بين الجموع ووضعت أمتعتي واستندت عليها. رغم زحمة المكان وتعالي الأصوات شعرت ببعض الهدوء وكأنني بدأت أفقد الإحساس بالزمان والمكان، أو «الزمكان» كما كان يطلق عليهما آينشتاين! كنت وحدي لا أحد من أهلي وأصدقائي يعلم أين أنا، فقط ابن عمي عبدالله يعلم أنني في مكان ما في أوروبا! ما ذا لو لم يأت القطار؟ ماذا لو اشتدت علي الحرارة والحمى؟ ماذا لو تقرّح الجرح في شفتي الذي تسبب به الغصن التعيس؟

«كان علي أن أخبر أحدًا!» كان ذلك هو الدرس الذي تعلمته حينها! والدنيا، عكس المدرسة، تختبرنا ثم تعلمنا الدروس.



عشرات الركاب العالقين جراء الإضراب يفترشون ممرات المحطة

كان الجو داخل المحطة حارًا ومكتومًا، ورغم توقف العاملين عن استخدام صافرات الإعلان عن قيام القطارات، راح رأسي يئن ويصفر من شدة الصداع وارتفاع حرارتي. تحسست وجهي وجسدي وكانا حارّين جدًا وكأنني أجلس أمام مدفئة في نهار دافئ. شعرت بأن قواي قد خارت كثيرًا، وبدا كل شيء حولي يتلاشى تدريجيًا حتى صار ظلامًا!

انتبهت على رفسة على قدمي من مسافر عابر لم يتنبه إليّ! نظرت إليه وأنا بالكاد أحرك رأسي الذي تثاقل وهو يتأسف إلي ويعتذر. تابع المسافر سيره وأنا أرى الساعة الضخمة المعلقة على الجدار، كانت تشير إلى الثانية عشر وأربعون دقيقة! لم يبق على إغلاق بوابة طائرتي سوى أقل من ساعتين! لم أكترث كثيرًا، فبعد كل ما حدث لي خلال اليومين الماضيين فقدت الإحساس بالألم والشعور بالخيبة.

منذ أن تناولت الدواء الذي صرفه لي الطبيب لم أشعر بأي تحسن، بل استمرت حالتي بالتدهور، لذا لم أحتج لكثير من الفطنة لأدرك أن الدواء الذي صرفه لي الطبيب ربما لم يكن سوى دواء غُفل أو البلاسيبو، وهي «أدوية» لا تحوي موادًا فاعلة لكن تعطى إلى المريض لكي يوحى له بأن هذا الدواء سيعالجه فيشفى! إنه الإيحاء مرة أخرى! تذكرت سوارة الحظ التي أعطانيها الشاب الإسباني. فدسست يدي في جيبي وأخرجتها.

تأملت السوارة فوجدتها عبارة عن ثلاثة خيوط ملتوية ملونة، أزرق سماوي، وأزرق غامق، وأحمر. بعيدًا عن كونها سوارة حظ أم لا، كانت جميلة وتستحق الاحتفاظ بها كذكرى لهذا اليوم الذي لم يبد

أنه سينتهي ونحن لا زلنا في منتصفه. رحت أتأمل بالسوارة مسليًا نفسي باختلاق قصة لها وكيف وصلت إلى الشاب الإسباني الذي آمن بأنها تجلب له الحظ! تخيلت أنه كان يسير حزينًا ذات مساء على شاطئ جنوب البرازيل فرأته سيدة عجوز فأشفقت عليه وأعطته هذه السوارة مخبرة إياه عن قواها الخفية، في البداية لم يصدق خورخيه (وهذا الاسم الذي اختلقته للشاب الأسباني، إذ كانت سحنته قريبة من الأديب الإرجنتيني خورخيه بورخيس لما كان شابًا) حديث العجوز لكن أخذها مجاملة لها. لكن ما إن ابتعدت العجوز واختفت في الظلام حتى لمح من بعيد شيئًا جعله يتسمّر في مكانه بلا حراك، شيئًا لم يحلم أبدًا أن باستطاعته......

انقطع حبل أفكاري جراء جلبة مفاجئة في المحطة، حيث قام المسافرون من الساحات يحملون أمتعتهم بسرعة ويركضون باتجاه معين. حملت أمتعتي أنا الآخر وخبأت السوارة في جيبي ورحت أسابق الركاب دون أن أدرك ما الذي يحصل. كانت الحشود كبيرة لكن، وللمرة الأولى في ذلك اليوم، سعدت لكوني وحيدًا إذ كان باستطاعتي التحرك بسرعة من بينهم.

قطار! كان هناك قطار يقترب من المحطة! لم يكن هناك إعلان عنه لكن بعض الركاب لمحه من بعيد. كنا كمن عزلوا في جزيرة ورأوا سفينة قادمة من عرض البحر! اصطف الناس على جانب الرصيف وما إن توقف القطار حتى فتحت أبوابه وتزاحم الناس للدخول إليه وهم يتدافعون. لم أكن أقوى حينها على التدافع فتراجعت قليلاً خشية من أن يدفعني أحدهم دفعة تتلف معها نفسي حتى سنحت لي الفرصة

ودخلت القطار. كان مزدحمًا بحق ولم يكن هناك أية تنظيم وكان معظم الركاب واقفين بينما احتل القلة المحظوظين كراسي العربات. توقفت في ممر بين الكراسي وكان واضحًا أن بعض المسافرين لم يسعهم حتى دخول القطار من شدة الزحام. بجانبي، كان هناك شاب يجلس على الكرسي وهو يحاول التطاول والالتفات باحثًا، على ما يبدو، على رفقته في السفر. كانت عيناه تشعان قلقًا وهو يتلفت بسرعة باحثًا عن مراده. انتبهت فجأة لشابة من على الرصيف تؤشر بيدها بسرعة جهة ذلك الشاب، ولما لم ينتبه إليها أخذت تطرق النافذة بسرعة وهي تصيح منادية إياه لكن لم يعرها أحد اهتمامًا لأن صوتها لم يكن مسموعًا من شدة الضوضاء داخل القطار وخارجه! أشرت بيدي نحوها وطلبت من الشاب أن ينظر إليها، وما أن فعل حتى كاد أن يقفز من مكانه وراح يحدثها بصوت عالٍ بلغة لا أفهمها لكن صوته حبسته الضوضاء ونافذة القطار السميكة. حاول أن يُفهمها بأن تركب القطار لكنه أشارت بيدها نحو إحدى أبواب القطار التي يتزاحم أمامها المسافرون الذين لم يقدروا على صعوده. انقضت عدة لحظات وهو على هذه الشاكلة قبل أن يُعلن عن قيام القطار وبدأت الأبواب بالانغلاق لكن المسافرين الذين يحاولون الركوب كانوا يعرقلون إغلاقها. نظرت الفتاة إلى حبيبها وعينيها تغرورقان بالدموع وهي تطلب منه النزول من القطار بدلاً من أن تحاول هي الصعود إليه! لم يحتمل الفتى فراق محبوبته فحمل حقيبته وقام من مكانه حاشرًا جسده بين الركاب الواقفين محاولاً الخروج من القطار قبل أن تغلق الأبواب.

بطبيعة الحال، لم أفوت فرصة الجلوس في مكانه حال قيامه، ورغم تقديري للتضحية الصغيرة التي قدمها الشاب لأجل الحب، إلّا

أنني تذكرت بارتياح المثل الإنجليزي القائل:

«يسافر بشكل أسرع، ذلك الذي يسافر وحيدًا»!

***

انطلق القطار بعد أن أجبر السائق الأبواب على الانغلاق، ورحت أحمد الله تعالى على أن يسّر لي ركوبه والجلوس فيه. كان القطار مهترئًا وقديمًا ويصدر أصوات مزعجة وتنبعث منه روائح مقززة. كان واضحًا أن أحدًا طيب القلب رأف لحال الركاب المتعطلين فقرر إخراج قطار ما من مستودع أحد المتاحف ليقلَّ به أولئك الركاب! كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرًا، ساعتان فقط تفصلني عن إقلاع طائرتي، وساعة وأربعون دقيقة تفصلني عن إغلاق بوابة الصعود! سألت الله أن نصل إلى بيزا في الوقت المحدد، فالرحلة إلى هناك يجب ألا تتجاوز ساعة واحدة!

«بيزا؟ بيزا؟ هل هذا القطار متجه إلى بيزا أصلاً؟» شعرت بقشعريرة تجتاحني، فأنا ركبت القطار لما رأيت الناس يتسابقون إليه ولم أسأل عن وجهته! يا للمصيبة! يا للتسرع!

التفت بسرعة وسألت الذي بجانبي عن وجهة القطار فأخبرني أنه لا يعلم، تكررت ذات الإجابة من كافة من سألتهم في تلك القاطرة! لم يكن أحد يعلم وجهة القطار! الجميع فقط بلغوا من اليأس مبلغًا جعلهم يركبون أي قطار يخرجهم من محطة فلورنسا التي علقوا بها! كان قطارنا - ببساطة - قطارا مليئا بركاب لا يعرفون وجهته! قطار

يحمل مسافرين استقلوه حاملين تذاكر الأمل بأنه سيحملهم إلى حيث يريدون!

أخذ بعض الركاب يؤكدون على أن القطار لن يتجه إلى بيزا اعتمادًا على معلومات العاملين (المضربين!) في المحطة، في حين أكد أحد الركاب على أن القطار متجه بالفعل إلى بيزا، معتمدًا - كما يقول - على حدسه الجغرافي. حدس جغرافي! تذكرت حينها نفسي عندما أكون بتمام عافيتي، فأنا لا أذهب إلى مكان دون أن أعرف موقعي فيه جغرافيًا وتاريخيًا، فأراني أعرف الاتجاهات والتضاريس بالإضافة إلى تاريخ المكان وعمره. لكن تلك الميزة، إلى جانب ميزات أخرى، كانت معطلة في ذلك الوقت جراء التعب والحمى، لذا لم يكن أمامي سوى الاسترخاء في كرسيي وإغلاق عيني منتظرًا مصير ذلك القطار مجهول الوجهة!

كان القطار مكتومًا وشديد الحرارة، وأمتعة الركاب تملأ المكان وتحتل حيزًا كبيرًا من الهواء مما زاد من سخط الركاب الساخطين أصلاً. ومما زاد الأمر سوءًا هو حالة القلق التي تعم المكان والتي تجبر الجميع على الصمت والترقب. من حديث بعض الركاب إلى بعضهم البعض، شعرت ببعض الأسى إذ كان كثير منهم قد فوّت رحلته من مطار بيزا بينما كنتُ أنا آمل بأن عدوى الإضرابات قد انتقلت إلى العاملين في المطار لعلهم يؤخرون إقلاع رحلتي حتى نصل!

مرت نحو نصف ساعة قبل أن يتوقف القطار في محطة بلدة في الطريق. كانت المحطة مزدحمة هي الأخرى وكان هناك عشرات الركاب المصطفين على جانب الرصيف منتظرين وقوف القطار. وكما

حصل في محطة فلورنسا، لم يستطع معظم أولئك الركاب الصعود جراء الزحام الذي يعاني منه ذلك القطار البائس. انطلق القطار وتوقف بعدها في محطة ليست ببعيدة فنزل فيها العديد من الركاب وفهمت أن فيها محطة للحافلات. ترددت بالنزول لكن شاشة المحطة كانت تعلن أن قطارنا كان متجهًا بالفعل إلى بيزا، فحمدت الله وجلست مكاني. خلت معظم ممرات القطار من الركاب الواقفين، بينما بدأ شعور من السعادة يسود المكان، فأخذ الركاب بالتحدث إلى بعضهم أو راحوا ينشغلون بالقراءة وسماع الموسيقى، في حين كنت أنا أقاوم ذلك الصداع الشديد والحرارة التي أشعرتني بأن جمرة تشتعل في جوف رأسي، فحاولت تسلية نفسي بالقراءة حتى طاوعتني على الصبر وتجاهل الألم ولو قليلاً!



من داخل قطارنا مجهول الوجهة

لما تجاوزت الساعة الثانية ظهرًا بقليل، أعلن قائد القطار عن وصولنا إلى بيزا! قفزت من مكاني متجهًا نحو أحد أبواب القطار والذي ما إن انفتح حتى ترجلت منه متجهًا إلى خارج المحطة. لم يبق سوى نحو نصف ساعة على إغلاق بوابة الصعود، فأخذت أتجادل مع نفسي بأن أزور برج بيزا المائل أم لا! ولأنه لم يكن بحوزتي وقت لأضيعه، قررت بأن اتخاذ قرار خاطئ أجدى من التردد، فعزمت على

زيارة البرج قبل التوجه إلى المطار! استقليت سيارة أجرة ولم تمض سوى دقائق حتى توقفت أمام ساحة خضراء فسيحة يطل من وسطها شامخًا برج بيزا المائل الشهير! دفعت للسائق دون أن أنتظر الباقي حفظًا للحظات القليلة التي معي واتجهت صوب البرج!

هناك القليل من المعالم التي تبدو أجمل في الواقع مما هي عليه في الصور، ويُصرح بعض الرحالة بأن أهرام الجيزة هي المعالم الوحيدة التي تتمتع بتلك الخاصية. عن نفسي، كان ذلك البرج أحدها! رغم كونه صغيرًا نسبيًا إلا أن شيئًا ما في ذلك البرج كان يأسر الأنظار. ربما لكوني منذ كنت طفلاً أرى كل صباح في غرفتي مجسمًا لذلك البرج كان أساسًا لعبة تركيبية، فقمت بتركيبه وإقامته. إن ما يجذبنا في الطفولة سيظل يجذبنا إلى الأبد!



سياح يؤدون وضعيات تصوير عجيبة من أمام برج بيزا المائل

قمت بالتقاط بعض الصور للبرج ومحيطه، وأنا أرى السياح يمدون أيديهم في الهواء أمام المصورين بتلك الوضعية الشهيرة وكأنهم يحاولون دفع البرج ليستقيم. لم أكن بدعًا من القوم فسألت أحدهم ليلتقط لي بعض الصور. نسيتُ، من فرط حماستي، التعب الذي اعتراني. إلا أنني ما إن رأيت الساعة حتى كادت أن تذهب نفسي جزعًا من شدة نبضات قلبي: الثانية والنصف، نصف ساعة على إقلاع طائرتي، عشر دقائق على إغلاق البوابة!

ركضت بسرعة نحو شارع قريب وأنا أرى علامة سيارة أجرة يصطف أمامها جمع غفير دون وجود أي سيارات في الطريق. انتظرت لدقيقة أو دقيقتين دون أن تمر سيارة أجرة فتقدمت لأول الصف وسألت المنتظرين عن مدة انتظارهم فقالوا أنهم هنا منذ نحو عشرين دقيقة! عشرون دقيقة! هذا وهم في أول الصف، لن يأتي دوري إلّا بعد ساعتين. بعد ساعتين يفترض أن أكون في غرفتي الحبيبة في لندن وليس في طابور انتظار تعيس تحت شمس بيزا الحارقة! تلفت حولي وعيناي تختلسان النظر إلى الساعة وقلبي يرجف بشدة. رغم أنني كنت قد فقدت الإحساس بالألم والترقب، إلا أن قربي من المطار/ الخلاص أثار الأمل عندي، والأمل منبعه الألم.

بقيت في مكاني متحيرًا في أمري لا أدري ما أصنع وبدأ اليأس يستحكم فيّ حتى مر من أمامي شيء أعاد بريق الأمل: حنطور!

ركضت خلفه وأنا أشير بيدي، كانت عربة حنطور سوداء يجرها حصان وتستخدم أصلاً للتجول بالسياح في بلدة بيزا القديمة!

«سنيوري سنيوري!» صرخت بالرجل حتى رآني فأشار بيده إلى داخل عربته دون أن يتوقف ليخبرني بأنه يحمل سياحًا، ثم أشار إلى أعلى الطريق فرأيت مجموعة من الحناطير يصطف خلفها طابور طويل من السياح! طابور آخر!!

لم أتنازل بسهولة فتقدمت وركضت حاملاً حقيبة ظهري حتى توقفت أمام الحصان فأوقف الرجل عربته بسرعة ولم أعطه فرصة للتفكير بما حصل حتى تقدمت إليه وقلت له:

«آسف يا سيدي، لكن أريدك أن تأخذني إلى المطار حالاً!»

نظر إليّ الرجل غير مصدق وقال بغضب وهو يسحب لجام حصانه:

«مطار! حنطور يذهب إلى المطار؟!! لا بد أنك جننت!»

تحركت عربة الرجل أمامي وهو يصيح بالإيطالية بعبارات لم أفهمها وهو يضرب أصابعه على رأسه وكأنه يشير بكوني مجنوناً فعلاً!



قائد الحنطور مبتعداً عن ذلك الفتى الذي يطلب إيصاله إلى المطار

لم أتحرك من مكاني، فأخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر إلى المتاجر الصغيرة المتلاصقة داخل مبانٍ قديمة مهترئة حتى وقعت عيناي على ساعة معلقة على بوابة إحدىً تلك المباني. الثانية واثنان وأربعون دقيقة! ثمانية عشر دقيقة على إقلاع الطائرة، دقيقتان منذ إغلاق البوابة! نظريًا، كان من المستحيل أن ألحق على الطائرة!

***

أنزلت حقيبتي من على ظهري الذي كان يئن هو الآخر، ووضعتها على الأرض واستندت على سياج صغير طرحت عليه جسدي كالتالف لا أقوى على الحراك. رحت أفكر بما سأفعل، لم يكن همي حينها أنني سأقضي ليلة إضافية هنا في إيطاليا، لكنني لم أكن بكامل صحتي ووعيي، فالصداع استحكم علي وحرارة جسدي تقوّض قواي، بل وشعرت بأن حلقي يؤلمني وصعب علي الكلام، وخشيت أن يحدث لي شيء لا قدر الله وأنا هنا وحيد لا يعرف مكاني أحد! نظرت إلى الساعة مرة أخرى وكأنها تطير من شدة سرعة عقاربها. كانت مفارقة إذ أنني اعتدت أن أشعر، كما باقي البشر، بأن الوقت يمر سريعًا عندما أكون في حال فرح وسعادة، بينما حينها كنت أبعد ما يكون عنهما! كادت نفسي أن تخرج غمًّا لما أنا فيه وكدت أن أيأس من الفرج حتى نظرت إلى أسفل الساعة ووجدت بوابة صغيرة جيدة التصميم وحسنة الزخارف...كان فندقًا!

«سأبيت هنا الليلة» فكرت بهذا ابتداءً لكن لما التفت ورأيت صف السياح الذين ينتظرون سيارات الأجرة من بعيد حتى حملت حقيبتي بسرعة ودلفت إلى الفندق وطلبت من عامل الاستقبال أن يطلب لي

سيارة أجرة. كان الرجل سيئ الأدب وقليل العقل والمروءة إذ رفض خدمتي في البداية لكوني لم أكن نزيلاً في الفندق فأخبرته:

«لم يبق سوى أقل من 15 دقيقة على إقلاع طائرتي، لذا لن أطلب منك مرة أخرى، إما أن تطلب السيارة الآن أو تحجز لي غرفة لأبيت الليلة هنا!»

نظر إلي وهو يسحب نفسًا عميقًا، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب سيارة أجرة. شكرته دون أن يجيب ثم خرجت إلى الشارع مرة أخرى منتظرًا السيارة. مضت عدة دقائق كأنهن دهور قبل أن ألمح سيارة أجرة تأتي من بعيد، كان عامل الفندق أخبرني بأن رقم السيارة 52، فما إن رأيت الرقم على جانب السيارة حتى زاحمت الناس في الطريق وانقضيت على السيارة قبل أن تقف ودخلتها بسرعة!

«همم هممم، لننظر للشخص المستعجل هنا!» قال السائق ذلك بإنجليزية جيدة وهو يرمقني بنظرة وهو ينزل قليلاً نظارته الشمسية. كان شابًا وسيمًا متهللاً مشرق الوجه في أواسط العشرينيات من عمره وله شعر طويل يصل إلى كتفيه وكان يجلس في مرتبته وكأنه على أريكة والموسيقى تصدح بهدوء من مسجل السيارة!

«إنسان رايق، مش وقتك!» فكرت بهذا وأنا أؤكد له بأنني من طلب السيارة من الفندق وأنني مستعجل للوصول إلى المطار.

«لا لا لا، يجب أن نكون واضحين هنا» قال لي السائق قبل أن يضيف: «هل أنت مستعجل؟ أم مستعجل جدًا؟ أم مستعجل جدًا جدًا؟!»

نظرت إليه متعجبًا من سؤاله، إلا أنني سارعت بالقول:

«حرفيًا، طائرتي ستقلع بعد 9 دقائق، أنت قرر مستوى الاستعجال!»

قفز الفتى من مكانه واستقام في جلسته وهو يقول:

«إذن أنت مستعجل جدًا جدًا جدًا» قال ذلك وهو يعلي صوت الموسيقى ويدعس على البنزين بشدة حتى انطلقت السيارة بسرعة هائلة وارتديت أنا على مرتبتي من شدة الإنطلاقة، وأضاف «لم يسبق لي تجربة مستوى الاستعجال هذا! أمر مثير!»

كان يتخطى السيارات بسرعة كبيرة ويلتف حول العربات والناس بشكل ملتوي وحاد حتى كاد قلبي أن ينخطف من الخوف. أخبرته:

«صحيح أن رحلتي ستقلع بعد ثمان دقائق، لكنني أخطط لأن أعيش لثمانين سنة! هدئ السرعة رجاء!»

«لا عليك، سأدخل الآن طريقًا مغلقًا للصيانة وهو يؤدي إلى المطار وسننطلق فيه لوحدنا»! ولوهلة ظننته يمزح حتى توقف بسرعة بجانب طريق مملوء بمعدات صيانة وأسرع لإزالة بعض الحواجز وعاد إلى السيارة لينطلق بها كالصاروخ!

لا أتذكر الكثير من ذلك الطريق، فقلد أغمضت عيني وتقوقعت على نفسي وكأنني صاعدٌ قطارًا حلزونيًا شديد السرعة في مدينة ألعاب!

مضت لحظات حتى اعتدت على السرعة، ففتحت عينَيّ وأنا أنظر إلى الطريق الخالي المليء بتلال الرمال ومعدات العاملين ثم نظرت إلى السائق وهو يردد كلمات الأغنية مع المسجل وتأملت في حاله وبساطته. أخذت نفسًا عميقًا وارتسمت على محياي ابتسامة لأول مرة في ذلك اليوم!

لم يمض الكثير من الوقت حتى أثبتت خطة «مستعجل جدًا جدًا جدًا» كفاءتها، إذ وصلنا خلال وقت وجيز رغم أن الساعة كانت تشير إلى الثالثة ودقيقتين. نظر السائق إلى السماء وهو يوقف السيارة أمام بوابة المطار وقال:

«لا توجد طائرات في السماء، لذا لا أظن أن طائرتك قد أقلعت!»

أيّدته وأنا أضع أجرته في يده، واتجهت بسرعة داخل المطار وكلي أمل بأن طائرتي لا تزال على الأرض، فأنا حجزت تذكرتي على طيران اقتصادي في نهاية الأمر، والطيران الاقتصادي نادرًا ما تقلع طائراته في موعدها!

كان المطار صغيرًا ومكسوًا من الخارج بأشجار كثيفة جعلت منه أقرب لصندوق هدايا، وكان منسقًا وسلس الاستخدام من الداخل، لذا لم أجد صعوبة بتحديد منصة شركة الطيران التي حجزت تذكرتي عليها. مددت جوازي إلى الآنسة وقلت وأنا بالكاد أقو على الكلام جراء ألم حلقي الشديد:

«طائرتي من المفترض أنها أقلعت قبل قليل! لكن آمل أنها ليست

كذلك!»

سحبت الآنسة جوازي وضربت في أزرار الحاسوب أمامها وقالت:

«كم أنت محظوظ يا سيدي! البوابة لا تزال مفتوحة لكن النداء الأخير قد حان لذلك عليك الإسراع بالدخول إلى صالة التفتيش» ثم أضافت وهي تسلمني بطاقة الصعود وتعلوها ابتسامة: «يبدو أنك الراكب الوحيد السعيد بتأخر إقلاع الطائرة!»

رددت ابتسامتها وشكرتها بهز رأسي، ثم أسرعت متجهًا نحو التفتيش الذي لم يستهلك وقتًا كبيرًا لحسن الحظ. كانت الساعة تشير إلى الثالثة والربع عندما وقفت أمام بوابة الصعود لكي يُختم على بطاقة الصعود وأصعد الطائرة. كان هناك راكبان فقط عند البوابة، وما أن صعدنا الطائرة حتى أغلقت بوابتها إذ كان الجميع على متنها. دفعت حقيبتي بعنف داخل إحدى الأدراج العلوية وطرحت نفسي على مقعدي بجوار النافذة وقد نالني من التعب ضائقة شديدة. انقضت لحظات قليلة قبل أن يدير القبطان محركات الطائرة فشعرت بالنصر والبهجة، فمنذ أكثر من ستة ساعات وأنا أجاهد حتى أصل إلى هذا المكان الذي أولاني الله فيه بإحسانه الجميل.

ما إن أقلعت الطائرة حتى غطيت في نوم عميق لم أنتبه بعده إلى لإعلان الهبوط إلى مطار ستانستد شمال لندن. كانت السحب البيضاء البديعة تكشف تحتها غطاء أخضر في غاية الجمال للريف الإنجليزي الذي تنتشر فيه القرى القديمة والمزارع البهية.

«إنه جميل، أليس كذلك؟»

قالت لي فتاة تجلس إلى جانبي لم أنتبه لها من قبل لتشتت انتباهي وتعاظم تعبي. كانت فتاة شقراء ربما في نهاية العشرينيات تلبس قميصًا أحمرَ وتجمع شعرها إلى الخلف بربطة صغيرة.

«آآه..»

لم أستطع الكلام! حاولت إخراج بعض الكلمات ولم أقدر! شعرت بإحراج شديد أمام تلك الفتاة التي تحاول اصطناع محادثة معي، فأشرت إلى حلقي محاولاً إخبارها بأنني لا أقوى على الكلام!

«لا بأس لا بأس!» ثم ضحكتْ ضحكة خفيفة جعلتني أتساءل عن مغزاها إلا أنها بادرت قائلاً:

«من كان يسمع صفيرك أثناء نومك قبل قليل لن يتصور أبدًا أنك غير قادر على الكلام!»

ضحكت بدوري ضحكة مكتومة حتى خرج مني بعض الصوت أخيرًا. قلت للفتاة بصوت مبحوح جدًا بالكاد يسمع:

«إنها قصة طويلة! أنا الآن فقط سعيد لكوني هنا قريب من منزلي!»

***

خلال الأسابيع القليلة التي تلت رحلتي تلك انتشر وباء إنفلونزا الخنازير في العالم واحتلت أخباره العناوين الرئيسة في الصحف ولم تكن كلية جولدسمث في جامعة لندن حيث كنت أدرس بمعزل عن مخاطره، إذ تم تسجيل إصابات بالمرض تجاوزت المائة، نحو سبعين منهم كانوا طلابًا مراهقين إيطاليين قدموا للكلية ليعسكروا فيها في الصيف.رغم أن المرض ليس خطيرًا إلا أن بعض الطلاب تأثر كثيرًا وكانت أخطر الحالات لطالبة تم تنويمها في المستشفى لعدة أسابيع. أخذت الفصول تقل يومًا بعد يومًا مع تزايد الطلاب المصابين بالمرض مما دعا الكلية لاتخاذ بعض الإجراءات: تم إيقاع الحجر الصحي على مبنى لسكن الطلاب وتم منعهم من الخروج منه لأيام، وتم إلغاء المعسكر الصيفي لأكثر من ثلاثمائة طالب إيطالي بالإضافة إلى معلميهم ومشرفيهم إذ عادوا إلى إيطاليا دون إكمال ذلك المعسكر، وتم إيقاف الفصول الدراسية لكافة الطلاب لعدة أيام وتم تزويد معظمهم ببعض الأدوية الوقائية. عن نفسي، كنتُ قد زرت طبيب الكلية في صباح اليوم الذي تلا وصولي إلى لندن من بيزا، وقام ببعض الفحوصات التي بناءً عليها صرف لي بعض الأدوية وزودني ببعض التعليمات.

في نهاية البرنامج في ذلك الصيف، قام الطبيب ذاته بعرض تقديمي أمام الطلاب والأساتذة والإداريين حول إدارة عيادته لانتشار مرض إنفلونزا الخنازير داخل الكلية. ابتدأ الطبيب محاضرته قائلاً:

«تم تسجيل أول إصابة لمرض أنفلونزا الخنازير في الكلية من قبل الطالب عبدالله الجمعة، الذي انتقلت إليه العدوى أثناء سفره في أوروبا.....!»

وفجأة أصبحت محور القاعة والتفت كافة الطلاب نحوي وهم يتهامسون ويتضاحكون، ويا لدهشتي حينها! إذ لم أكن أعلم حتى ذلك الوقت أنني كنت مصابًا بأنفلونزا الخنازير!

«هذا يفسر كل شيء!»

فكرت بهذا وأنا أتأمل المفارقة العجيبة، إذ أنني أصبت بالمرض في إيطاليا ونقلته إلى كليتي في لندن ليصاب به أكثر من سبعين طالبًا إيطاليًا مما أدى إلى إلغاء معسكرهم الصيفي وإعادتهم إلى إيطاليا برفقة زملائهم المائتين والثلاثين!

أكمل الطبيب حديثه بينما خرجتُ من القاعة وعيون الطلاب الفضولية تُشيِّعني، وتابعت إلى خارج الكلية مصفرًا لسيارة أجرة كانت تمر من أمامي. زودت السائق بوجهتي وما هي إلا دقائق حتى توقفت السيارة أمام بوابة مستشفى قريب. كان المستشفى قديمًا ويتجاوز عمره المائة وستين عامًا ورغم ذلك كان شعلة من النشاط والحركة وكان جيّد التنسيق لذا لم أجد صعوبة بتحديد الغرفة التي أقصدها.

«مرحبًا!» قلت ذلك بهدوء وأنا أطرق بروِيّة باب غرفة تنويم صغيرة. كانت الطالبة التي تضررت كثيرًا بإصابتها بأنفلونزا الخنازير ترقد على سريرها مغمضة عينيها وتتنفس بسكون وطمأنينة وسط السرير الأبيض. إلى جانبها على طرف السرير كانت صديقتها الوفية تضع رأسها وتمدد يديها عليه وهي جالسة على الكرسي.

«آه..مرحبًا عبدالله!»

قالت صديقتها ذلك بعدما انتبهت من نومها الخفيف. اعتذرت منها وسألتها عن حال صاحبتها، فأخبرتني بأن حالها مستقر لكنها لم تكن تتحسن؛ فجسدها الهزيل ومناعتها الضعيفة لم يستطيعا مقاومة فيروس الأنفلونزا! وقفت إلى جانب الفتاة المنومة وكان وجهها شاحبًا ويتصل بأنفها أنبوب تنفس صغير يرتبط بأجهزة قريبة تصدر طنينًا وأصواتًا خفيفة. نظرت في حالها وانكسرت نفسي لأجلها، فدسست يدي في جيبي وأخرجت السوارة، سوارة الحظ!

ابتسمتُ وأخبرت صديقتها عن قصة تلك السوارة فتعجبت من القصة وفرحت لما أخبرتها بأنني سأقدمها لصديقتها المريضة. رفعت يد الفتاة التي خُيّل لي جسدها البارد ونفسها الضعيف أنها جثة هامدة وفتحت كفها وأنا أضع السوارة داخله ثم قبضت يدها ووضعتها أسفل الغطاء. تمنيت عودة صحتها وشكرت صديقتها وخرجت وأنا أدرك أن السوارة تلك ليست سوى عبارة عن خيوط ملونة لا نفع منها ولا ضرر، لكن الفتاة كانت تدرس الفنون والترميز وربما تؤمن بتلك الأمور الخفية، فلعل الإيحاء يعمل لصالحها ما لم تعمله الأدوية وتعليمات الأطباء!

كانت ممرات ذلك القسم من المستشفى هادئة ولا يمر فيها سوى الممرضات اللطيفات اللاتي يبتسمن كلما مررت بإحداهن، فتذكرت تلك العيادة النكدة في محطة فلورنسا المزدحمة وطبيبها الغضبان الذي لم يكن يُقَدر حرمة المرض ومشاعر المرضى. تأملت حولي وأنا أستشعر نِعم الله الذي منّ عليّ بها أثناء مصيبتي تلك، ولا يزال سبحانه يمن عليّ بأفضاله ونعمه التي أقلها يستغرق أكثر

الشكر. ورحت أتفكر بتلك الخبرات والفوائد والعِبر والدروس التي تعلمتها أثناء تلك المحنة مدركًا أن المصائب كأعوَام طويلة؛ تتلقفنا شبابًا وتتركنا شيوخًا!

تجربة تايتانيكية

رحلة بحرية بين أستوكهولم، السويد، وهلسنكي، فنلندا. صيف 2010

كانت الساعة تقترب من الخامسة والنصف عصرًا في ستوكهولم عندما قدمت لي نادلةٌ طبق البيتزا الذي طلبته في مطعم صغير وسط تلك المدينة الجميلة المنسقة، والتي قضيت فيها عدة أيام مستكشفًا بنيانها البهي ومتاحفها الثرية وطبيعتها الخلابة. أضفت بعض زيت الزيتون على البيتزا الضخمة ورحت أتأمل الناس مستمتعًا بآخر وجبة لي في تلك المدينة.

«هيييي! «ربت على كتفي شخص من الخلف وتابع: «إذا كنت ستستمر في أكل هذه البيتزا حتى تنهيها، فإن السفينة ستنتصف في بحر البلطيق دون أن تكون على متنها!»

كان ذلك إليوت، وهو أحد رفقائي في الهوستل وكان يذكرني برحلتنا البحرية نحو هلسنكي والتي ستنطلق خلال....أربعين دقيقة!

«يا إلهي! كيف مضى الوقت سريعًا! اذهب وسأتبعك بعدما أدفع الحساب!»

قلت له ذلك وأنا أطلب الفاتورة من النادلة وقمت بدفعها حالاً دون انتظار الباقي وسحبت قارورة الماء من طاولتي سائرًا بسرعة نحو الهوستل القريب لأخذ حقيبتي قبل الاتجاه نحو السفينة. نظرت إلى الساعة وكنت متأخرًا بالفعل ورحت أركض بين جموع الناس وسط الممرات الضيقة في البلدة القديمة. كانت البيتزا ثقيلة فأحسست بالعطش فرفعت قارورة الماء لأشرب منها وما إن وضعتها في فمي حتى بصقت مستنكرًا ما ذقته، لم تكن قارورة الماء، بل كانت قارورة زيت الزيتون!

ضحكت وعدت مسرعًا نحو المطعم والذي ما إن رأتني النادلة، والتي كانت طويلة في منتصف الخمسينيات من عمرها، قادمٌ نحوه حتى صاحت بظرافة وهي تقول:

«ها هو قادم! كنت متأكدة أن لا أحد يسرق قارورة الزيت ويهرب بها مسرعًا!»

ضحكت بدوري واعتذرت منها وأخبرتها بأنني تجرعت شيئًا من الزيت بفمي عن طريق الخطأ، فشكرتني على أمانتي وأصرّت على أن آخذ الباقي الذي تركته لها وهي تقول وتعلوها ابتسامة على وجهها الأشقر المجعد:

«حسنًا، استعجلتَ فأخطأت مرتين، مرة بأخذ قارورة الزيت بدل الماء، ومرة بأن وضعت ورقة من فئة خمسمئة كرونا بدلاً من خمسين!»

«خمسمئة!!» شعرت ببعض الحرج وشكرتها، بدوري،على أمانتها

ولطفها وأنا آخذ نقودي، ثم عدت مسرعًا سالكًا طريقي نحو الهوستل وأنا أحمد الله على عنايته بأن جعلني آخذ قارورة الزيت بدل الماء لأعود لأسترد نقودي التي وضعتها بالخطأ! «في العجلة الندامة»، دائمًا نسمعها ودائمًا ننساها!

سحبت حقيبتي من مخزن الهوستل وحملتها على ظهري، ولما هممت بالخروج قررت الذهاب إلى غرفتي لأتأكد أنني لم «أستعجل» وأنسى شيئًا! كانت الغرفة فسيحة وتقع في الطابق الأرضي وتحوي ثمان سرر متقابلة، وبدلاً من أن أجد شيئًا يخصني وجدت إليوت وصديقته، وهما نمساويان، يحاولان حشر بعض الأحذية النسائية في حقائبهما.

«لو ضللتما تحاولان حشر هذه الأحذية حتى تجدوا لها مكانًا فإن السفينة ستصل إلى هلسنكي دون أن تكونا على متنها!»

قلت ذلك مبتسمًا بينما تعالى صوت إليوت بالضحك وهو يقول: «كلارا وجدت محلاً أعلن عن تخفيضات ليوم واحد والنتيجة كما ترى!»

«تخفيضات!!» ردت عليه صديقته كلارا بصوت عال وهي تنظر إليه بمرح وأضافت: «قل أنهم كانوا يوزعونها مجانًا! لم أكن أحلم بأن أجد أحذية لماركات فاخرة بهذا السعر الزهيد! توقف عن الضحك رجاءً وساعدني هنا، «ولو فيك خير كانت شريتهم لي من فيينا!»».

ساعدتهما بأن أحمل معي حقيبة مكياجها الصغيرة مقابل أن تضع مكانها زوجًا من أحذيتها الجديدة في حقيبتها. انطلق ثلاثتنا

بسرعة عبر قطار الأنفاق صوب محطة ميناء ستوكهولم حيث ستنطلق سفينتنا بعد نحو عشرين دقيقة، أو هكذا كان مكتوبًا على تذاكرنا الإلكترونية!

كان إليوت شابّا ظريفًا ومنطلقًا، وهي خصلة نادرة لدى الشعوب الجرمانية وسط أوروبا، وكان في بداية الثلاثينيات من عمره وترافقه في سفرته تلك صديقته كلارا التي تصغره بقليل، وهي شابة شقراء مليحة تهتم بأناقتها وجمالها بشكل يندر وجوده بين نزيلات الهوستلات، لكن من النظر لكمية الأحذية الهائلة التي اشترتها مخفضةً يدرك المرء أن ميزانيتها ليست بذلك الجمال. توطدت علاقتي العابرة معهما في اليوم الذي سبق يومنا ذاك، إذ اشتركنا سوية في رحلة لبعض الغابات لمطاردة الحيوانات فيها وقت الغروب. و«الغروب» هنا لم يكن سوى اصطلاح للتعبير عن غياب قرص الشمس عند الساعة الحادية عشر والنصف ليلاً، قبل أن يخرج مرة أخرى عند الواحدة صباحًا دون أن تغيب أشعة الشمس التي تظل تضيء السماء طوال الصيف في تلك البقعة الإسكندنافية في شمال الكرة الأرضية. كانت تلك الرحلة جميلة ومختلفة إذ تسنى لنا مطاردة الجواميس والخنازير البرية، بالإضافة إلى الأرانب والغزلان التي تهرب وتختفي بين الأشجار ما إن ترانا قادمين نحوها، قبل أن نقضي جزءًا من «الليل» تتناول بعض الشطائر والمشروبات وسط الأشجار الضخمة العالية.

أثناء حديثنا في قطار الأنفاق، أخبرني إليوت أنه يعمل لدى مصنع لقطارات الأنفاق أو «المترو» حيث يتلقون طلبات لصناعتها من

كافة أنحاء العالم، وذكر بأن أعجب طلب سمع به هو وزملائه هو طلب من دبي لصناعة قاطرات مترو فاخرة، وقال معلقًا بابتسامة:

«إذا كنت راكبًا ولديك ما يكفي من المال لدفع تذكرة قاطرة فاخرة، فالأجدى أن تشتري سيارة خاصة!» أيّدته ونحن نترجل من القطار مسرعين نحو الميناء والذي كانت اللوحات الإرشادية تملؤه فلم نجد صعوبة بتحديد سفينتنا. كان علينا صعود السلالم تجاه مكتب ضخم فوق مبنى عالٍ يخرج منه ممر طويل مزدحم بالمسافرين يؤدي إلى السفينة. لم تكنْ السفينة، في الواقع، لتتحرك قبل نصف ساعة عندما وصلنا، لذا لم نكن على عجالة عندما انتظرنا أمام بعض المكاتب لاستلام بطاقات الصعود وتختيم الجوازات. نظرتْ موظفة الجمارك إلى جوازي وهي تقلبه إذ أشكل عليها أن جوازي يفتح من اليمين عكس معظم - إن لم يكن كل - المسافرين. كانت الموظفة ممتلئة الجسد والوجه وراحت تضحك وتدعو زميلاتها لرؤية صورتي مرتديًا الشماغ في الجواز. استلمت الجواز منها وقالت بأنني إن كنت قطعت كل تلك المسافة لصعود تلك السفينة، فإنه علي أن أستمتع على متنها قدر المستطاع.

«لا توصين حريص!» قلت لها مثل ذلك واتجهت مع إليوت وكارلا نحو السفينة.

***



«سيمفونية سيلجا» متوقفة في ميناء ستوكهولم

«سيمفونية سيلجا» كان ذلك اسم سفينتنا التي تملكها شركة سيلجا لاين الإستونية. كانت السفينة ضخمة إذ يتجاوز طولها المئتي متر وبإمكانها تحميل أكثر من 3500 من المسافرين والطاقم بالإضافة إلى مئات السيارات والعربات. كانت ابتسامات العاملين مشرقة لدى استقبالهم لنا وهم يرشدوننا إلى كبائننا في تلك السفينة الهائلة.

رغم الإغراء الذي كان يحفزنا لاستكشاف السفينة مبكرًا إلّا أننا تابعنا سيرنا نحو غرفنا محدثين أنفسنا بأنه معنا أكثر من 18 ساعة لاستكشاف السفينة قبل وصولنا إلى هلسنكي. هبطنا بالمصعد عدة أدوار حتى وصلنا إلى الدور الذي تقع فيها غرفنا، وكانت ممراته

ضيقة وأقل فخامة ، بطبيعة الحال، من الأدوار العليا غالية الثمن. تهنا قليلاً في متاهة تلك الممرات حتى وجدت غرفتي فودعت إليوت وكارلا وتمنيت لهما رحلة سعيدة قبل أن أدخل غرفتي لأجدها أجمل مما توقعت إذ كانت لا تعكس تواضع الممرات والدور الذي تقع فيه. بالاستطاعة القول أنها أشبه بغرفة في فندق ثلاثة نجوم، وكانت تحوي سريرًا عاديًا وسريرًا مثنيًا على الجدار يمكن استخدامه لضيف آخر، بالإضافة إلى دورة مياه صغيرة وأنيقة.

وضعت حقيبتي وحسّنت هندامي ثم خرجت أتجول في تلك السفينة التي ستكون مسكني المتنقل لباقي ذلك اليوم والذي يليه. كان العديد من المسافرين المحمّلين بالحقائب يملؤون ممرات ذلك الدور الذي فيه غرفتي، ولم يكن سهلاً تجاوزهم وهم تائهون يبحثون عن غرفهم بكل فرح وبهجة، ولوهلة سَرتْ في خاطري صورة ركاب الدرجة الثالثة البسطاء في فيلم تايتانك وهم يجرّون أمتعتهم في ممرات السفينة الدنيا بحثًا عن غرفهم وكأنما حيزت لهم الدنيا! صعدت إلى الأعلى نحو قلب السفينة، وكان عبارة عن ممر فسيح طويل مغلق تصطف حوله المطاعم والحانات والمتاجر وتطل عليه شرفات أجنحة ركاب الدرجة الأولى الفاخرة. تجولت في تلك الأماكن وما يتفرع عنها من ممرات تؤدي إلى أقسام مثيرة وعديدة، فهناك مكتبة عامة وروضة أطفال وغرفة للألعاب الإلكترونية وسوبرماركت كبير (يحوي الكثير من الشوكولاتة اللذيذة التي ابتعت بعضًا منها!) بالإضافة إلى مسابح مغلقة ومتاجر لا تخضع للضريبة.

كانت المايكروفونات الكبيرة المنتشرة في أرجاء السفينة تبعث

موسيقى عالية تقاطعها عبارات الترحيب بعدة لغات من إدارة السفينة، والتي ما إن أعلن عن إغلاق بوابتها وتشغيل محركاتها الضخمة حتى أسرعت متجهًا نحو سطحها لأشهد عملية الانطلاق. كان المنظر بديعًا، إذ اصطف الناس في مقدمتها وهم يلوحون بتلويحات الوداع. نظرتُ إلى الميناء ولم أجد أحدًا في الأسفل فتساءلت عمن يودعون، ولم تطل تساؤلاتي إذ نظرت إليّ عجوز بريطانية وقالت مبتسمة وكلها حماسة بالتلويح بقبعتها للميناء الخالي:

«ليس من الضروري أن يكون هناك أحد تودعه لتلوح بيدك من أعلى سفينة كما تعلم! إنه فقط أمر لطيف تفعله عندما تكون على متن سفينة كهذه!»

أيّدتها ضاحكًا ورحت بدوري ألوّح للميناء الخاوي وأهتف له مشاركًا الناس فرحتهم وحماستهم!

ما إن شعرنا بتحرك السفينة حتى صاح الناس صيحة فرح جماعية بينما أخذت الموسيقى تصدح في المكان وتبعث البهجة في صدور المسافرين السعداء، ولم تمض لحظات حتى خرج مهرجون وبهلوانيون أخذوا يتقافزون ويتراقصون ويوزعون الهدايا والحلوى على المسافرين الذين غُمروا بالرضى وانتشوا طربًا بهذا الترحيب البهيج. أخذت السفينة تبتعد عن ستوكهولم شاقة طريقها بين الجزر الخضراء المتناثرة متجهة صوب بحر البلطيق، والذي ما إن وصلنا أوله حتى انطلقت السفينة بأعلى سرعتها التي كانت 23 عقدة بالساعة. بدأت أتجول في سطح السفينة لأعيش قدر الإمكان «التجربة التايتانيكية» فرحت أبحث عن جاك وروز على متن سفينتنا حتى وجدت نسخة مسنّة

منهما: سيد وسيدة طاعنان في السن يحتضنان بعضهما برومانسية وهما يطالعان الجزر الساحرة التي تمر بقربها سفينتنا!



«جاك وروز» الطاعنان في السن

استمريت بالتجول والتقاط بعض الصور والتعرف على بعض المسافرين الشباب الذين كانوا بقربي، وكانوا من بريطانيا وإيطاليا وألمانيا والنرويج وفنلندا وليتوانيا وتشيلي فسُررنا لهذا التنوع الذي أكده قبطان السفينة في كلمته الترحيبية القصيرة التي سمعناها عبر المايكروفونات، والتي ذكر فيها بأن الركاب ينتمون لإحدى وستين دولة. ودعت الشباب على وعد أن نلتقي في المساء ثم انطلقت إلى غرفتي لأحضر كتابًا أقرأه في إحدى نواحي السفينة. كان الوصول إلى غرفتي

سهلاً هذه المرة، فصليت فيها الظهر والعصر ثم أخذت كتابًا وعلبة شوكولاتة وانطلقت باحثًا عن بقعة هادئة. قضيت نحو ساعة في مهمتي تلك، إذ كان كل مكان أدخله يحوي العديد من الأشياء المثيرة التي تجذبني لاستكشافها. انتهى بي المطاف إلى مكان مرتفع قليلاً على سطح السفينة ومسقوفًا بالخشب ويطل على البحر ومقدمة السفينة! المكان المثالي للقراءة!



من على متن السفينة

كان المكان يحوي بعض الكراسي الممتدة المريحة، فأخذت مكاني في الكرسي الوحيد الخالي بينها واستندت عليه. نظرت إلى المكان حولي وكلي نشوة وفتحت علبة الشوكولاتة ثم شرعت بالقراءة. عشت لدقائق لحظات قراءة جميلة وصافية حتى اختلجني ذلك الشعور الغريب الذي يخبرك بأن أحدًا ما يراقبك، رفعت عيني من على الكتاب لأنظر حولي فوجدت مجموعة من العجائز اليابانيات الجالسات على بقية الكراسي ينظرن إلي بهدوء وتعلوهن ابتسامات رقيقة. بادلتهن النظرات لوهلة ثم هززت رأسي لهن بابتسامة، فأخذن يهزّ رؤوسهن بالتحية اليابانية وهن معتمرات قبعات الشمس الصغيرة. أكملت قراءتي لكن لم أستطع التركيز إذ كان من شبه المستحيل أن أقرأ في حين كان أحد ما بالجوار ينظر إلي لأي سبب. تذكرت مرة أنني كنت أقرأ مستندًا على شجرة قرب نهر في الريف الإنجليزي، فما شعرت إلّا وقد تحلّقت حولي الخراف ينظرن إليّ بشكل غريب، فلم أستطع تتمة القراءة حينها فقمت من مكاني متجهًا نحو الكوخ الذي كنت أنزل فيه لأكمل قراءتي هناك. كان ذلك بسبب مجموعة خراف، فما بالك بعجائز يابانيات غريبات الأطوار! نظرت إليهن مرة أخرى متسائلا عن سبب تركيزهن عليّ حتى نظرت خلفي ووجدت سيدة يابانية عجوزا تقف وتحمل فوطة صغيرة بيدها، فأدركت أنها تريد أن تجلس في مكاني بين صديقاتها اللاتي منعهن الحياء الشديد من أن يطلبن مني القيام. قمت من مكاني بسرعة واعتذرت لهن وخرجت من المكان وهن يُعبّرن عن شكرهن بحني رؤوسهن لي حتى شعرت أنني من السادة!

ما ألطف اليابانيين!

كانت الشمس ساطعة وحارة ولم أقدر على الجلوس في السطح المكشوف فقررت الذهاب إلى الحانة داخل السفينة لشرب بعض الليموناضة الباردة. وما إن أخذت مكاني قرب نافذة دائرية تطل على البحر داخل الحانة حاملاً ليموناضتي وكتابي حتى تقدم نحوي أحد الشبان الفنلنديين الذين تعرفت عليهم في سطح السفينة ودعاني لمشاركة مجموعة الشباب الذين احتلوا طاولة طويلة في مؤخرة الحانة. قررت سريعًا مشاركتهم وتأجيل القراءة، ففي نهاية الأمر، التعرف على الغرباء العابرين في السفر يشحذ العقل ويوسع المدارك بقدر لا يستطيعه أي كتاب. دفع لي أحدهم قارورة بيرة فلما اعتذرت عن شربها تساءل عن السبب فلما أخبرته بحرمتها حتى أقبلوا عليّ يمطروني بالأسئلة عن الإسلام والسعودية وتقاليدنا وعاداتنا، وجلست لنحو ساعة أجيب على أسئلتهم وتعليقاتهم حتى انفض المجلس بعدما وزعت على بعضهم ريالات سعودية من فئة ريال واحد أحملها معي دائمًا في السفر كذكرى أعطيها لمن أتعرف عليه!

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف مساء، لكن الشمس لا تزال في كبد السماء، فاتجهت لغرفتي برفقة الشاب الليتواني الذي أثاره حديثي حول الصلاة وأراد أن يراني أصلي. صليّت أمامه في غرفتي ركعتي نافلة ثم ودعته على أمل أن نلتقي بعد ذلك بقليل في مسرح السفينة، إذ أعلن عن إقامة «مسرحية علاء الدين» عند تمام الساعة العاشرة.



المسرح داخل السفينة

كان المسرح متوسط الحجم وكان العديد من الركاب واقفين لقلة الكراسي، لكن الجميع كانوا سعداء ويتفاعلون مع مغامرات ذلك الشاب العربي مع جنيّه السحري. شعرتُ بالفخر بأن قصصًا من أدبنا العربي يتم تمثيلها في مسرح على متن سفينة في وسط بحر البلطيق في شمال الدنيا، وتلفّت حولي مستشعرًا بأنني ربما كنت الفتى العربي الوحيد على متن تلك السفينة. خرجت منتشيًا بعروبتي قبل انتهاء المسرحية متجهًا نحو غرفتي إذ كنت أشعر ببعض الإرهاق.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف مساء بقليل ولم

تغب الشمس بعد، لكنّ عينَيّ غابتا في نوم عميق وسط تلك السفينة التي أشعر بارتجاجها الطفيف فوق مياه البحر.



سماء بحر البلطيق كما بدت عند الساعة العاشرة والنصف مساءً

***

انتبهت من نومي على صوت طرقات خفيفة على باب غرفتي، فتحت عينَيّ ولم أر شيئًا في الظلام الدامس داخل غرفتي التي لا تحوي على نافذة. سحبت إحدى سدادات أذني لأسمع صوتًا يهمس من خلف الباب:

«عبدالله! هل أنت مستيقظ؟»

لم أميز الصوت وشدني الفضول لمعرفة صاحبه، فقمت من سريري لأفتح باب الغرفة بهدوء وأنا بالكاد أفتح عينَيّ اتقاء لضوء المصابيح. كانت كارلا، وكانت ترتدي فستانًا أسود قصيرًا!

«أنا آسفة جدًا لإيقاظك، لكن أريد حقيبة مكياجي التي معك. هناك حفلة في النادي الليلي وأريد أن أتجهّز لها!»

«حقيبة مكياج؟ حفلة؟ نادٍ ليلي؟!...آآه لا بأس!»

تحسست الإضاءة على جدار غرفتي وفتحتها قبل أُخرج حقيبة مكياج كارلا من حقيبة ظهري. أخذتْها مني وهي تكرر أسفها ثم غادرت بسرعة وما إن هممت بإغلاق الباب حتى سمعت صوت مزامير وأهازيج من مكان قريب. سحبت سدادة أذني الأخرى لأتأكد مما كنت أسمعه فكان بالفعل صوت موسيقى وأناس يغنون ببهجة. كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحًا حينها، فغسلت وجهي وارتديت لباسًا وخرجت أتبع ذلك الصوت. كانت الممرات هادئة والإضاءة الخافتة توحي بالسكون الذي تبدده باستحياء أصوات الآلات الموسيقية المنبعثة من مكان ما في الجوار. سرت قليلاً حتى تعالى صوت الغناء ورحت أتبعه في متاهة الممرات المحيِّرة حتى وصلت مصدره، وكانت غرفة فسيحة اجتمع فيها بعض الرجال والنساء متوسطي الأعمار ليغنون ويرقصون على أنغام موسيقية من أوروبا الشرقية، وما إن رأتني سيدة ترقص وأنا أنظر إليهم وعليّ آثار النوم حتى وضعت يدها على فمها كأنها تحاول خفض صوتها ثم انفجرت ضاحكة وهي تتأسف وبعض أصحابها لي على

الإزعاج. أخبرتهم بأنه لا بأس وأن هذا في الواقع أمر مسلٍّ، فدعوني للانضمام والرقص معهم فاعتذرت واكتفيت بمشاهدتهم يرقصون بمرح ويتضاحكون بألفة متخيلاً رقصات وغناء ركاب الدرجة الثالثة في تايتانك لما ذهبت إليهم روز برفقة جاك في بداية الفيلم. ولأنه لم تكن هناك «روز» في الجوار، قررت الصعود لسطح السفينة لرؤية شمس منتصف الليل.

كانت ممرات السفينة وساحاتها شبه خاوية من الناس، وكأن غرفهم قد سحبتهم إليها كالمغناطيس. لما اقتربت من سطح السفينة لفت نظري ممر فاخر لم أنتبه له من قبل، فسرت فيه حتى قادني إلى ناد فاخر للقمار. وكانت طاولات القمار خاوية باستثناء واحدة اجتمع حولها بعض كبار السن السكارى، بينما اتخذ سكران آخر طاولة لعبة البوكر سريرًا له، إذ قذف بنصف جسمه عليها وراح يغوص في سبات عميق.

اتجهت نحو نهاية نادي القمار ذاك حتى فتحت بابًا زجاجيًا يؤدي إلى السطح، وما إن فتحته حتى كادت الرياح الشديدة تطير بي. كانت السماء ملونة بشكل عجيب، فرغم غروب قرص الشمس إلّا أنها لم تكن تامة السواد، إذ يتقاطع فيها ضوء الشمس الخافت مع سواد الليل البهيم الذي زاده حسنًا قطرات المطر الخفيف ونور القمر في قلب السماء. قررت أن أخرج لأتأمل تلك اللوحة الإلهية الأخّاذة، فرُحت أقاوم الرياح وما تجره من قطرات المطر الحادة وجاهدت لأحافظ على اتزاني وأنا أتجه نحو مقدمة السفينة حتى مسكت سياجها الأمامي. رغم أنه صعب علي حتى فتح عيني وقتها إلّا أن المنظر كان فيه من

الجمال ما يشعر به حتى الضرير، بحر كبير قاتم تعلوه سماء واسعة ملونة ملبدة بالغيوم الثقيلة يطل من خلفها قمر أبيض منارٌ كاللؤلؤ ينعكس نوره على قطرات المطر التي تتلاعب بها رياح قطبية باردة نقية، فسبحت بجلال الله الذي خلق فأحسن الخلق!

جلت بنظري نحو ذلك البحر المظلم الممتد أمامي والسماء التي تعلوني مدركًا قربي من القطب المتجمد الشمالي وبعدي عن بلادي وكل ما له صلة بي، ثم سحبت نفسًا عميقًا ومددت يدي على جانبي عاليًا وأغلقت عينَيّ لأستشعر روح ذلك المكان الآسر ونشوة تلك اللحظة الفاتنة، ويا لها من لحظة!

كان المكان استثائيًا بكل ما فيه، بجماله وروحه وهواه ومشاعره التي يبثها في النفس! كان من قبيل تلك الأماكن التي تُشعرك بأنها كانت تنتظر مقدمك منذ الأزل، من قبيل تلك الأماكن التي تزورها لأول مرة فتحسُّ أن شيئًا منك يكمن فيها، من قبيل تلك الأماكن التي هي كبعض القلوب، خُلقت لتكون جزءًا منها!

فتحت عينَيّ بعدما خيِّل لي أنني سمعت صوت موسيقى، فالتفت خلفي فوجدت في أعلى الجهة الأخرى من السفينة صالة زجاجية مضاءة باللون الأحمر وتظهر عليها ظلال الراقصين الذين يتمايلون ويهتزون على أنغام الموسيقى والغناء. لا بد أن ذلك كان هو النادي الليلي الذي قصدته كارلا! نظرت إليه قليلاً من بعيد ثم التفت أنظر إلى جانب السفينة حتى لمحت شخصًا لم يكن بعيدًا عني، كان يقف مستندًا على سياج السفينة ويحمل قارورة خمر بيمينه ويرفعها نحو السماء ويهمهم بكلام لم أميزه. كان واضحًا أنه كان سكرانًا لكن قلت

لنفسي، تماشيًا مع الحالة الشاعرية التي كنت فيها، أنه ربما كان شاعرًا لم تقاوم قريحته جمال ذلك المنظر، وربما كان عاشقًا كسير القلب قرر قطع أراض وبحار العالم بحثًا عن معشوقته التي شغفها حباً وهجرته. تقدمت نحو الرجل، وكان في أواسط الثلاثينيات من عمره، وسألته عما كان يفعل. نظر إلي بهدوء وهو بالكاد يفتح عينيه اتقاء للرياح ورذاذ المطر ثم قال بإنجليزية بطيئة:

«أريد أن أذهب هناك!» وأشار بعينيه إلى البحر. ألقيت نظرة على البحر ولم أر سوى ضوءٍ طفيف من بعيد في نهاية الأفق ربما كان لسفينة أخرى.

«تريد أن تذهب إلى السفينة الأخرى؟!!» قلت له متعجبًا.

«لا لا لا» قال ذلك وهو يحرك رأسه وقارورة الخمر بيده نافيًا ثم تابع وهو يرفع القارورة إلى السماء:

«أقصد هناك! أريد أن أذهب هناك!»

نظرت إلى السماء ولم أر ما يثير الاهتمام بدايةً سوى تلك الغيوم المتراكمة الشبيهة بسلاسل الجبال، لكن ما لبثتُ وهلةً حتى انفرجت الغيوم عن القمر الذي ظهر من خلفها يتلألأ بنوره الوضّاء ويبث شعاعًا ما أحسست بمثله قط وكأنه يُعلن بكبرياء أنه هو المقصود!

تأملت المنظر الساحر الذي قل ما رُئي مثله وتُهت في جماله شاعرًا بالقمر يجذبني نحوه داعيًا لأكون ضحية من ضحايا فتنته،

فأخذت للحظات أتفكر في حياتي كما لم أفكر بها من قبل، كان كل شيء يبدو أبهى وأنقى مما هو عليه في الواقع، كنت أعيش شيئًا أشبه بالحلم! بل كان أجمل من ذلك؛ لأن الأحلام العظيمة ليست تلك التي نراها في المنام، بل تلك التي نتخيلها في اليقظة!

أحسست أخيرًا بما كان يقصده الرجل، فقلت له وعيناي متسمرتان نحو السماء:

«وأنا أيضًا، أنا أيضًا أريد الذهاب إلى القمر!»

ابتسم الرجل وهو يرفع قارورة البيرة كأنه يقوم بنخب، بينما رحت أحدّث نفسي بأنني أنا بالفعل على القمر، حسنًا، لست أنا شخصيًا، بل اسمي! إذ اشتركت قبل سنوات في برنامج قامت به وكالة ناسا لأبحاث الفضاء يدعى «أرسل اسمك إلى القمر» وفيه تم جمع أسماء مئات الآلاف من البشر وتم وضعها في شريحة إلكترونية وإرسالها إلى القمر عام 2008م إلى جانب كتب وصور ومقاطع فيديو إليكترونية؛ حتى إذا وجدتها مخلوقات فضائية تتعرف على الحضارة الأرضية، أو حتى تجدها الأجيال البشرية بعد مئات وربما آلاف السنين. منذ ذلك الحين عندما أنظر إلى القمر، ينتابني شعور مريح ولذيذ بأن شيئًا مني بالفعل على سطحه فأشعر بسكون وطمأنينة أجهل مصدرهما!

رفع الرجل يديه إلى السماء وقد تمكّن منه السُّكر الذي أثار قريحته، فارتفعت عقيرته بالغناء فراح يغني ويتراقص في مكانه ويحرك يديه كأنه يضم محبوبته التي انحنت أضلاعه على مودتها.

نظرت إليه مبتسمًا ثم سحبته عن السياج قليلاً إذ خشيت أن تزداد حماسته مع الغناء فيرمي نفسه نحو الماء فيكون وليمة شهية لساكني البحر.

«إلى أين تأخذني؟!» قال لي متعجبًا وهو يتأرجح لما بدأت بسحبه ثم أضاف: «تريد إحضار المزيد من البيرة؟!!»

«نعم... البيرة! نعم!» جاوبته ضاحكًا وأنا أُدخله عبر باب صغير يؤدي إلى طبقة من السلالم التي كانت فسيحة وشديدة الفخامة، ومفروشة بفرش أحمر فاخر، فطلبت من الرجل الجلوس على إحدى عتباتها حتى أحضر له تلك البيرة المزعومة. تركته يكمل أغانيه ويهيم في أحلامه ونزلت السلالم صوب غرفتي الصغيرة التي تقبع في مكان ما أسفل السفينة، ولما وصلت الدور الذي تقع فيه مررت بأولئك الذين كانوا يرقصون ويغنون لما استيقظت قبل نحو ساعة، فوجدت بعضهم قد افترشوا أرضية غرفهم التي تركوا أبوابها مشرّعة وقد استبدلوا غناءهم بصفير نومهم. دخلت غرفتي وتدثرت بفراشي وأنا أحدّث نفسي بأنني ربما كنت ليلتها الشخص الوحيد الصاحي بين المخمورين على متن السفينة، فحمدت الله، وأنا أستذكر نهاية فيلم تايتانك، على أن السماء فيها ما يكفي من الضوء لرؤية أي جبل جليدي بعيد يطفو على البحر! فآخر ما يتمناه المرء هو أن تغرق سفينة مليئة بالسكارى وهو اليقظ الوحيد بينهم!

دموع يتيمة

البندقية، إيطاليا. صيف 2009.

شعرتُ برعشة صغيرة على طرف أنفي أثناء النوم فانتبهت لأجد طفلاً صغيرًا يقف إلى جواري ويداعبني، وما إن رأيته حتى ضحكت وقفزت عليه وهرب والضحكات تتتابع منه وهو يركض في ممرات المنزل. كان ذلك آليساندرو، وهو طفل أشقر في الرابعة من عمره ولطيف المعشر ولا يخشى الغرباء وكنتُ أنزل في بيت عائلته في شقة صغيرة داخل مبنى قديم العهد وسط مدينة البندقية شمال شرق إيطاليا. أنهيت طقوس الاستيقاظ واتجهت إلى المطبخ لتناول الإفطار، فوجدت أم آليساندرو تجهز الطعام لي ولطفلها الصغير الذي لم يكف عن مداعبتي، بينما اكتفى أخوه التوأم ميكيلي بالتحديق بي من خلف والدته التي تشبث بها خوفًا من هذا الغريب الذي يسكن بينهم.

تناولت الإفطار دون تبادل الكثير من الحديث مع سيدة المنزل التي لم تكن تتحدث الإنجليزية واكتفت ببعض الابتسامات وهي تحاول السيطرة على آليساندرو المشاغب. لم يكن ذلك المكان مطبخًا فحسب، بل كان مكتب استقبال كذلك، فما إن أخبرت السيدة بعزمي على الخروج حتى أنزلت سلة من فوق الثلاجة تحوي أوراقًا وعقودًا وبعض الأقلام. حاسبتها على الأيام التي قضيتها عندهم وشكرتها

على لطفها وكرمها وأهديتها مجسم جملٍ صغير مزيّن يعلوه هودج كان بحوزتي كتذكار من ضيفهم السعودي. كان ذلك آخر أيامي في البندقية، وكان أمامي نحو ساعتين قبل أن ينطلق قطاري نحو روما جنوبًا لذا قررت استغلال فسحة الوقت تلك بزيارة الحي اليهودي الذي لم يكن بعيدًا عن المحطة. حملت حقيبتي على ظهري ورحت أسير بين ممرات المدينة المائية، صاعدًا جسورها المتشابكة ومارًا على ساحاتها المتناثرة.

كان حي اليهود في البندقية يقع بالقرب من محطة القطار، لذا كلما اقتربت منه كلما زاد عدد السياح حاملي الخرائط التائهين والذين يحاولون تحديد طرقهم وسط متاهة طرق وممرات تلك المدينة التي بنيت على الماء وأكثر من مئة جزيرة صغيرة. لم أكن بدعًا من القوم، فما أدركت إلا وأنا وسط دهليز مستشفى مليء بكبار السن الذين أخذوا يرمقونني بنظرات من قبيل: «أوف، هؤلاء السياح!»



ممر المستشفى الذي دخلته بالخطأ!

خرجت من المستشفى من الجهة الأخرى سالكًا الطريق الذي ظننته صحيحًا، وما طال الوقت حتى صدق ظني وظهر أمامي طريق فسيح مملوء بالمتاجر وأكشاك الأطعمة والمشغولات. سلكت الطريق حتى رأيت لوحة مكتوبة بالعبرية وأسفلها سهم، فأدركت أنها تشير إلى حي اليهود المعروف بالجيتو. لو صُنِّفت الأحياء في العالم على حسب أهميتها التاريخية، فأكاد أجزم أن ذلك الحي سيحتل مرتبة متقدمة

بينها، ففيه وحوله أسس أول بنك في التاريخ ونشط اليهود بالتمويل المعتمد على الفوائد الذي هو محرم أساسًا عليهم وعلى النصارى، فأصدر حاخاماتهم «فتاوى» تبيح القرض بفائدة لغير اليهود. وفيه وحوله استخدم الأوروبيون لأول مرة الأرقام العربية التي لا يزالون يستخدمونها حتى اليوم، وفيه عرفوا رقم الصفر الذي أخذوه من العرب كذلك، وساهم ذلك كله بجعل البندقية أهم مراكز المال الأوروبية في العصور الوسطى.



ساحة وسط الجيتو، أو الحي اليهودي في البندقية

كانت هناك ساحة هادئة تتوسط الحي، وتنتشر فيها المعابد والمدارس اليهودية التي كانت مغلقة ذلك اليوم، لذا كانت الفرصة

سانحة للتجول فيها واستكشاف مبانيها التي تظهر عليها معالم العراقة وطول السنين. في طرف الساحة لاحظت وجود المحل الوحيد المفتوح في ذلك المكان وكان يقف بجواره مجموعة من الشبان فانطلقت إليه لاستجلاء أمره، ولما اقتربت منه وجدت نفرًا من شباب اليهود ملتحين بلحى قصيرة ويعتمرون قبعاتهم السوداء الشهيرة ويتحدثون مع المارة. رغم أنني لا أجد حرجًا في التعامل مع يهود غير إسرائيليين لكنني خشيت أن يكون من بينهم إسرائيليون فتابعت سيري بجانب المحل دون أن أتوقف وأنا أحاول أن أنصت لما كان يقوله الشبان للسياح.



الشاب اليهودي يتحدث مع السياح

«أنا من كاليفورنيا!» قالت شابة أمريكية لإحدى الشبان اليهود، فقام من مكانه وقال بلكنة كاليفورنية حادة:

«أوه! وأنا كذلك!» ثم أخذا يتحدثان بينما عدتُ أدراجي إلى محلهم بعدما استيقنت بأنهم ليسوا إسرائيليين. دلفت إلى المحل والذي كان عبارة عن مكتبة صغيرة يتدارس فيها الطلاب علوم الديانة اليهودية إذ كانت مقرًا لهم وليست مكتبة تجارية كما ظننت في البداية. لوهلة شعرت أنني داخل مكتبة إسلامية من قبيل تلك التي توجد في بعض المساجد ويتذاكر فيها طلاب العلم الشرعي عندنا، فتغليف الكتب المذهبة، والفوضى النسبية التي تعم المكان أشعراني بالفعل بأنني داخل مكتبة في ملحق مسجد، لا في مكتبة يهود وسط حي بُندقي، مع فارق التشبيه بطبيعة الحال. أخذت بعض الصور وأنا أتأمل المكان إذ كان خاويًا جراء انشغال الشبان اليهود بالسائحات الأمريكيات. أثناء تقليبي لبعض الكتب دخل عليّ فتى من باب جانبي وتقدم إلي. كان شابًا في بداية العشرينيات من عمره، أشقرَ شديد البياض هزيل الجسد ويعتمر قبعة سوداء هو الآخر ويلتحي بلحية شقراء صغيرة. بدأ يحدثني بالإيطالية ثم انتقل إلى العبرية ثم انتهى إلى الإنجليزية فلما أجبته بالإنجليزية مدّ يده مرحبًا بي وهو يسألني من أين أنا.

«من السعودية» أجبته بينما كان يمسك بيدي وقال:

«مممم أين هذا المكان؟» قال هذا بينما دخل شاب آخر وجلس على كرسي مجاور يكتب في ورقة.

«لا تعرف السعودية!! إنها في الشرق الأوسط»

«آها السعودية!» قال ذلك بصوت عال حتى انتفض صاحبه من كرسيه وقام من مكانه، وأضاف الشاب وهو لا يزال يصافح يدي:

«إذًا نحن جيران! أنا من إسرائيل!»

«تقصد من فلسطين؟!» قلت ذلك وأنا أدفع يده بعيدًا عني فدخل علينا الشاب اليهودي الكاليفورني وهو يسألني بمرح من أين أنا، فرمقه صاحباه بنظرة جعلته يتوقف في مكانه ويتساءل عما يحدث. قال الشاب الذي كان يحادثني وقد احمّرت أوداجه:

«أنتم تسمونها فلسطين ونحن نسميها إسرائيل. ليس بالأمر المهم!» ثم تابع وقد ارتبك قليلاً وصاحباه ينظران إليه:

«أووه! نحن هنا نوزع بطاقات عليها شرائع نوخ العشرة»

«تقصد شرائع نوح!»

«نوخ!»

«نوح!»

«أوه، حسنًا أنتم تسمونه نوح ونحن نسميه نوخ! ليس بالأمر المهم كذلك!»

مد لي البطاقة وأخبرني بأنه عليهم الذهاب الآن للحاق بأحد الدروس الدينية، فخرجت من المكان بعدما شكرتهم على وقتهم

والتأكيد لهم بأننا، نحن المسلمين، نشارك اليهود باتباع هذه الوصايا وإن كان مصدرها مختلفًا وأن دياناتنا تشترك في الأصل وتتقاطع في الكثير من العبادات والأخلاقيات.



جانب من مكتبة طلاب الدين اليهود

ودّعني ثلاثتهم وخرجت من الحي متجهًا صوب محطة القطار وأنا أقرأ في الشرائع السبع التي كتبت على البطاقة بشكل ملون بألوان قوس المطر الذي يعتبره اليهود رمزًا لتلك الشرائع، إذ يرمز لقوس المطر الذي ظهر في السماء أثناء الطوفان العظيم ورآه نوح ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين من على سفينتهم كما يؤمن اليهود.

***

وصلت محطة قطار البندقية وكان معي نحو ساعة كاملة قبل أن ينطلق قطاري، فانتظرت في صف أمام أكشاك بيع التذاكر لكي أشتري لي تذكرة. كنت في رحلتي تلك أحمل هاتفين نقالين بشريحتين بريطانيتين ،إذ كنت أدرس في بريطانيا، وكان الجوال الأول هو جهازي الأساسي بينما أستخدم الآخر عندما أكلم رقمًا في السعودية لأن تسعيرته أرخص فكنت أبقيه صامتًا دائمًا ولم أكن أخرجه إلا عندما أريد أن أجري اتصالاً برقم سعودي. أثناء الانتظار خطر في بالي أن أنظر في جوالي ذلك لعل أحدهم اتصل علي، فجوالي الأساسي لم يكن يعمل منذ بداية تلك الرحلة لأنني لم أفعّل خاصية التجوال فيه، فلم يعد حتى بإمكاني استقبال المكالمات والرسائل.

أخرجت هاتفي النقال الآخر ووسط دهشتي رأيت اثني عشر اتصالاً لم يرد عليها من أمي وقريب منها من أبي وأخي الأكبر مهند، فأوجست ريبة وراح قلبي ينبض بشدة وأنا أتساءل عن سبب تلك الاتصالات الكثيرة! «اللهم اجعله خيرا» حدثت نفسي بذلك وأنا أحاول الاتصال بأمي التي ما إن ضغطت على زر الاتصال حتى تلقيت مكالمة واردة من أخي، فلما هممت بالرد عليه نودي علي في أحد أكشاك بيع التذاكر فتجاهلت اتصاله وذهبت لشراء التذكرة وعقلي قد انشغل كثيرًا بالأمر. اشتريت التذكرة بسرعة ثم أخرجت جوالي لأجد أخي لا يزال يتصل بي، فضغطت على زر الرد ورحبت به، فصرخ في:

«وييييينك؟! أمي مريضة! لنا كم يوم نحاول نتصل عليك....»

ثم انقطع الاتصال!

تسمّرت في مكاني وعاودت الاتصال فسمعت رسالة صوتية من شركة الاتصالات تفيد بأنني قد استهلكت رصيدي! يا للإله! كان جوالي ذلك يعمل بشريحة مسبقة الدفع وكنت قد استهلكت رصيدي حينها إذ تُحسب علي المكالمات الواردة وكان لا بد أن أخي يحاول إعادة الاتصال بي لكن رسالة «الجوال مغلق» تكون له بالمرصاد! لم يكن الأمر قاصرًا على عدم تمكن أهلي من الوصول إلي فحسب، بل لأن لا أحد منهم يعلم أين أنا، فالجميع يظنني أتابع دروسي في لندن! لم أكن حينها أخبر أهلي عندما أسافر من بريطانيا إلى أوروبا كيلا يقلقوا علي، فالمغامرة، كما كنت أعتقد، يجب أن تبدأ من الفرار من البيت كما يؤكد الكاتب وليام بلثيو!

ارتبكت قليلاً ثم اتجهت إلى الهواتف العمومية مسرعًا، لكنني أصبت بخيبة أمل إذ لم أعرف كيفية استخدامها فاتجهت نحو متجر بقالة صغير وسألت البائعة عن كيفية استخدامها.

«يجب أن تشتري بطاقة اتصال» قالت السيدة العجوز وهي تقرأ في صحيفة. لم أتردد بتقديم النقود لها وشراء البطاقة والعودة مباشرة نحو الهواتف العمومية المعدنية المعلقة على إحدى جدران المحطة. كانت التعليمات المكتوبة على البطاقة بالإيطالية باستثناء سطر بالإنجليزية مكتوب فيه: اضغط الرقم كذا ثم اتبع التعليمات، فاتصلت على الرقم المطلوب لكن تلك «التعليمات» كانت بالإيطالية ولم أفهم منها شيئًا. انتظرت لعل اللغة تتغير لكن تم إغلاق الخط بوجهي لأني تأخرت بالضغط على الزر المناسب. ارتبكت كثيرًا ولم أدر ما العمل، فاتجهت مرة أخرى نحو السيدة في محل البقالة وقلبي

ينبض بشدة وطلبت منها مساعدتي في إجراء الاتصال، فلم تعرني كثير اهتمام وأخبرتني بأنها لا تستطيع مبارحة مكانها وترك المحل! تركتها وعدت نحو الهواتف وقلبي يكاد ينخلع من شدة نبضاته وعقلي يكاد ينفجر من هول ما فيه من الأفكار والوساوس. رفعت السماعة مرة أخرى لكن انتهى الاتصال كذلك بانقطاعه من الجهة الأخرى لأنني لم أفهم كلمة واحدة من الرسالة المسجلة بالإيطالية!

أسقط في يدي وراحت يداي تنتفضان وعيناي تغرورقان بالدموع ولم يكن لدي سبيل سوى سؤال المسافرين الذين نزلوا للتو من قطار قادم من روما، لكنهم كانوا، ويا للحظ، إما مستعجلين أو لا يتحدثون الإيطالية أو الإنجليزية! خارت قواي تمامًا وطافت برأسي نتف أفكار مبعثرة ولا تجلب الارتياح، اتصالات أمي المتكررة، ومكالمة أخي القصيرة المريبة المخيفة! تعوذت من الشيطان الرجيم بعدما حبس الحزن لساني فلذت بالصمت لوهلة قبل أكرر محاولة سؤال العابرين الذين لم أجد من أحدهم نفعًا أو ذرة مساعدة.

تراجعت قليلاً بعدما تمكّن مني الحزن وبدأت قدماي بالاهتزاز الشديد من هول الهمّ والكرب حتى لم أقدر على الوقوف فاستندت على الجدار بين الهواتف العمومية ورميت حقيبتي وشرعت بالبكاء! أخذتْ دموعي تتقاطر دون أن أحاول إخفاءها فلم يكن يجري في خلدي حينها سوى تلك الأم العظيمة التي تحاول الوصول إلى ابنها منذ أيام وهي لا تعلم أنه يسافر وحيدًا في أوروبا. أحسست بالذنب والندم والتقصير وبدأت بالاستغفار وسحب أنفاسٍ عميقة وسط دموعي المنهمرة محاولاً تهدئة نفسي والتفكير في حل. أعلن عن وصول قطارنا لكنني لم أعر

ذلك اهتمامًا، وبقيت في مكاني مستندًا على الجدار أبكي وقد ثقُل قلبي بِهَمٍّ عظيم وأخذ العابرون يرمقونني بنظراتهم المتسائلة دون أن تتحرك مشاعرهم لمساعدة ذلك الفتى الحزين. مر أمامي جمع غفير آخر من المسافرين الذين ترجلوا من قطار قادم وتكاثروا أمامي وتكاثرت دموعي حتى انقشعوا عن المكان وتبين لي مجموعة من كراسي الانتظار من وسط المحطة. كانت هناك سيدة عجوز تنظر إلي بفضول متطاولة برأسها، فلما وقعت عيناي على عينيها رفعتْ يدها منادية شابة كانت في الجوار، تقدمت نحوها الشابة بسرعة فأشارت العجوز إلي وهي تتحدث معها. ووسط دهشتي، قامت الفتاة بمساعدة العجوز على الوقوف ثم اتجهتا صوبي! كانت السيدة كبيرة السن قصيرة القامة بيضاء الشعر وتحمل بيدها شنطة أنيقة متناسقة، لا أعلم لم انتبهت لتفاصيل كهذه حينها، لكن ربما لأنها ذكرتني بشنطة كنت قَد اشتريتها قريبًا لأمي، فزاد بكائي واهتزاز جسدي حتى اقتربتا مني فسألتني الفتاة، بإنجليزية جيدة، عن الخطب وكانت تترجم لأمها.

«أحاول إجراء مكالمة هامة لكن لم أفهم التعليمات ولم يرض أحد بمساعدتي!» جاوبتها بصوت متهدّج ومتقطع. أشفقت على حالي الفتاة، وكانت شقراء تقرب من الطول، فسحبت البطاقة من يدي ورفعت سماعة إحدى الهواتف وأخذت تضغط بعض الأزرة بينما راحت العجوز تربت على كتفي وهي تبتسم وتحدثني بالإيطالية حديث مؤانسة وتطمين.

«أعطني الرقم!» قالت الفتاة بسرعة، فأجبتها بارتباك: «أي رقم؟!»

«الرقم الذي تحاول الاتصال به، بسرعة!» فأعطيتها رقم جوال أمي بسرعة ولم تلبث الفتاة حتى قدمت السماعة إلي فحشرت نفسي داخل الهاتف.

لم يمض وقت طويل حتى سمعت على الطرف الآخر صوت دعاء الشيخ عبدالرحمن السديس إذ كان ذلك صوت انتظار جوال أمي، كان ذلك حينها أجمل ما سمعت في حياتي! شعرت بأن رذاذًا متجمدًا من السماء حلّ علي مخترقًا جسدي ومنعشًا له. راحت نبضات قلبي تتسارع وأنا ألصق سماعة الهاتف إلى أذني بشدة وكأنني لا أريد تفويت أي جزء من الثانية لسماع صوت أمي الذي كنت قريبًا جدًا منه.

«مرحبًا!» ردت أمي، وكان ذلك، ولا يزال، أجمل ما سمعت على الإطلاق!

«مرحبا...ألو! ألو!» تابعت أمي بينما كانت دموعي تنهمر وأنا أحاول مقاومة بكائي لما أتكلم، لكنني خشيت أن تغلق أمي السماعة! جاوبتها بهدوء مقاومًا البكاء:

«هلا ماما!» قلت ذلك بصعوبة بالغة ثم شرعت ببكاء عظيم حتى أبعدت السماعة عني حتى لا تسمع أمي بكائي. مسحت دموعي وأنا أضع سماعة الأذن مبعدًا سماعة الحديث بحيث أسمعها ولا تسمعني جيدًا. كان كل ما فكرت به حينها هو شكر الله على أن أمي بخير، إذ كان صوتها حيويًا وجميلاً، زادها الله من فضله وكرمه.

«عبودي؟! عبودي وينك؟»

«هنا.... موجود.... بس معليش... الإرسال ضعيف» جاوبتها بصوت متقطع تتصارع فيها كلماتي مع بكائي. حاولت اختلاق بعض الأعذار، ورغم أنني ندمت أشد الندم على عدم إخبارها بسفري إلّا أنني لم أجد أن هذا هو الوقت المناسب لإخبارها. اطمأننت عليها واطمأنت علي، ولم تكن مريضة إلا في خيالات أخي الذي ربما بالغ حرصًا منه على دفعي للاتصال بأمي والسلام عليها.

أغلقت السماعة وكأن نسيمًا باردًا لفحني وأعاد لي روحي، إذ هدأ جسمي وعاد قلبي لنبضاته الطبيعية فحمدت الله على منّه وكرمه. «الفتاة التي ساعدتني وأمها!» تذكرتهما وتذكرت أنني لم أشكرهما على صنيعهما معي، تلفت باحثًا واتجهت نحو مقاعد الانتظار ولم أجدهما، إذ لا بد أنهما ركبا قطارهما! القطار! تذكرت رحلتي نحو روما فحملت حقيبتي متجهًا بسرعة نحو قطار وأنا أشعر بأن روحًا جديدة عادت إلي. جلست في مقعدي على طاولة صغيرة، ويا للقدر، كان يجلس أمامي شاب في سنّي برفقة أمه!

منذ أن انتقلت للدراسة في بريطانيا، ومنذ بدأت السفر إلى أوروبا قبل ذلك اليوم بسنوات، لم أر قط شابًا يسافر وحيدًا مع أمه إلا ذلك اليوم، في تلك اللحظة! انطلق القطار وانطلقت معه مشاعري، فقلد أخذ الفتى يد أمه وقبلها، بينما راحت هي تحضنه وتداعبه. نظرت إليهما متأملاً في حالهما متذكرًا أمي التي تبعد عني آلاف الأميال والتي كاد قلبي ينخلع من مكانه عندما شعرت أنها لم تكن على ما يرام قبل قليل. أخذ قلبي يزيد من نبضاته، وعيناي تهتزان بسبب الدموع الرقيقة.

حاولت تجاهل الموقف الذي كان أمامي، لكن ما لبث الفتى أن حضن أمه حضنة طويلة كافأته عليها بطبع قبلة على خده. نظر الفتى بعدها إلى عيني أمه للحظات ثم طبع قبلة على جبينها وهو يقول بإيطالية هادئة:

«تي فولو بيِّنه، ماما!»

«أحبك يا أمي!»

عندها انفجرت مشاعري وسحبت نفسًا سريعًا وتسارعت دموعي بالانهمار، نظرتُ إلي الأم وابنها بتعجب وأنا أقوم من مكاني وقد شرعت بالبكاء. ذهبت أطوف ممرات القطار لا ألوي على شيء تاركًا دموعي تنهمر كما تشاء ومشاعري تتأجج كبحر هائج تكسِّر أمواجه بحر قصائدي:

ليتك يا قطار روما للرياض — وليتك لحضن أمي تودِيني
ودّني لأم قليبها فيّاض — بالحب والطيب منه تغذيني
ما تدري إنّ شوقي لها قيّاض — وإنها تغني عن الدنيا وتكفيني
أشوف الأم قدامي ولدها راض — يقول يمه قربي لي وضميني
وأتذكر أمي خدها بالدمع فاض — وسط المطار تودعني وتدعيني
تقول: عمرك يا غناتي والأغراض — ومن الله التوفيق يا نظرعيني
أروف في حالي وأنا أسري بالأراض — وحدي ولا أحد معايه يسليني
وأقول أنا طالبك يا رب يا قاض — تردني وتعجل بغربتي سنيني
ليتك يا قطار روما للرياض — وليتك لحضن أمي تودِيني

عبدالله بن صالح الجمعة

- مؤلف سعودي.
- بكالوريس في القانون من جامعة الملك سعود.
- ماجستير من جامعة مانشستر في بريطانيا.
- يكمل دراساته العليا في كلية هارفارد للقانون في الولايات المتحدة.

من مؤلفاته:

- «عظماء بلا مدارس».
- «أيتام غيروا مجرى التاريخ».

e-mail: a.s.aljumah@gmail.com


@aaljumah



«نظرتَ إليه نظرة ذُعر وهو يتقدم بهدوء مخيف نحونا، ثم رمقتُ المومس بنظرة شفقة وعينيها تلمعان جراء الدموع وكأنهما ترجواني بألا أذهب. رميت النقود المعدنية على الأرض، ورطّبت حلقي الذي أصيب بالجفاف وجففت جبيني الذي غشته الرطوبة... وهربتُ!»

من حكاية «الوكر».




ISBN 978-9948-425-35-9
9 789948 425359

Madarek مدارك
Madarek Publishing House
دار مدارك للنشر